

DATE DUE

Princeton University Library



32101 077095774

من روائع الأدب الفارسي

ليلي والمجنون أحِبُّ الصُّوفِي

تأليف

الشاعر الفارسي عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْجَامِي

ترجمة وتقديم وتعليق

الدكتور محمد غنيمي هلال

ليسانس ودكتوراه الدولة في الأدب المقارن من السوربون
مدرس الأدب المقارن بجامعة القاهرة وإبراهيم

١٩٥٤

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الزين سابقا)

من روائع الأدب الفارسي

Layla wa-al-Majnun

ليلى والمجنون

أَوْ الحُبُّ الصُّوفِي

تأليف

الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي

ترجمة وتقديم وتعليق

الدكتور محمد غنيمي هلال

ليسانس ودكتوراه الدولة في الأدب المقارن من السوربون
مدرس الأدب المقارن بجامعة القاهرة وإبراهيم

١٩٥٤

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

طبعة جامعة القاهرة

مشاريع مطبعة ناشأ كاشف - لا طبع منه

استدراك :

اقرأ في الصفحة المقابلة س ٥ سمدى بدل (سمد الدين) وس ١٢ من نفس
الصفحة ١٤٤٦ بدل (١٩٤٦) ، للأخطاء المطبعية الأخرى راجع الصفحات
الآخيرة من الكتاب .

مقتطفات

عبد الرحمن الجامي

يتفق نقاد الأدب من الفرس على أن المكانة الأولى في الملحمة للفردوسي، وفي القصص الشعري لنظامي السكنجوي، وفي شعر التصوف لجلال الدين الرومي، وفي الأدب الخلق والتعليمي لسعد الدين الشيرازي، وفي الغزل لحافظ، ويجمعون كذلك على أن الجامي كانت له الصدارة في هذه الأجناس الأدبية جميعاً. (١)

ولد نور الدين عبد الرحمن الجامي في جام من أعمال مدينة هراة عام ٥٨١٧ هـ (١٤١٤ م) وكانت بلاد فارس تحتاز في تاريخها فترة عصيبة، عقب غارات تيمورلنك الثلاث (في أعوام ١٣٨٠، ١٣٨٤، ١٣٩٢)، تلك الغارات التي وحد فيها إيران بحد السيف، ولستكن ما لبثت أن تمزقت بعد موت ابنه شاه رخ (عام ١٩٤٦ م) الذي بذل جهد اليائس في الإبقاء على وحدتها في حياته. ثم خضعت البلاد لدويلات صغيرة انتشرت في عهودها الفوضى وكثرت الحروب الأهلية؛ وظلت على هذه الحال إلى أن توحدت من جديد على يد الصفويين في بدء القرن السادس عشر الميلادي. وكان العصر - على ما به من اضطراب - غنيا بإنتاجه الأدبي؛ فقد خلف لنا كسبائه ميراثاً قيماً في التاريخ والتصوف والفلسفة والشعر. ولم يكن من بين شعرائه - على كثرتهم وخصب مواهبهم - من يقارن بالجامي في مكانته وشعره.

RECAP

بعد أن تم الجامى دراسته فى جام ذهب يستكملها فى مدينة هراة ؛ وأظهر فى أثناء تلك الدراسة شغفه الشديد بالتصوف . وكان إمامه فيه سعد الدين الكشغرى^(١) أحد علماء العصر ، وشيخ الطريقة النقشبندية فى عهده . ولما مات سعد الدين عام ٨٦٠ هـ (١٤٥٥ م) اتخذ الجامى مسكنه بجوار قبره فى ضاحية من ضواحي هراة ، وهناك تعرف بمير على شير^(٢) الذى كان وزيراً فى بلاط السلطان حسين بيقرا آخر بنى تيمور .

ويحدثنا هذا الوزير عن حياة الجامى فى مقامه الهادى فى تلك الضاحية ، ويقرر أنه كان كثيراً لاطلاع على العلوم الدينية والدنيوية ، وقد برز فى ذلك علماء عصره . ويذكر أنه كان دائم التفكير فى الذات الإلهية ، لينفذ من وراء الحجب إلى جمال الحقيقة ، وكثيراً ما كانت تعتريه لذلك حالات من الوجد الصوفى عَنِى بتسجيل خواطره فيها فى شعره . ويشهد ذلك الوزير أيضاً أن الجامى كان قد وصل فى العلوم إلى درجة ليس وراءها مزيد ، حتى إنه أصبح فى غير حاجة إلى الرجوع إلى كتاب اللجابة عن مسألة من المسائل فى أى فرع من فروع العلوم .

وبدل على مكانة الجامى بين معاصريه أن ابن بيقرا والى هراة ، أقبل يوم وفاة الجامى مع رجال حاشيته فى ملابس الحداد ، ليودعوا الشاعر إلى قبره . وكان رجال الحاشية - كما يحكى على شير - يتناوبون حمل النعش ، وقد وقفوا طويلاً ليكون على قبر الشاعر ، بجانب قبر شيخه سعد الدين

(١) يتحدث عنه الجامى فى كتابه : نفحات الأنس ، مخطوطة فارسية بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ٢٠٣
 (٢) قد ألّف هذا الوزير كتباً بالتركية عن حياة الجامى عنوانه خمسة المتعبرين ، وهو من أهم المراجع لحياة الجامى ، وقد ترجم فقرات منه Belin فى Journal Asiatique 1861 ، ويذكر فقرات منها أستاذى هنرى ماسيه فى مقدمة H. Massé : Béharistan de Djami, Paris 1925
 وقد رجعنا إلى هذه المراجع ومراجع غيرها لهذه المقدمة .

الكشغرى ، فى جمع غفير من الشعب ازدحمت به الشوارع ، حتى كان يتعذر فيها السير بالجنازة ، مما اضطر الأمراء إلى الاشتراك مع رجال الشرطة فى شق طريق السير . ولم يكن الجامى ذا حظوة لدى بنى وطنه فحسب ، بل كان كذلك موضع التقدير من ملوك العصر . وقد بقيت لنا رسالتان وجههما إليه السلطان بايزيد الثانى من القسطنطينية^(١) .

* * *

ومن بين مؤلفات^(٢) الجامى الكشيورة نخص بالذكر اثنتين : هما قصة يوسف وزليخا وقصة ليلي والمجنون^(٣) ، وهما من إنتاج الشاعر فى أيام كهولته . إذ كانت سنة إذاك قد ناهزت السبعين . وفى كلتا القصتين نرى أثر ثقافته الإسلامية والعربية ، فقد أخذ القصة الأولى عن القرآن ، والثانية عن الأدب العربى . ويزعم الجامى فى مقدمته ليوسف وزليخا أنه أول من نظم القصة^(٤) ، ولكنه فى مقدمة ليلي والمجنون يذكر أنه اطلع على قصتين ألفتا قبله فى الموضوع : أولاهما لنظامى الكنجوى ، وثانيهما لأمير خسرو^(٥)

(١) راجع : Browne : Lit. History of Persia, III p. 422—423

(٢) للجامى مؤلفات كثيرة دينية وأدبية وصوفية ، وقد ألف كذلك فى النحو والعروض والموسيقا : المرجع السابق ص ٥١٢ — ٥٤٨

(٣) قد تم نظمها للقصة الأولى عام ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) وللقصة الثانية عام ٨٨٩ هـ (١٤٨٤ م) انظر المرجع السابق ص ٥١٦ .

(٤) وليكن الفردوسى كان قد سبقه ، راجع مقدمة يوسف وزليخا مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ، ويرجح أن الجامى لم يطلع على قصة الفردوسى راجع : Bricteux, op. cit. p. XI

(٥) مات الأول عام ١٢٠٢م والثانى عام ١٣٢٥م ، وسنذكر ماخص القصتين ، ونبين التأثير العربى فيهما فى كتاب : الحب العذرى وحب المتصوفة أو ليلي والمجنون فى الأدبين العربى والفارسى (تحت الطبع)

الدهلوى . ولكن أثر الجامى ظهر واضحا فى صبغه القصتين بلون دينى وفلسفى اكتسبته طلاوة وطرافة .

وفى الحق قد كان لنظامى من قبله الفضل فى أن جعل من ليلى والمجنون قصة احتلت فى الأدب الفارسى مكانة لا تقارن بها فى الآداب الأوربية إلا قصة روميو وجوليت أو قصة تريستان وإيزولت . ومنذ نظامى والأوضاع فى الأدب الفارسى مجال لخيال الشعراء عامة والمتصوفة منهم خاصة^(١) .

والجامى - مثل نظامى - ذو روح إسلامية وميول عربية ، على خلاف الفردوسى الذى ظهرت بعض ميوله الإيرانية فى الشاهنامة^(٢) . وقد تأثر الجامى كثيرا بنظامى فى قصة ليلى والمجنون ، ولكن شخصيته مع ذلك واضحة فى كثير من آرائه ومشاعره التى تترامى من خلال قصته ، فقد سادها لون من التشاؤم^(٣) الذى استولى عليه فى كهولته .

وقد كان الجامى أكثر عناية فى قصته بشرح إدراكه للحب على نحو ما يرى المتصوفة ، مبينا أن الهيام بالجمال الجسدى يقود إلى الله متى أدرك الحب أن ذلك الجمال مرآة لجمال الله ، فاتخذ بذلك طريقا للتقرب^(٤) منه . ويعتقد الجامى « أن العشق الذى هو منقبة من مناقب الإنسان وخاصة من خصائصه ، حيثما وجد ، يستلزم العفة والظهر ، أما العشق الذى فيه هوى النفس وشهوة الطبع فمن صفات البهائم والسباع^(٥) » . وعلى هذا النحو

(١) لنشأة الموضوع وتطوره فى الأديبين العربى والفارسى راجع كتابى السابق الذكر .

(٢) انظر : Lit. Hist. of Pers III, p. 541 Browne .

(٣) انظر مثلا فصل ٥٢ من هذه الترجمة وكذا فى مواضع متفرقة من القصة .

(٤) راجع مثلا فصل ٤٨ من الترجمة .

(٥) راجع بهارستان للجامى ص ٣٩ .

يشرح الجامى كيف أحب المجنون ليلي وتقرّب من الله بحبه^(١). هذا إلى أن الجامى قد اتخذ من المجنون معبرا عن آرائه في التصوف في كثير من المواقف، كما أدراكه الجمال على نحو ما يرى المتصوفة، واعتماده في الوصول إلى الله على القلب على العقل، إذ العقل عند المتصوفة قاصر عن إدراك الحقائق^(٢).

ويعرض الجامى في أول قصته لنظرية المتصوفة في أن الجمال كان السبب في وجود الخلاق، فهو لا يعتبرون أن من طبيعة الجمال — أيما وجد — حب الظهور والابانة عن النفس. وكان هذا شأن الجمال المطلق الذي أراد أن يُعرّف خلاق الخلق ليعرفوه، ويهتدوا إلى جماله بما في خلقه من جمال^(٣). فكان السبب في وجود الكون ما اتصف به الله من جمال أراد أن يظهره، فخلق العالم على ما فيه من نقص وشر، ليستدل المتأمل فيه على ذى الجمال المطلق والخير المطلق، كما يُستدل بالظلام على النور، وهذه هي الحكمة في وجود الشر في العالم في نظر المتصوفة. وفي العالم مع هذا الشر كثير من مظاهر الجمال والخير، إذ قد أودع الله الخلاق لمحات لإشراق من الحسن هي مرآة ذلك الحسن الذي تقصر العقول عن إدراك كنهه، وبها يستدل القلب عن طريق الكشف على جمال واجب الوجود. وبهذا كان الجمال —

(١) راجع مثلاً فصل ٤٨ من هذه الترجمة.

(٢) لا يتسع المقام هنا لشرح نظريات التصوف في ذلك وتأثير الأفلاطونية فيها، وأحيل

القارى فيه إلى كتابي السابق.

(٣) وبهذا يفسر الصوفية حديث «كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً ففرقتهم بنى فرعونى، وفي لفظ: فتعرفت إليهم في عرفونى» وقد اعتمد الصوفية هذا الحديث وبنوا عليه أصولاً لهم. قال ابن تيمية: ليس هذا الحديث من كلام النبي، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف.. قال القارى لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» أى ليعرفون كما فسره ابن عباس: راجع: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس لاسماعيل بن محمد العجلونى ص ١٣٢.

عند المتصوفة — سبب وجود الخلق ، وكان الهيام به سبيل الوصول إلى الخالق ، ثم الفناء فيه عن طريق العشق . وبهذا اكتسب العشق عندهم معنى سامياً ، إذ لم يكن مصدره العاطفة والتسامى بها إلى درجة العفة والظهر فحسب ، بل كان مع ذلك عبادة ، ينتهى فيها الزاهد ، بتأمله في جمال من يرى بها من حسان الخلائق ، إلى أن تتصل روحه بذى الجمال المطلق والحسن الذى لا يتناهى . فالصوفية لا يغفلون شأن الجمال الجسدى وأثر النظر إليه في معرفة جمال الله . فالحب عندهم بهذا المعنى سلم للقربى ^(١) من الله . ولهذا تشبهه قصائدهم في الحب بقصائد غيرهم من الغزائين ، حتى ليختلط الأمر أحياناً . فلا يدري المرء أهو أمام عاشق وله ، أم أمام زاهد يتعبد . وإليك مثلاً ما يقوله الجامى في حالة من حالات وجده الصوفى وهيامه بالله :

« ها هنا طرف الحديقة ، وشط النهر ، وحافة الكأس ، فانفض أيها الساقى ، إذ الزهد حرام في هذا المقام . إذا تَمَلَّ الشَّيْخُ في صومعته طرباً لسماع الألحان ، فدعنى وخمر الدنان ، إذ في مثل هذه الحال يدوم سُور الخمر . وحين تضع شفاهك على شفاه الكأس ، لا أستطيع — أنا التمل — أن أميز هنا أين الخمر من ياقوت الشفاه . قلبي وحده أسير حلقات غداثرك ، فأينما طاف طائر القلب فهو هنا أسير شباكها . أنت تسئل مميهاً لتفطر قلبي شطرين ؛ دع السيف فظرة منك هنا كفيلة ببلوغ هذا المرام . لا تشرح مشا كل العشق لذوى العقول ، ولا تبج أما مهم بدقائق يدر كها الخواص ، بيننا مقامهم عام المجالس . قد صار الجامى ثملاً بحبك لم ير خمرأ ولا كأساً .

(١) لقد أوجزت هنا غاية الإيجاز في عرض هذه النظريات من التصوف ، وقد شرحتها ، وبينت أصولها الدقيقة والفلسفية في الباب الثالث من كتابي السابق .

ها هنا مادة العشق فأى مكان فيها للخمر أو للسكاس (١) ؟ »

* * *

وبحسبنا في هذه العجالة هذا القدر من حياة الجامى ، لنترك القارىء أمام النص الذى علمنا عليه بما يشرح غرضه ، ويشير إلى معانيه التاريخية والفلسفية ، وببعض مصادره العربية . ونود أن ننبه إلى أن الجامى — على ما له من فضل وبراعة — ولوع فى أسلوبه بالتكلف والحلية اللفظية ، والتلاعب بالألفاظ ، وذلك طابع عصره . وقد حافظنا على خصائص أسلوبه ، وحاولنا ما استطعنا أن ننقل فى الترجمة كل ما يرمى إلى تبيان معان حتى تكون الترجمة صورة صادقة للنص الفارسى ، ولتيسر بها الرجوع إلى الأصل لمن يدرسون الأدب الفارسى ، ثم لى تكون الترجمة علمية — يجد فيها العون من يريد القيام بمقارنات فى الموضوع .

غير أننا حذفنا فى الترجمة بضع صفحات من أول القصة فى النص الفارسى ، يناجى فيها الشاعر الله ، ويستمدد عليه من طريق التأمل فى مخلوقاته ثم يمدح الرسول ، ويذكر قصة إسرائه ومعراجه . وإنما حذفناها لأن موضوعها لا يمت إلى القصة بسبب ، وخواطر المؤلف فى هذه الصفحات مطروقة ، ثم إنها تبعد بالقارىء العربى عن جوهر القصة .

وشىء آخر نود أن ننبه إليه ، هو أننا اختصرنا بعض عناوين الفصول فى الأصل ، وذلك حين تطول إلى بضعة أسطر ، وتبدو مصوغة فى تكلف قد يخفى على القارىء معه معنى العنوان . ولسكننا كثيراً ما حافظنا على ترجمتها

(١) كليات جامى طبعة لكهنواص ٩٧ ، وكذا : Browne : Lit. Hist. 111, p. 545

و H. Massé : Anthologie Persane, p. 181 — 182

كما هي إذا بدت موجزة واضحة . وفيما عدا هذا قد التزمنا جانب الوفاء للنص في نقل القصة إلى العربية نقلاً دقيقاً .

هذا وقد رجعنا إلى المخطوطات التي بين أيدينا في مكتبة جامعة القاهرة المصرية ، وكان أوضح هذه المخطوطات وأوفاهها مخطوطة رقم ٢٣٥ في مكتبة الجامعة ، ومخطوطتان رقم ١٢٥ و ٢١ في مكتبة دار الكتب . ولا يكاد يوجد في هذه المخطوطات خلاف في النص يؤثر على المعنى في الترجمة ، ولذا لم نلجأ إلى الخلاف فيما بينها في تعليقاتنا ، إلا أننا حين نجد في مخطوط منها زيادة — وقلنا نجد — نحصر على نقلها في ترجمتنا لكي تكون أقرب إلى السكال .

وقد راعينا غاية الإيجاز في التعليق على النص ، مقتصرين في المراجع لهذه التعليقات على ما تدعو إليه الضرورة .

محمد غنيمي هلال

(١)

في معنى عشق الصادقين وصدق العاشقين

عند ما تنقش صبح الأزل عن العشق ، نفث العشق نار الشوق في القلم ،
فأجرى على لوح العدم صوواً جمّة ذات تماويل بديعة . فكانت الأفلاك
وثيدة العشق الذي خرت صريعة لسلطانته أرجاء الأرض ^(١) . فلو لا العشق
لم يوجد أثر لمخلوق خـير أو شرير ؛ ولا وجود لشيء لم يكن مصدره العشق .
فهذا السقف العالى الأزرق الذى يتوالى دورانه ليلاً ونهاراً هو نيلوفر بستان
العشق ^(٢) ، وكرة منحني صولجان العشق . فالمنظمية التى هى طبع الحجر
قد أُنشبت مخالبها فى الحديد الصلب ، نقر الحديد صريع العشق الذى
تجلى له من الحجر . فانظر إلى الحجر فى هذا المقام كيف استخفه الشوق إلى
الحديد ^(٣) ؛ وخذ من هذا قياس المصابين بالعشق أنهم فى جذبة العشق
راضون . فعلى ما بالعشق من آلام هو راحة الصدور الزكية . وبدون
سلطان العشق كيف يتخلص المرء من محن الفلك المـُـدِيل ؟ ؟
وما من آدمى يخلو من معنى العشق علاقهه أو دناءته ، ولكن الفرق

(١) لفهم هذه الإشارات الصوفية راجع المقدمة ص ٤ — ٦ ولغزيد من الفهم راجع كتابي :
الحب العذرى وحب المتصوفة الفصل الأول والثانى من الباب الثالث . وهذا الإدراك للجمال
والحب مطابق لإدراك أفلاطون راجع :

Platon : le Banquet, traduit. Meunier, paris 1920, p. 40 etsq.

(٢) هذا تعليل آخر للحب ، وأنه تجاذب بين الشبيه وشبيهه من المخلوقات حيوانات كانت أم
جمادات ، ولكن العشق يبلغ أقصى حالات وعيه فى الإنسان . والمنظيم والحديد فى مثال الشاعر
كلاهما معشوق وكلاهما عاشق ولكن عنصر الحديد أقوى إذ هو الطالب لعشيقه . وهناك خلاف يسير
بين ترجمتنا وبين ترجمة Browne لهذه الأبيات يرجع إلى خلاف فى المخطوطة ، وقد أثّرنا هذا
المعنى طبقاً لمخطوطة ٣٢٥ بمكتبة الجامعة ، إذ المعنى منطبق على ما يورده ابن حزم فى طوق
الحمامة طبعة القاهرة ١٩٥٠ ص ٨ وهذا المعنى مشروح هناك بالتفصيل . ثم إن هذا المعنى
مأخوذ أيضاً عن أفلاطون راجع Platon, op cit. p. 36 وكذا : Massignon: la Passion
d'al -Hallaj, p. 188 وقد شرحت هذا فى كتابي السابق الذكر .

ما بين حبيب وحبيب قد يبعد في القدر بعد الفشور عن اللب . فالمعشوق من ذهب ، والعاشق من فضة ، وبدون فضة كيف يستقيم أمر الذهب ؟ والمعشوق كرامة ، والعاشق حديقة ، فصدر العاشق بها موسوم .

فياحبذا من غسل ضميره من كل الأوشاب بحب جميلة مرحة ، وربط قلبه بملوحة ذات دلال ، خبيرة بمجالس الأنس ، أذيا لها طاهرة من الأغيار ، لا كأذيال الورد الممزقة بالأشواك . وخير منه ذلك الذي يرتبط بمشهد (١) خبير بالسلوك ، يُخجِّلُ الورد بوضاءة الوجه ، ويحسده الياسمين لبياض شليمه . جماله مرآة الأرواح ، وكلامه مفتاح الفتوح . وإذا دعاك داعي العشق من هذين المقامين ، أو صلك محله إلى الحقيقة هذه هي وردة الصحراء الوسيعة ، وزهرة بحر الحجاز . ومن لانصيب له من العشق في حديقة الدنيا هذه ، فهو غافل عن حريم القربى ، ولم يستنشق نسيم الإنسانية .

يحكى أن واعظاً فصيحاً ، باسطاً ظل عليه على مجلس وعظ ، كان يسوق طرائف من دفتر العشق ، ويحكى من قصص العشاق . فر بمجلسه رجل ضل حماره ، وأخبره عن ضالته . فصاح الشيخ قائلاً : مَنْ مِنْ الحاضرين اليوم لم يتقد قلبه بنار العشق . ولم يندق قط محنته ، ولم يكتو بنار الحسان ؟ فوقف رجل ساذج من مكانه ، لم يسفر قلبه عن دخان الآهات . وقال : يا وحيد الزمان ، أما ذلك الإنسان الذي لم يكن له قط نصيب من العشق ، فتأدى الواعظ الرجل الذي ضل حماره قائلاً : ها هو ذا حمارك ، فأحضر مقودك ، فهو والحمار سيان ، إذ أنه لم يعان تباريح العشق ، ولا فرق بينهما غير طول الأذنين .

فالعشق رأس مال القربى ، بل آدمية الإنسان من العشق . فمن لم يعشق فليس بإنسان ، وليس بأهل لمجالس القربى .

أى جامى ! كن رهيناً بإسار العشق . واقطع نفسك بوصل العشق .

(١) يقصد شيخ الطريقة ، وهو معشوق لجمال روحه ، قارنه بأفلاطون :

(٢)

سبب نظم الكتاب وباعث ترتيب هذا الخطاب

أقرب القصص للقبول ، وألصق الأحسان بالطباع ، هي قصص العشق
والحانه ، في كل ما يعرف الفصحاء ، وفي جميع ما قرأ الباغاء . لذا شرعت
في رفع الستار عن هذا السر ، وفي التغني بهذه الطرفة ؛ فألهمني طبعي الموهوب
ما ألهمني من عذب القول في حب يوسف وزليخا ^(١) ، فانبجس من قلبي
من حلو الكلام ما نظمت به قصة كانت في العالم مشار الفتنه ، ولكنها مشار
السرور في خواطر العشاق ؛ وكانت منبع لطف ، ولكن لم يرتو منه عطشى .
وفي مكان آخر كان طائر قلبي يريد أن يتغنى بلحن جديد ، فجوى الاقتراع
بقال ميمون ، حين وقعت به على شرح حال المجنون . على الرغم من أنه
قد عالج الموضوع قبلي أستاذان ، لهما صرح عال في دولة الفصاحة ، وقد بسطا
لساهما في إيراد الشطرف ، ووفيا الكلام حقه : أحدهما من كنجيا ^(٢) ،
وقد كشف في قصته عن كنز الجواهر ؛ والآخر من الهند ^(٣) ، وقد سال
عذب حديثه الفياض . وقد دق الأول طبل الدعوى ، وجلا الثاني عروس
المعاني . وزين الأول ببديع نظمه الألواح ، وحلاها الثاني بيده الصنّاع
بالألوان . وبلغ الأول بعلمه أوج الإعجاز ، ونفذ الثاني بسحره إلى الآلاب .
وقد اقتفيت أثرهما ، ممتطيا راحلة خاطري العداة كالريح . وقد راجت
بضاعتهم في كل مكان ، وجاد بها خاطـرهما الكريم . وحشت راحلتي
— على ما أنا عليه من عوز بالإضافة لهما — فلهجت غبارهما . وإذا عُددتُ

(٢) المقدمة ص ٣

(١) أنظر المقدمة ص ٣

(٣) هو خسرو الدهلوي : المقدمة ص ٣ — ٤

بعدهما في الشوط ، فكيفاني ماجلل وجهي من غبار اللحاق بهما ، فهو
إكسير وجودي وحلية عطلي .

لا ، لا ، إني غريق في بحر القلزم ، فكيف بالتراب أتيهم ؟ وإنما
أغترف من منبع همتي ما أغسل عن وجهي هذا الغبار . وذو الجود
المطلق هو فياض كل إلهام . وكل طلب من سواه عيب وامتنان . وإذا
استطعت الحصول على جوهرة من معدنها ، فمن الضعف أن تلجأ في
الحصول عليها إلى جوهرى . الدجلة ملك يمينا حقا ، فلا يليق بي أن أطلب
ماء من سقاء . ولا تأخذ كفى جاما والارتواء بها من وشل مائي ، خير من
الارتواء بكأس من ذهب من حياض سقاء آخرين . وحين تفيض اللجة
فلا إمساك خشية الإنفاق . ومأتى الجذب خلو الذهن من الخاطر . وإذا
أريد إمساك ماء المورد سدَّتْ عينه بحجر من الأحجار ، وقد ظهرت عين
إلهامي من السداد ، ليعم فيضها ، وينساب في كل جهة ماؤها ، حتى أروى
وأروى سواي . سأروى بلحن الغيب ، وأجعل فضل شرابي صدقة .

(٣)

ذكر بعض من خرجوا من دائرة الزمان ، ودعاء

بعض من حلوا في مركز نقطة الحال^(١)

ياساقى الروح فداك روحى ، اترع الكأس من خمر الصبوح^(٢) ، من تلك
الخمر المباحة لذوى العشق أهل القلوب الواعية ، وأت بها مشرقة فقد حل
الصباح ، لتعقد مجلسنا على مشهد من خيوط الفجر ، ونسوق في جمع الخلان
نبذة من طرائف اللطفاء ، أولئك الذين كنا لهم رفقاء ، وكان بعضنا شقيقاً
على بعض ، فحننا معا خطا الطاب ، وتصفحنا صحائف الادب . كنا متكاتفين
في الغيبة والحضور ، ودون أن نكون معا لا تمتد يدنا إلى طعام . ألا فليكن
مقامهم في علمين ، وليكن الكوثر من رشحات كموسمهم . بقلبنا من فرقهم
حرقة كحرقة الشقائق بارحت حديقتها . ذهبوا وتركونا ، وولوا ولم يبالوا .
فناولنا — أيها الساقى — كأساً مبيدة للأسى ، وروّنا من الجام باعثة
الطرب ، من تلك الكأس التى تشيع فى النفس السرور ، وتبعث ذكرى

(١) أى ذكر من ماتوا ، وبلغوا بموتهم أعظم غاية للوجد وهى القرب من الله حتى الفناء
فيه : راجع لهذه الاصطلاحات الصوفية Massignon: Lexique Technique de la
Mystique Musulmane, p. 39, 255, 275

(٢) الخمر عند الصوفية رمز للوجد Extase وقد تأثروا فى هذا بغيرهم فمثلا Philon يتحدث
عن الخمر بهذا المعنى فى كتابه: De Vita contemplativa ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ،
وعلى هذا النحو يتحدث الجامى عن الخمر فيما أوردنا له من شعر فى مقدمة هذا الكتاب ص ٦ — ٧

السابقين من نازلى القبور ، بمن تلمثت أقدامهم فى طريق التجريد (١) ، وصفت أقدامهم فى مجلس التوحيد (٢) ، شيوخ مسالك الطريقة ، وأسد ممالك الحقيقة ، المظهرون عن حب النفس ، قد وجدوا طريقهم (٣) إلى تملك الوجود ، وختموا طبائعهم بميسم الزهد . كانوا مصابيح هدى لأهل الظلمات ، وكان من الناس من يقبض منهم الأنوار فى دجنة الحياة ؛ يغمرونهم بالنور ، حيث استغنوا عن المصباح والشموع ، واستضاءوا بنور (٤) الجمع . آثار أقدامهم فى أى الطرق سلكوا هداية للناس . فرأى فداهم ، ولتكن روحى تراب طريق وفاهم .

أيها الساقى ! إن قلبى قد انقبض دونى ، لم يدع من أمرى مستقيماً ولا معوجاً . فاسقنا خمرة تخلصنا بها لحظة من حب الذات والكبرياء . ورُدَّ شفاه الأمل مبتسمة من جر ع كأس النقشبنديين (٥) ، ونجنا بتلك الطريقة من أهوال حب النفس والإعجاب بالذات . وإن كانت بغداد من قديم عامرة

(١) التجريد . هو تخلص النفس من جميع الأغيار ، ومن التفكير فى الذات بغية القرى الكاملة من الله ، وأما التوحيد فيقسمه الجامى إلى توحيد إيمانى وعلمى وعملانى لا يختص بهما المتصوفة ، ثم توحيد حالى وهو أن يلزم التفكير ذات الموحد حتى لا يرى إلا الواحد . ولا بد أن يصاحب هذا التفكير التوحيد العلمى لا التقليدى ويمتزج به حتى يروى الموحد بشرب التوحيد الموصوف فى آيه : ومزاجه من تسليم عينا يشرب بها المقربون . راجع الجامى : نفحات الانس ورقة ١٧ وكذا Massignon: op. cit. P 74,246,283

(٢) هذه العبارات تذكرنا ببعض عبارات لأفلاطون : Platon: op. cit. P 48

(٣) الجمع : الفناء فى الله : Massignon : op cit. P. 75 ويعرفه الجامى بأنه استغراق الموحد فى مشاهدة جمال الواحد فلا يرى غير ذات الواحد وصفاته وتلاشى ذاته كأنها قطرة فى تلاطم بحر التوحيد . راجع نفحات الأنس للجامى المخطوطة الفارسية السابقة الذكر ورقة ١٦ .

(٤) نسبة لنقشبند : وهو محمد بن بهاء الدين البخارى (١٣١٧ — ١٣٨٩ م) عاش فى ضواحي بخارى وتنقل فى مدن كثيرة وهو مؤسس الطريقة النقشبندية راجع جامى : نفحات الأنس مخطوطة فارسية بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٩٤ — ١٩٥ .

بالجنيديين^(١) ، فقد عدت سمرقند الآن بغداد ، فهي هم خطيرة الشأن .
وإذا سميت الجنيديين ، فمن بالعميديين في قافيةك . وحين يفيض الطبع بفصيح
القول ، فلن تجد أجمل من هذه القافية . ونظم موضوعه الرسوم الصوفية
نظم بديع في الزمان ، حقيق بالخلود ، وجدير به الا يكون خالياً من هذه القوافي .
أيها الساق ! ناولنا من تلك الخمرة المشرقة كالشمس في جام^(٢) جمشيد
الكاشف للعالم ، من تلك الخمرة التي جعلت من نور الإشراق الذي يكشف
جوانب التاريخ قديمه وحديثه . فأين بهرام وأين قبره ، وعضده كالأسد^(٣)
قوة ؟ ، وأين كاووس^(٤) وقصره الأشم الذي كان يطاول السماء ؟
وجنكيز^(٥) الذي كان ذئب هذه الصحراء ، فتخلص الوادي منه ، وتغلب

(١) نسبة لجنيد وهو أبو القاسم بن محمد بن الجنيد الخراز ، صوفي ببغداد ، أصل أسرته
من نهاوند ، درس الصوفية على أبي ثور تلميذ الشافعي ، حج ثلاثين مرة على قدميه ، وكان
يسمى سيد الطائفة : المرجع السابق ورقة ٤٧ .

(٢) جمشيد من ملوك إيران القدماء يعتقد أنه عاش حوالي ٣٠٠٠ ق.م ، ومن الأساطير
المعزوة إليه أنه كان له جام ينظر فيه فيرى فيه الكائنات في الأقاليم كلها ، ويطلع به على حوادث
الكون أجمع : انظر الشاهنامه تحقيق وتعليق الدكتور عزام طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠م (١٩٣٢م)
ج ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، وكذا Jackson : Early Persian Poetry P. 96—99

(٣) وهو بهرام الخامس بن يزجرد الأول (٤٢٠—٤٣٨ م) وقد شهر بقوته وبراعته
في الصيد ، انظر الطبري طبعة I, 558 de Goeje ، وكذا مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه طبعة
ليدن ١٣٠٦ ص ٢٥٥ .

(٤) يسمى بالعربية كيقاوس وهو الملك الثاني من ملوك الفرس الكيانيين
وهو ابن كيقباز في الشاهنامه ، وفي كتب أخرى أنه حفيده أو ابن أخيه ، ولقبه نمرذ ،
ويقال إنه حاول أن يطلع على صرح إلى السماء : راجع الشاهنامه تحقيق وتعليق الدكتور
عبد الوهاب عزام ج ١ ص ٢٦ وص ١٠٣ — ١٩٩ .

(٥) جنكيز خان المغولي ، ومؤسس الأمبراطورية المغولية المترامية الأطراف ولدام ١١٥٥م
ومات وهو يحاصر إحدى بلاد الصين عام ١٢٢٧ : راجع مثلاً : Brockelmann: Hist. des
Peuples et des Etats Islamiques, P. 209—211

في مقلب الأقدار المتذبذبة ، وفقد روحه في حربه ؟ أين تيمور شاه^(١) ، شبيه
السد الحديدي ، في أمان من الفساد ، فاتح الثغرات ، قد صار في كف
العجز لدينا كالشمع ، ثم أسلم الروح محروما من الملك والمال ؟ وشاه رخ^(٢)
الذي عاش سعيدا مجدودا ، وبعد صيت حكمه ، أضحي على بساط رقعة
الآفات لعبة ، فبينما هو ملك إذ قيل مات .

أيها الساقى ! ادع التعلل لحظة ، واسقنى كأسا من خمرة المجوس ، تلك
الخمرة التي يلبعث طيها من القلب ريحان دعاء لذلك العادل ، ملك يأبى
الظلم ، شعاره العدل والكرم ، وما احتياجه للدعاء ، وعدله ملاذ العرش
والتاج ؟

بعد أن شد الفاروق عمر الرحال من هذا العالم ، بقي به صيته العادل .
وأما حين حزم الحجاج متاعه من هذه الدنيا فقد نجا العالم من ظلمات ظلمه .
فطابت بالعدل سيرة ذاك ، واستراح في روض الرضا ؛ وعاش هذا بظلمه
موضع الذم ، على ما ينتظره في العالم الآخر من أنواع العقوبات . ألا طاب
عيش من يفتصح ، وبغيره يعتبر ، فيضحك من عيب المولوم ، ويقتفي أثر
من أحسن عملا .

فناول — أيها الساقى — تلك الخمر القديمة على السنين ، وصبها ياقوتا
مذابا ؛ فتلك الخمر حين يحتسيها المحبون ، يصبحون ولا هم لهم غير الوفاء والحب .
وهي مبعث الارتياح للخائفين النافرين ، وصلة المتقاطعين . ومن يتوافق

(١) المقصود به هنا تيمورلنك : راجع مقدمة هذا الكتاب ص ١ . ويعتقد بعض المؤرخين
أنه من نسل جنكيز خان راجع دائرة المعارف الإسلامية . وقد ولد تيمور سنة ١٣٣٦ م
وتوفي سنة ١٤٠٥ .

(٢) راجع مقدمتنا لهذه القصة ص ١ — ٢ وفي النص تلاعب بالألفاظ في كلمة شاه رخ إذ هي
أيضا اصطلاح في لعبة الشطرنج ولم أستطع ترجمة المعاني الفارسية إلى العربية بأكثر مما فعلت .

وصاحبَه يثمر نخل أمله الثمر البانع . فالحييب مفتاح كنز الأمل ، وأنشودة
العشق الخالد . ومن المقصود في الوجود غير الحبيب ؟ وأى جنى من كل
أنواع الصلات غير جنى الحبيب ؟ ومند أول العهد بالوجود حتى آخره
لا يطير الطائر بأسرع من الصديق ؛ ولا يفتأ الصديق يغرد في بستان الصداقه
على أغصان الوفاء ، فيرسل من الحانه اللطيفة ما يهدده به القلوب المهيمضة ؛ وليس
من عمل يفضل هذا العمل . ألا فداءً لمثل هذا الصديق كل الأصدقاء .

أيها الساقى ! هذه أنفاس الفجر كالمسك الخالص ، وقد أخذت تهب
أنسام الصباح ، وتهب من الخمار رائحة الشراب ، فاصح واجذب إليك
دنا من تلك الخمر التي تحرق بنورها^(١) فراشة العقل ، حينما تتقيد بها شموع
الروح . وعندما يحترق العقل ينمى العشق ، ويموت عصفور العقل ، لتزفر
العنقاء بأجنحتها . فتحرر من وسائل العقل ، وكن طليقا من عقاله ، حتى
تربح في تجارة العشق وتطمئن في ظلاله . فالعشق أينما كان طهر وزهد ،
والعقل حيثما كان مكر وحيلة .

أى جامى ! يجنون الاشتغال بالعشق ، خلاص نفسك من التصنع ؛
ولماذا لم تبلغ شرف تلك الرتبة ، ولم تمارس أصول جنون العشق ، فاجلس
واتل القصة ، وانثر السجر من حديث ذلك الإنسان الذى 'جن'
من العشق .

(١) الصوفية يؤمنون بأن المرء يصل إلى الحقيقة عن طريق القلب لا العقل ؛ راجع مثلا
الفصل الأول من الباب الثالث من كتابي : الحب العذرى وحب المتصوفة .
(٢ م — ليلى والمجنون)

(٤)

الحلقة الأولى في قصة عشق ليلي والمجنون

كاتب تاريخ العشاق ، ذو الأسلوب العذب والكلام المطرز ، عند ما بدأ في حديث سيد العشاق هكذا سطر على لوح البيان قائلا :
كان في بني عامر رجل رفيع القدر . سعيد الطالع ، بدر يتألق في أفوج الشرف ، موموق من العرب لطيب فعالة ، مرموق من العجم لرفعة شمائله ، تجمعت له أسباب المال والثراء ، ووفر من الدور والمروج . خيامه المضروبة تضيئ على الجبل والسهل منظر مخيم ضخم أقيم على بساط الغبراء^(١) ، تتأخم طلائعه المعمور من أرض الين . ضاقت الجبال والسهول في وجه الغزلان من كثرة قطعانه . وقطعان إبله جبل أشم فوق الجبل ، شاحخة المنظر جميلة المظهر ، مرعاه الأرض جمعاء . خيله تغدو وتروح في كل الأرجاء ، كأنها قطعان لا حصر لها من حمر الوحش . بابه مفتوح للضيفان يدعوهم إلى مأددة كرمه . في السهل والجبل ، ومن الليل حتى الصباح ، يُوقِدُ النار ليحلب الضيوف . يُيسر السائلون بطلاقة وجهه . ويصير خرابهم بجوده عامراً . وقد جرى ذكره في كل قبيلة ، بما تفيض به كفه من أياد جميلة . تنقبض عما تجوده كفه يد حاتم . ويقبّل لديه سادات العرب الأرض تبجيلا ، ويسعى ملوك العجم إلى صداقته على ما لهم من مكانة وموфор دولة . وله من جاهه آلاف مظاهر الجمال والسعادة ، وخير منها

(١) كانت المبالغة في الوصف طابع العصر ، ويقصد الجأى بتلك المبالغات أن يجعل قصة المجنون أمراً بين الواقع الخيال ، ليتسع المجال له لإبداء آرائه والتعبير عن عواطفه على لسان المجنون .

أنه كان له عشرة^(١) أولاد كل منهم غصن في شجرة الحياة ، وقصر أشم في مدينة الأمل . ولكن كان له ابن من بينهم هو أصغرهم ، وكان قلبه متعلقاً به أكثر منهم . نعم في اليد عشرة أصابع ، تتعاون كلها فيما لليد من قوة ، ولكن من يديها - في حالتها فرح أو مأثم - الإصبع الصغير هي الجديرة بحماية الخاتم . نعم كان هو في برج الأمل ميمون النخبة ، قرأ مضيئاً وشمساً مشرقة . يمشيه يفوق حد القياس ، واسمه قيس . وعندما خطا نحو الرابعة عشرة من سنه ، بدأ يغشى بدر وجهه كلف العذار . قد طاب خط ياقوت شفاهه ، ونسج من المسك شعار قمر وجهه . من جبينه يشع نور القمر المتألق . وهو شمس مشرقة على الأرض . حواجه محراب الغانيات ، وقبله دعاء المتقين ، وقد هُتختل عجب تسي القلوب ، يتساقط منها الرطب على مكلوحى الفؤاد . كأن حول فمه خيوطاً من الفضة ؛ وقد دق خصره كالشعرة . وكرة ذقنه خالصة لم تشبها خضرة الشعر . ويتمنى الغيد ذوات لحدود الوردية والقود الممشوقة كشجرة السرو أن يكن صولجاناً في هوى تلك الكرة . وهو مفطور على حسن الخلق ، مطبوع على الأدب ؛ طيب بصناعة القول ، شغوف بالشعر ، ما هر في تدبيجه . فإذا ضم ياقوت شفتيه ، فإنما تلمس أذنه طريقاً إلى سر . وإذا تفتحت شفاته كالبرعمة الوردية الصغيرة ، فإنما ليقول لطائف لا تحصى عن روية وإمعان . وطالما سطر بنانه خطوطاً كذوائب الحور ، بدائع من القول على ألواح من الكافور . وكل ما يخطه يغرى من يحمدون الكتابة بتمزيق ما كتبوا . وقد اعتاد أن يتجول في السهول والجبال ، مع طائفة من الشبان ، تنفح ثيابهم عطر مسك الغزلان . فحيناً كان يلعب معهم على سفوح الجبال ، يختال مع الحجلان ، وحيناً كان يجلس

في شعاب الوادي يوقع على الأوتار الحان الطرب ، وآونة يتوجه إلى أرض
ذات عيون ، ليفسل عن نبع القلب ما علق به من غبار . وأنا يحزم أمتعته
متوجها شطر المروج ، ليحط عن قلبه هموم الدهر ، حاملا عصا التسيار
ما عن له . إذ كان قلبه فارغاً من شجن الأيام ، فلم تحترق بعد كبده بنار
العشق ، ولم تجر في أجفانه دموع الشوق . ولم يتمزق ثياب صبره ،
ولم يعمان بعد للحب أنات . ففي الليل كان يأخذه نوم الخليلي ، فيستلق
مستغرقاً على سرير العافية . ويفتح له الصبح أبواب الأمل ؛ فيولى وجهه
حيثما يترامى له . فإذا جذبت أمنية عنان قلبه تيسرت له كإشياء . وهو قرة
عين والده لمكانته ، ومبعث السرور في قلب والدته لجماله . ولم يساورهما
قط قلق التفكير فيما يُدبّر له القدر .

عجب حال ابن آدم ! يعيش مطمئناً إلى هذه الدار موطن الأحزان ،
غافلاً عما كتب على جبينه ، وعما وُضِعَ في طيلته من بذور ، وعن غصنه
الذي ينمى على الماء والتراب : أنحلوا في الفم ثمرة أم تُمر ؟

(٥)

غرام قيس^(١) قبل تعرفه بليلي

من عجنّت طبلته بالعشق ، وخَطَّتْ على لوح قلبه كلمته ، فلن تمحي
تلك الكلمة من لوجه ، ولو أمضى عمره في غسله منها ومحوه . وسيتغنى كل
لحظة بلليل ، وسيعزف بقميثارتته على إثر عشيق ، ويجوس كل مكان عارضا
روحه ثمنا لما يريد اقتنائه ، حتى يقع هو في النهاية أسيرا . وقد كان قيس
خارج قياس العقل ، واسمه يحمل على الاعتقاد بأنه مجنون^(٢) . فقبل أن
يقع أسير ليلي ، كان قلبه ميالا إلى كل حسناء . وكان له راحلة أسفار ، يضرب
بها في كل الطرق والديار ؛ شعرها في لون الشفق^(٣) حمرة ، معقود الحلقات
كشعر زنجي . وكان مثاله في إشراق وجهه فوق تلك الراحلة الحمراء مثال
هلال مطل من الشفق . شبيه الفلك لا تطمئن به من الرحيل دار . السهل
والجبل أمام دوراته مواء . فكان ينساب في الأودية ماء ، ويتسنى قلل
الجمال إعصارا . يمتطي راحلته كل يوم منقبا في كل الديار ، قاصدا كل
قبيلة ، باحثا عن كل غادة جميلة .

وذات يوم كان يطوف على هذا المنوال إذا به يمر بقبيلة من القبائل ،

(١) يأخذ المؤلف برواية الأغاني أن قيسا أحب قبل ليلي : انظر الأغاني طبعة دار الكتب
ج ٢ ص ١٢ - ١٣ وعهد بذلك التحليل النفسى لما سيبلغ الهيام بقيس ، والجأى فنان بارع
في اختياره للحوادث التي تقدم بها القصة ، وتضىء الجوانب النفسية لشخصياته ، وهو يفوق
في هذا الميدان نظائري .

(٢) يريد المؤلف أن يشفق بطريق التكلف من اسم قيس معنى أنه خارج القياس أى مجنون

(٣) أى أنها من حر النعم .

وبينما يُقَلَّبُ الطرفُ فيما حوله ، رأى جمعاً من الحسان ، مجتمعات
 في حفل كحلقة من النجوم ، وفي وسطهن قرناً تبوأ مقعده ؛ قرناً يَبْزُ سناه
 ضوء الشمس ، إذ يغزو بنوره القلوب . فدنا منهن محبياً ، وسأل عن اسم
 ذلك القمر وحسبه ، ف قيل له إن اسم تلك الحسناء كريمة ، وهي حسيمة
 في أصلها نسبية . وبعد أن استجاز منها في الجلوس ، أناخ بساحتها جملة
 وعَقَلَه ، ثم جلس يتأمل في محياها فأثر ذلك في فؤاده ، وظل يبادلها
 الابتسامات وعذب القول ، ويحادثها في دلال ، وكان الكلام يسيل من
 شفثها ، أولوا يلساب من عقيق رطب . وثنت هي عليه بطيب الخطاب
 فسقت به من كأس شفاهاها الخمر ؛ ففقد قيس على قولها عنان صوابه ، وصار
 ثملاً بدون شراب . وارتويا كلاهما من نفس الكأس . وما إن تناولا منه
 بضع جرع حتى غابا عن أنفسهما . وبقيتا على حالهما تلك بعض الوقت ، حتى بدا
 من بعيد شاب ^(١) مقبل في قد كالسروة ^(٢) في روضة الحياة ، عليه حلة الصبا ،
 متطياراً حلة عداه ، يتألق وجهه تألق النجم الثاقب . وهشَّشْن له مقبلات
 عليه مرحبات بقدمه . ووسَّوسَت الخلاخل في ساقهن كأنها الجلاجل
 في أكف المطربين . وحين رأى قيس هذا منهن ، نهض مضطرب الفؤاد وجميعه
 وولى هؤلاء الحسان ظهره ، وأخذ بزمام ناقته في قبضته . فلما رأى أن إسرعه
 بالانصراف ، صَحْن وجرين في أثره قائلات : « لا تتعجل هكذا يا قيس

(١) هو منازل كما تروى الأغاني ، وقد ولى قيس عنهما وهو ينشد .

أعقر من جرا كريمة ناقي ووصلى مفروش لوصل منازل
 إذا جاء قمعن الحلى ، ولم أكن إذا جئت أرضى صوت تلك الخلاخل
 متى ما اتصلنا بالسهم نصلته وإن نرم رشقا عندنا فهو ناضل

الأغاني ج ٣ ، ص ١٣

(٢) جمه سرو ، وهو شجر قوم الساق حسن الهيئة ، وكثيراً ما تشبه به قوائم النساء
 في الأدب الفارسي .

في الانصراف ؛ وعد إلينا عاتبا . لا تدعنا نحرم جمال طلعتك . واجلس
لنروى بالنظر إلى وجهك الجميل . فإنه ، وإن لم تتح لنا متعة الحديث معك ،
قد ربطتنا بك صلة أزلية . فلن تستطيع أن تسحب يدك من عهد الوفاء ،
ولا أن تقطع حبل ذلك الولاء . « وعلى الرغم من أنهم جددٌ في أثره ،
محتالات على رجوعه بمئات الطرائف ، فقد صارت نارهن رمادا ^(١)
ولم يكن لأقوالهن من طائل . ولوى قيس عنهن عنانه ، ممتطيا راحلته ،
وأخذ يحدو :

أيها القلب دع عنك أمر كل صديق لا وفاء وله ، وعش خليا . فذلك
الإنسان الشبيه بالوردة ذات اللونين ، أى رائحة للوفاء ترجو منه ! وماذا
أفعل بهؤلاء اللاتي حين وصلت إليهن بقين كالجبال ، طاويات أقدامهن
في أذيالهن . على حين إذ تراى لهن منى إقبال ، أدبرن عن مترنمات
بوسوسة حليهن . فلوأصبحت غبارا فاشا أن يطير بي الهواء لتلك الديار .
ولو غدوت سحابة يثر جوهر مائه فاشا أن تنزل منى قطرة على ذلك المكان .
وخير أن تلوذ بالصمت عما جرى ، وأن تلبس كل من ضمنه ذاك الجمع .

(١) في الأصل صارت نارهن دخانا .

وقوع قيس عن اختيار في حب^(١) ليلى كالصيد الذاهل

عند ما عاد قيس موجه الفؤاد آسيا ، هاربا من شموع الحسان في تلك القبيلة ، كان كل ليلة يبحث عن مصباح يضئ به أمسياته ، مستخبرا عن الغيد ذوات الحدود كأوراق الورد . وكل امرئ مر به - أيا كانت قبيلته - أطلع منه على حاجته المأمحة إلى حب ، إذ كان يقول له : أى خبر لديك عن الفانات ؟ قص على كل ما لديك من أمرهن . فر يوما على جمع بدياره ، ورأوا منه هذا الشغف ؛ فقالوا له : إن في قبيلة كذا غيداء ذات عيون حوراء ، اسمها ليلى . وكثير أولئك الالى وقعوا في حبها . لطيفة الخد ، تفرق في جمالها الوصف . فاذهب بنفسك لترى ما هي . ولا تعتمد على أذنك أيها الخبير . وما راء كمن سمعا . وسمع قيس هذا الخبر ، فنهض لساعته ، وتزيا بأحسن لباس ، وردد الآهات بما يعلج بصدرة من أشواق . وامتطى ناقته تقطع الطريق نحو الحبيب . يحدوها الأمل إلى ليل ، حتى أظله حيا . ولما رآه أهلها استقبلوه في مروءة وشهامة . ووجهوا إليه عبارات الثناء . وأحلوه في صدر مجلسهم . ولكنه كان يجيل نظره في كل جهة ، فلا يعثر على أثر لمقصده ، حتى جرى في قلبه دم اليأس ، فإذا هو تجاه حبيبتة ، وقد نم لسمعه عنها وسوسة حلها ، ورنين خلخالها . فرأى قيس قدأ من كالسروة^(٢) في حلة الرشاقة والدلال . أو كأنها حجلة^(٣) ، أو تدرج^(٤) يخطر . في وجه يفوق الوصف ، ليس به من أصباغ ، ولكنه وردى اللون .

(١) الأغاني طبعة دار الكتب المصرية ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) شجرة يشبه بها القوام المشوق في الأدب الفارسي .

(٣) طائر .

(٤) الديك البري .

لها جهة - حين تجلوها - لوح من الفضة ، لا بل قرن البدر التمام . حاجباها
 ينفحان العنبر . أهدابها مصوغة من المسك ، ولاكنها سهام تنفذ إلى القلب
 وعينان تحسبها بهما ظيباً ، تتعلق بهما أنظار من يراها فلا يبغى عنهما حولا ،
 وشفتان كالمرجان ، ولاكنهما ليستا من الحجر . لهما لطف الخمر ولون الياقوت .
 فيها الضيق يطر الشهد ، كأنه في حديقة الخلد نحلة عسل وقعت على أوراق
 الورد من خدها وقوع الصنّاع ، فلست سعتها بحمتها ثم عادت بالشهد .
 وينفرج الفم عن عقد من الجواهر ، لوأوه الأسنان ، كأنها براعم يبيض
 بليلة بأنداء الصباح . وذقنها الفضي في جمال التفاح ، فضته عجب تسحر
 العقول . وبوجهها خال من المسك كأنه حبة صُنعت من اللطف . ودون
 الوجه عنق كأنه كأس فضة . وقبضة يدها ذات أصابع فضية مستديرة .
 وكل شعرة من غدائرها أحبولة تصيد القلوب

وما إن أقبلت ليلى بهذه الشمائل حتى ولى قلب قيس من مكانه . وطاب
 منظر كليهما الآخر ، واشتعلت بساحة صدرهما نار الحب . فصوبت
 ليلى أقواس ذوائبها ، وطال باع قيس في هوسه ذروعا . ورفعت ليلى النقاب
 عن خديها ، فأسلم قيس صبره وعقله للمريح . وأطلقت ليلى سهم الحب
 مسموماً ، فأرسل قيس على الأثر صيحة الهلاك . وافترت شفاه ليلى بمقسمة
 عن الشهد ، فانهالت من عيون قيس درر الدمع . ليلى ندية الجبين بماء
 الشباب ، وقد طهر قيس بماء شبابها صفحات عقله ودينه . فكانت ليلى على
 رأس الحسن والدلال ، وأخذت تلعب برأس قيس دلائل الهيام . وموجز
 القول أنهما تمتعا كلاهما بما لذ وطاب على مائدة الحب . وما أشبههما معاير عمة
 ورد ذات رأسين جمعتهما ألفة مشدودة الأواصر . وبعد أن قطفنا جنى
 النظرات ، أخذنا يستمتعان بعذب الحديث ما عنّ لهما ، لا يقصدان إلى

قص حقيقة ، لا ولا إلى شكوى من هم قديم أو حديث . بل كانت الغاية من الحديث نفس الحديث ، فقد كانا طليقين من كل أسمى ، غافلين عما يزخر به هذا العالم من صنوف الهم ، إلا هما واحدا ، هو التفكير في أنه عندما ينتهي يوم الوصال ويفجؤهما الليل كيف ينأى كل منهما عن سلبه روحه ، ومن لهما يتحمل البعاد ؟ وقد أفصح كل منهما ، دون أن ينطق ، عما يدور في خلد الآخر . وجاشت نفس كل منهما بهذه الخواطر :

« أنتجب أسمى مفكرا في مساء هذا اليوم ، ألا فليخلد هذا النهار يارب دون ليل ، فاحم يارب هذا النهار من ظلمات الدجى ، وليبق مشرقا حتى يوم الحشر ولتصر الليالي نهارا دائما » .

هكذا فكرا ، ولكن متى غير الفلك من دورته ؟ فما لبثت الشمس أن غربت ، بعد أن كانت قد نشرت في المشرق عداها الذهبي . فانفصل قيس عن ليلى ، وقد قاسيا ما قاسيا من هذا الفراق ، فامتطى قيس راحلته إلى المسكن ، وبقيت ليلى خائرة القوى في أرض الوطن .

(٧)

ليل المحب^(١)

حين رى المساء من طرف القبة الزرقاء كرة الشمس الذهبية بسهمه ،
 غابت في ظلمات بئر الغرب ، فغشى السكون على الأثر ظلالم شامل . واختفى
 طاووس الشمس من حديقة العالم للعتيقة ، وأخلى المسكان لظلمات كأنها
 جيش من الغربان ، نشرت أجنحتها على قبة السماء ، وانتشر من بيضها
 على تلك القبة ما اتحدت به آلاف مشاعل النور ، فكأنه يهض مضى
 من كافور . وكان قيسر نائياً عن ليلي ، قد حظ رحله في منازل قومه ،
 فكان مقيماً بحسمة فيها ، وروحه مع ليلي هدف لسهام الآلام . به عجز
 السليم ، وقلبه نهب الحواطر . يردد اسم ليلي ودموعه تهمي ، مهيلاً على رأسه
 عذير الهموم . يردد اسم ليلي وآهاته تشق طريقها إلى السماء . ومهما علل
 نفسه بالآمان ، فقد ضلت حيله في طلب النوم . ولم يستقم له أمر على حيلة ،
 فظل يرقد ، ويجلس ، ويهضر . وما إن يمس جنبه سريره حتى يهرب النوم
 من جفونه البليلة ، حتى لاكان في كل خيط من خيوط فراشه مئات
 من الإشواك تنفذ في جنبه . فإذا جلس ، رأسه على ركبته ، مستسلماً بضع
 لحظات ، تراءت له كل صور المحنة . وإذا نهض يدير وجوه الرأى ، أخذ
 يقفز من مكانه أسى مرسل الصيحات . في صدره هم أثقل من الجبل ، يتلوى
 به في رقصة المسكوم . ولما أعيته الخيل في الخلاص من الليل ، أرسل
 الشكاة من طوله قائلاً : يا ليل الهم ما أفسى ما بك من بلاء ، أيها الليل !
 بل أيها التسنين الأسود ؛ تنتشر مهولاً على الأفق من بعيد ، فتطبق فكيك

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٤٤ — ٤٥ ، وتزيين الأسواق للانطاكي

على الطيب والخبث . أما وقد انتزعتني أملى من شفاه الحبيب ، فقد وقعت
منك بين فكي تنين . فأين الصبح ليشفينى برقياء من أهوال الليل ؟

هكذا كان شأن قيس من حرقة الفرة منذ المساء حتى مطلع الفجر .
وكذلك كان شأن ليلي في منزلها مكومة القواد والهة ، تتذكر طيب صحبة
قيس ، وترسل مر الشكوى من ألم الفراق . وما كان يعانیه قيس في بؤسه
من ألم ، كانت تقاسيه ليلي في بعدها منه . فلم يغمض لها جفن على ذكره ،
تطلق الدمع من عيونها قائلة : قيس كالظائر المحلق يخف إلى أى مكان يريد ،
أما أنا فكفرأش منزلى لا أبرح عنه خطوة ، وليس لى أن أذهب للقاءه .
ويالقلبي من الآسى إذا لم يعد . فالرجال أينما كانوا مجدودون . أما النساء
فهيهناات الجناح . فليس من شأن المرأة أن تتردد على بيت الحبيب ، وليست
سيدة أمرها . والعشق الذى تطول به أعناق الرجال ، هو محمود من الرجا ،
ولكنه من النساء عيب وخطل . ولو كان فى قلبه جزء من مائة مما أعانى
فالأمل فى وصاله قليل ولكن لم ينقطع ، وإلا فرحبا بالبلاء الذى حل ،
ولا يبرح هذا الخاطر الطريف ذا كرتى .

وما زالت تردد تلك الانشودة حتى مطلع الفجر ، وقلها نهب لآلسنة
لطيب الحب .

وهو جز القول فى أمرهما أنهما عاشقان وفيان ، كلاهما مُبْتَلَى
بالفراق ، يقطعان بأرواحهما طريق العشق طوال الليل ، يعتلجُ الهم
بقاسيهما من التفكير : ماذا بلد الليل ؟ وماذا يكون إذا أسفر الصبح ؟

(٨)

عَقِبَةٌ

حينما أسفر الصبح عن أنفاس كأنفاس عيسى ، ونشر عَلمِ غلالته
الصفراء ، وحميت أنفاسه مسكا خالصا بثته في الأشجار الخضر والزهور
المتفتحة ، وبسط رايته المزركشة ، فنشر في الأرض جواهر الأزهار من
صدفية وزرقاء ، حينذاك تخلص قيس من فم تنين الليل ، وأمسك عن إرسال
الآهات والزفرات ، وصاح للرحيل بناقته الأليفة للأسفار ، وسلك سبيله
دون تفكير واع ، مرتلا في طريقه أناشيد الشوق حتى ساحة خيمة المحبوب ،
فكان باب خيمته الهاديا من ضلال الطريق ، وحارسا لزمام ناقته من بعيد .
وقبل أن يبصر أثر الخيمة أخذ يناجيها بهذه الكلمات : « يا قبة النور ومطلع
الشمس ! في ظلك شمس مخدرة . ليلى نور عيني أنت لها دوني حجاب .
إن دموعي رطبة بالدمع كأردانك حين يبللها المطر . فترحمي لبكائي ونحيبي ،
واحسري حجابك عن طلعة حميمي . أنا منك أيتها الخيمة كأحد أوتادك ،
لا يحملني على الانصراف عنك أن يصيب رأسي حجر . وأنا كأحد أطنايك ،
مهما حاولوا لي وطبي فلن أبرح مكاني منك ، وكأحد عمدك دائم المقام
لا أريم . قلبي ينوء بحمله بدون الحبيب فخطى عنه هذا العبء . ويا ستار
بابها لماذا تحاول جاهدا محاربي ؟ ولماذا تستر عني حدود حميبي ؟ وإذا
كان جورك عليّ يمزق مني الجيب جفاء ، فإن يدي متعلقة بأذيال الوفاء لك .
لقد مضيت ليلة أمس محترق الفؤاد باكيا ، فيا ويلتا لو مر يومى مثل
البارحة . أنا كما تدرى محترق الكبد عطشاً ، وليلى ماء حياتي ، فأتمح

لى أن نجود ليلى على شفتى بقطرة تُطفىء نار ظمئى . هأنذا من حبها فى نار،
وهى فى نشوة الطرب ، رضىة الفؤاد ، هنيئة القلب .

وعلى الرغم من أن قيساً لم يرفع صوته بهذا القول ، فقد سمعت إيلي
بحواه تلك من خيمتها ، فشميت فى صدرها ناره ، وانجحت إلى الباب حيث
وجهة زمامه . فرأت قيساً فرق ناقته كأنه أصبح أشرق لوجهها ؛ ونثرت
جواهر القول من ياقوت شفاهها ، وجادت بشهد الحديث من خلية فمها ،
وقالت : « أيهذا المتغنى غراماً بمحياى ، وفى قلبك لى حرقه الشوق ، قد
احتل الألم قلبك ، واتخذ من صدرك منزلاً ؛ أو تساورك الظنون أن طائر
هذا الألم قد عشمش بقلبك وحدك ؟ ألا فليست بستان عيشك ضاحك
الجنبات ؛ إن بقاى أضعاف ما تعاني من ويلات ، ولكنى لست مثلك فى أن
يباح لى حديث ، أو أن أنقل نحوك قدم المسير . فما تستطيع أن تبوح به من
أسرار لا أمملك أنا سوى دفته فى سرائرى . فللعاشق أن يدق طبول عشقه ،
وأن يمزق من آلامه الثياب ، بينما على محبوبته أن تبقى مؤتزرة بلباس الحياء .
وللعاشق أن يحلو بشكواه عن أسى قلبه ، وعلى من هام بها أن تحفظ السر حبيساً
فى الفؤاد . وله أن يطلق العنان بعيداً لصيحات آلامه ، وعليها أن تظل على
الصمت صبورة . وله أن يبكى جهرة ، وعليها أن تكتم آلامها المبرحة .
وله أن ينطق فى طريق الطالب ، بينما تظل قعيدة بيتها . وقد تصل آهات ألمه
إلى العتيق ولا تلقى لدى الحبيب جواباً ، وتظل هى منطوية تعمل بأمل
الوصال ، ولكن من يوقع على قيثاره العشق ، عاشقاً كان أو معشوقاً ،
يرسل من توقيعه نفس الألمان ، إذ كلاهما يشكو بلحن واحد من الفراق ،
والعيش على ذكرى الحبيب ودعائه .

وحين سمع قيس هذه الانشودة استنخفه طرب العاشقين ووله الحنين ،

ومزق ثيابه على ذوق تلك العبارات ، وسقط على الأرض يريد أن يظل دون قدمها كظلمها ، وأخذ يفرض إليها بسر ما مضى ، ويشرح تباريح الليل الذي قضى . ولكن أصدقاؤه جروا إليه من كل صوب ، مرحبين به أيما ترحاب ، فآبت تلك الدرة الفريدة إلى خدرها ، وأمسك قيس لهذا عن مناجاة روحه ، وعاد محروما من غايته جريح القلب مكلوم الفؤاد ، وآب فريسة الهموم والألم . وأخذ يردد في نفسه هذه الشكوى :

« ألا أيها الأعوان والخلان ! اتركوني وإياها لحظة ، حتى أروى برؤية جمالها ، وأتمتع بلذة وصالها . وآية حال أسوأ من مكلوم الفؤاد ، أمضى ليله في أسى الفرقة والانتظار ، يفيض ناظراه بدم قلبه ، حتى إذا أسفر الصبح رده الوصال طروبا ، ولكنه لم يجد مجالا للنجوى وشرح حاله لدى الحبيب ! بل أقبل عليه من بعيد قوم حالوا بينه وبين أعز مقصد لديه ، وعقدوا لسانه عن الكلام ، وشددوا وثاق روحه دون الإبانة عن الآلام . فلا رأى أحد أمثال هؤلاء ! ولا أدرك منهم إلا أذيال الحسنة يجرونها مدبرين . »

وأمضى قيس يومه على هذه الحال ، في عجب من الهموم والأهوال ، وانتهى به الليل على هذا المنوال ، وفي الصباح شذر حاله إلى منزل الحبيب ، فحث الخطا من جديد في طريق ليلي . وأبصر خيمتها خالية من الأغيار ، ليس بساحتها من حط الرحال . فقبَّل عتبة المكان ، وظل واقفا وقفة الغلمان . ودعته ليلي من خيمتها ، وأجلسه مجلس الاحترام . وتمتعا بساعة وصال ، وفضلا المختوم من أسرار العشق . كلاهما معشوق وعاشق ، كالسكر واللبن كلاهما لصاحبه موافق . فكلم أمالتي ليلي برأسها في صنوف من الدلال ، وبقي نظر قيس معلقا بملك الطاهرة الأذيال . فهذا قيس قد خَطَّ عذاره ،

ولا تتأمله ليلى إلا وتئنأى بها الخواطر عن مذهب العقل . وقد تحلَّ ليلى
عقدة من غداؤها فيسلم قيس دينه وقلبه . وقد يفتر ثغر قيس عن سحر
التعبير ، فتجيبه ليلى بشهد القول . تصوَّب ليلى إليه نظرات الحب الواله
سهاما ، فيحترق لها صدر قيس ويفيض قلبه سقاما .

وجمل القول أنهما صديقان توثقت بينهما أواصر الحب . لتلك الصدر
في مجاس الدلال ، ولهذا صدق العزم في الصمود لما يلاقى المحبون من آلام .
وقد أمضيا عمرهما — كما تعلم — في العشق وشؤونه . ليلى لا تبالى
بِنَصَبِ الوجد ، وقيس لا يخشى قرحة الملام . وليلى كنز راحته
وسروره ، بمنأى عن ربح الدهر وخساره .

(٩)

الناقة ورضيعها^(١)

العشق — أول العهد به — سرور وطرب ، أنشودته عازبة^٢ عن ألحان
الأسى ، لا مجال فيه لألم المعرّم ، ولا شكوى فيه لجراح اللوم ، فهو كمنز
الراحة والرضا ، ينأى بخواطر صاحبه عن خير الدهر وضرّه ، كالخمر في
بدنها ليست إلا سروراً ولذة ، لا تثير اضطراباً ، وإنما تنقص^٣ الهم
وتزيد المتعة ، وتمحو من القلب غم النهار والليل . فلا يستعصى على دوائها
ألم ، ولا تثير إذ ذاك غول الخمار في الرأس من سقم . وكان قيس طروباً
من خمر العشق ، خالى البال من نوب الدهر ، لا هم له مطاع كل يوم إلا
التفكير في شأنه ، فكان يشد رحاله ، ويعقد الأحرام إلى حرم حبيبته ،
وعند ما يحذوبه الإقبال إلى تلك القبيلة ، يُخَيِّلُ إليك سرعة سيره أنه
محمول على آلاف الأجنحة في الهواء . يهش فؤاده لروح الوصال . ويسير
سير الريح بدون عناء . فهو في ذهابه سهم منطلق . لو صادفه في طريقه من
الأسواك والخصى ما يشبهه مباضع الجراح ، وجدها ألطف من بساط
العشب . وحين يرى أمامه التلال يتلو بعضها بعضها كأنها من القيقظ نار^٤
مؤججة ، تبدو له وكأنها قبضة^٥ من رمل داني .

(١) قد تأثر المؤلف في هذا الفصل من قصته بهذه الأبيات لعروة بن حزام :
هوى ناقتي خلني ، وقدامي الهوى وإني وإياها مختلفان
هوى أمامي ، ليس خلني معرج وشوق قلوصي في القدو يمان
هوى عراقى ، وتثنى زمامها لبرق إذا لاح النجوم يمان
متى تجمعى شوق وشوقك تظلمى ومالك بالعبء الثقيل يدان

انظر ذيل الأمالى والنوادر طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٢٦ ص ٥٩

وإذا مَزَقَتْ كَفَّ قَدَمِيهِ قِطْعَا سِهَامِ الْإِشْرَاكِ وَسَيُوفِ الْحِجَارَةِ ،
 بَدَلَهُ فِي كُلِّ مُزَقَّةٍ مِنْهَا بَرَهَانٌ عَلَى صِدْقِ عَزِيمَتِهِ . فَاذَا مَا عَادَ مِنْ لَدُنْ قِبَلَةِ
 رُوحِهِ ، فَطَرِيقَهُ طَوِيلٌ كَطَرِيقِ الْكُكْبَةِ ، كُلُّ خُطْوَةٍ فِي حِسَابِ خَاطِرِهِ
 الْمَصَابِ أَلْفُ فَرَسَخٍ . يَعُودُ وَعَيْنَاهُ تَقْطُرَانِ الدَّمْعَ . يَجْرُ خُطْوُهُ ثَقِيلًا
 كَأَنَّهُ مَاءٌ يَصْعَدُ . فَاذَا وَضَعَ قَدَمَهُ فِي مَنْزِلِهِ قَفَّ شَعْرُهُ مِمَّا بَقِيَ بِهِ مِنْ لَوَاعِجِ
 الْأَسَى . وَكَلِمَا التَّفَتُّ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْأَمَامِ مَرَّةً ، التَّفَتُّ إِلَى الْخَافِ مِائَةَ مَرَّةً ،
 لَعَلَّ آيِبًا يَحْمِلُ مِنْ خُلَّتِهِ بَعْضَ الطَّيِّبِ ، وَيَفْضِي إِلَيْهِ بِخَبَرٍ عَنْ ذَلِكَ الْقَمَرِ
 الْحَبِيبِ . فَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَيْهَا كَسَيْلٍ يَنْحَدِرُ مِنْ قَلْعَةٍ ، وَفِي إِيَّابِهِ كَأَنَّهُ الْجَبَلُ
 ثَقُلًا . وَهُوَ فِي ذَهَابِهِ كَالرَّيْحِ ، وَفِي أَوْبَتِهِ كَالْمَاءِ الرَّائِدِ .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ جِسْمُهُ وَاهِنًا مِنَ الْحُمَّى ، فَلَمْ تَسْعِفْهُ قَدَمُهُ بِالذَّهَابِ ،
 فَاسْتَعَانَ بِمَطْيَةِ هِيَ نَاقَةٌ ذَاتُ جَنَيْنٍ ، لَا قَرَارَ لَهَا بِدُونِهِ ، فَلَوْ حَلَّ يَدُهَا وَبَيْنَهُ
 وَهَنَتْ قَوَاهَا عَنِ السَّيْرِ . فَفَصَلَ قَيْسُ النَّاقَةَ مِنْ رَضِيعَتِهَا ، وَجَدَّ بِهَا فِي
 طَرِيقٍ مِنْ لَدَيْهَا قَلْبُهُ . وَحِينَ قَطَعَ بَضْعَةً أُمِّيَالٍ مِنَ الطَّرِيقِ ، اسْتَغْرَقَ فِي
 تَفْكِيرِهِ فِي لَيْلٍ ، فَأَحْسَسَتْ النَّاقَةُ بَضْعَفِ الْقِيَادَةِ ، وَثَنَتْ عَنَانُهَا آيَةً إِلَى
 رَضِيعَتِهَا . وَلَمَّا أَدْرَكَ قَيْسُ أَنَّهَا تَقْطَعُ الطَّرِيقَ إِلَى وَلَدِهَا ، وَعَرَفَ مَا عَرَفَ
 مِنْ أَمْرِهَا ، وَأَنَّهَا ذَاهِبَةٌ بِهِ إِلَى غَيْرِ وَجْهِتِهِ ، رَدَّهَا إِلَى مَقْصَدِهِ ، حَادِيًا
 بِأَنْغَامِ الشُّوقِ . وَبَعْدَ مَسَافَةٍ أُخْرَى مِنَ الطَّرِيقِ وَجَدَتْ الرَّاحِلَةَ نَفْسَهَا نَائِيَةً
 عَنْ وَلَدِهَا ، فَجَعَتْ فِي نَفْسِهَا وَلَهُ الْحَنِينُ . وَغَابَ قَيْسُ عَنْ وَعْيِهِ مَرَّةً أُخْرَى ،
 وَطَارَتْ بِهِ عَنْهُ سُورَةُ الْعَشْقِ ، وَشَعَرَتْ النَّاقَةُ أَنَّ قَيْسًا عَنْهَا لَاهٍ ، فَجَعَتْ
 فِي طَرِيقِهَا مِنْ جَدِيدٍ . فَلَمَّا أَفَاقَ قَيْسُ أَعَادَهَا إِلَى الطَّرِيقِ مَرَّةً أُخْرَى . وَضَاقَ
 قَيْسُ بِأَمْرِهَا ذَرْعًا ، إِذْ تَكَرَّرَتْ الْوَاقِعَةُ أَرْبَعَ مَرَاتٍ . وَأَدْرَكَ قَيْسًا
 مُحْزَنٌ عَمِيقٌ عَلَى أَثَرِ التَّرَدَادِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاقَةِ . فَأَبْرَزَ مِنْ صَدْرِهِ هَذَا السَّرِّ
 الدَّفِينِ قَائِلًا :

إن ذلك السكز الذي أحت^١ الخطى قدماً إليه هو أسمى ، وذلك
الفصيل مشار غم الناقة ومبعث راحتها قد خلتته وراها . فإذا سارت بي
نحو مقصدي ، فهي دون مقصدها فريسة التياريج ، وإذا تبعته لغايتها ،
شرق بغضه ذلك القلب الجريح . فصحبتنا على هذا المنوال من
المحال ، ورضانا كلينا خيال^٢ . خير إذن أن أحل^٣ عقدة القلب وأتركها ،
ليتبع كلانا الطريق الذي يحلو له .

هكذا قال ، وحل الرجل عن الناقة ، ففك^٤ رويدا رويدا وثاق قلبها .
فعادت ليعطينها وسلك هو وحده إلى ديار الحبيب . وبينما هو منطلق
في طريقه تغنى منشداً :

« تعلق بمن يهواك ، ودع جانباً أمر من ينأى عنك . ودثم^٥ على طريق
الوفاء ، وأغلق دونك باب الجفاء . ومن امتنع عن صحبتك في طريق ، فاح^٦
من طوبىك كل أثر له . وإذا دفعك الحب إلى سلوك الطريق ، فحسبك خيال
ليلي من رفيق . فاذا كر ليلي وول^٧ وجهك شطرها ، وانشد الراحة في حماها .
فليس محموداً من عالمك سواها . وغيرها على قلبك غمة . فاقطع عما عداها
جبل الوصال . وأنا بجانبك عن ذميم الخلال ، .

وصنع من هذا القول أشودة تغنى بها ، راقصاً في مسيره على حسب
عادته كل يوم حتى منزل من هام بها . وهناك رأى بعليه ما رأى ، وسمع من
الأسرار ما سمع . وحين أقبل الليل عاد من ذاك المقام ، طيب الخاطر
بما حظى من الوصال . عاد كتيبا وقد ذهب طروبا . ألا فليكن هذا حال
العاشقين .

(١٠)

برهان المحبة^(١)

من خط عنوان صحيفة هذه الآلام ، سطر قائلاً هذا الكلام :

أرادت ليلى أن تَسْهَرَ غَور حب قيس ، وأن تقف على ما يفعل
الأسى بقلبه إن مالت إلى غيره .

و ذات يوم اجتمع حسان الحى من غيد وشبان ، من كل فائنة حين
تضحك لفتى ترده عبداً دون بيع أو شراء ، وكلّ شاب لو ابتسم لفتاة
أتت إليه خادماً طيباً . وبينما هم على هذه الحال ، إذ طلع عليهم قيس
المفضال ، وعلى وجهه من غبار الطريق ، شجى الفؤاد من فراق الصديق .
فقبّل الأرض وحيّاً ، وخص بالتحية ليلى ، لكنها لم تلق بالا إليه ،
ولم تشتغل فى هذا الجمع به ، بل أرسلت ذوائبها دلالة ، وقطبت حاجبها
متغاضبة . وأخذت تبسم لمن عداه ، وتخص بشهد حديثها سواه ، تدبر
عنه وجهها إلى مَنْ فى الجمع ، رقيقة الحواشى مع الحضور ، خشنة معه .
فإذا وقع نظر قيس على وجنتيها ، ثلّت فى صدور عنه عطفها . وإذا جرى
لسانه بكلام ألقت بسمعها إلى غيره . ولما رأى قيس من ليلى هذا الإعراض
تبدلت حاله ، وحالت زهرة غصن أمله الأملود ، فصارت ورود وجنتيه

(١) الخواطر التى ينظمها الشاعر فى هذا الفصل تدور حول رواية الأغاني : (طبعة دار
الكتب ج ٢ ص ١٤ ، ٣١ ، ٤٦) أن ليلى أرادت أن تمتحن قيساً فى حبه ، فأسرت كلاماً
إلى غيره بعشده منه ، معرضة عنه ، فامتقع وجهه ، واشتد عليه ذلك ، فأثدت :
كلانا مظهر للناس بغضا وكل عند صاحبه مكين
تبلغنا العيون بما أردنا وفى القلبين ثم هوى دفين

صَفْرًا ، وَصَبَّ مِنْ نَظَرِيهِ الْيَاقُوتَ الرُّطْبَ مِنَ الدَّمْعِ ، فَسَالَ جَوَاهِرَ
فَوْقَ صَفْحَةِ الذَّهَبِ مِنْ مَحْيَاهُ . وَرَفَعَ النِّقَابَ عَنْ وَجْهِ بُوْسِهِ ، مُرَدِّدًا أَلْحَانَ
شَكْوَى تَنْفِذٍ إِلَى أَعْمَاقِ الْقُلُوبِ ، قَائِلًا : أَيْنَ مِنْ أَمْرِي رَوْنَقُهُ الْقَدِيمُ
وَجَنَاهُ ؟ وَأَيْنَ مُحَرِّمَتِي لَدَيْكَ وَمَكَانَتِي بِالْإِيلَاحِ ؟ فَمَا أَطِيبَ الْعَهْدَ الَّذِي كَانَتْ
لَيْلِي تَرَانِي فِيهِ بِعَيْنِ الْمَحَبِّ ، هَاجِرَةً مِنْ أَجْلِ صَحْبَةِ الْأَغْيَاسِ . كَانَتْ مَعِيَ
وَكَانَتْ جَلِيسَتِي ، وَكَانَتْ لَا تَضُنُّ عَلَيَّ بَعْدَ حَدِيثِهَا . وَكَانَ مِنْ دَأْبِي
فِيمَا مَضَى أَنْ أَسْأَلَهَا الْعَفْوَ عَنِ الْمَذْنُبِينَ ، فَتَنِي لِي — وَلَا ذَنْبَ لِي — بِمَنْ
يَطْلُبُ مِنْهَا لِي الْغُفْرَانَ ؟ وَحَتَّى لَوْ لَمْ أَجِدْ شَفِيعًا إِلَيْهَا ، فَخَسْبِي دِمَاءُ الدَّمُوعِ
مِنْ شَفِيعٍ .

فَلَمَّا رَأَتْ لَيْلَى مَا عَلَيْهِ مِنْ هَيَامٍ ، وَسَمِعَتْ أَلْحَانَ أَغْنِيَتِهِ النَّافِذَةَ إِلَى الْقَلْبِ ،
أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ ، وَرَفَعَتْ لَهُ عَنْ وَجْهِهَا النِّقَابَ . وَتَبَسَّطَتْ مَعَهُ فِي الْحَدِيثِ ،
وَضَحِكَتْ إِلَيْهِ ، وَتَلَطَّفَتْ لَهُ . وَقَالَتْ : يَا مَلِكَ الْعَشَاقِ ، وَيَا فَرِيسَةَ الْأَلَامِ !
كَلَانَا لِلْآخِرِ صَدِيقَ حَمِيمٍ ، مِنْ بَلَاءِ الْعَشَقِ فِي انْتِحَابِ وَأُنِينَ . وَنَحْنُ فَرْدٌ
وَاحِدٌ فِي الْحُبِّ وَالْوَدَادِ . فَلَمَّا كَلِمَتُنَا نَفْسَ الشَّأْنِ فِي فَيْضِ الْخَوَاطِرِ وَفَيْضِ
صَفَاءِ الْقُلُوبِ . فَإِذَا كُنْتُ قَدْ عَبَسْتُ فِي وَجْهِكَ مَقْطَبَةَ الْجُبِينِ ، فَلَا تَظُنْ
أَنْ ذَلِكَ عَنْ حَفِيزَةِ لَكَ أُسْثَرِهَا ، فَتِلْكَ الْعُقْدُودُ فِي غَضُونِ مَحْيَايَ
إِنَّمَا كَانَتْ لِكَيْ تَعْقِدَ عَنَا أَلْسِنَةُ النَّاسِ . فَعَشْقُكَ الَّذِي هُوَ خَيْرُ كَنْزٍ
لِلرُّوحِ ، بَاقٍ كَالْكَنْزِ خَيْرٌ عَنِ الْعْيُونِ .

فَلَمَّا سَمِعَ هَذِهِ الْبَشْرَى قَيْسَ غَابَ عَلَى قَوْلِهَا وَعِيهِ ، وَوَتَعَ عَلَى الْأَرْضِ
كَأُظْلٍ مَزْشِيًّا عَلَيْهِ ، فَهَالَتْ لَيْلَى عَلَى ظِلِّهِ فَيَفَاءُ بِمَشْوَقَةِ الْقَوَامِ كِإِحْدَى
شَجَرِ السَّرُورِ . وَطَالَتْ بِهِ الْإِغْمَاءُ قَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ رَقَدَ
رَقْدَةَ الْمَوْتِ . وَرَشَوْا عَلَى وَجْهِهِ مِنْ مَاءِ عِيُونِهِمْ ، عَلَى هَذَا الْمَاءِ يَنْوَدُّ عَنْ عَيْنَيْهِ

النوم . ثم انفرط عقد الجمع ، وأسرع إلى الانصراف ذو الوسامة من
الحضور فتيانا وفتيات ؛ وجروا مسرعين يقعون في عدوهم وينهضون .
وخشية أن يُتَمَمَ بقتله ولو هاربين . ولم يبق من الجمع غير قيس وليلى .
فبقى نائما وعلى رأسه ليلى ، كأنهما القمر والثريا . وظل كالمحتضر من حرقة
الهوى ، واهن القوى عن تحمل العيش مع غن الشوق ، حتى فتح جفنيه
حين ولي النهار ، فوقع ناظراه على جمال ليلى ، وكانت تبكي من ناظرها دما
يسيل مندرا . وسأله قائلة يافريدا في المحبين ، وبأحدث مجمع العاشقين !
من أين لك هذه الإغماء ؟ ومن ذا سقاك هذه الخمر التي غبت بها عن
الاحياء ؟ فأجاب : من كَفَّفَكَ تناولتها ، وقد سقيتنيها على عمد . فقد
صدت عني بوجهك أولا ، وأمسكت عن الكلام معي فأمَقُولَا . على
أنك كُنْتَ تصافحين الآخرين ، وتُقَسِّلِينَ عليهم بمحيائك . وكلما
أقبلت عليك أُنشِئت عني ، حتى رددتني أحقر الأذلاء . وأخيرا أُعِدَّتْ
بلطفك إلى ، وأرَبَتني الجم من وجوه الدلال . وعهدى بك تَمَتَّعَتَنِي من
خمر وصالك بالدرد والصافي ، ولم تكوني لتضني علي بجرعة ، وقد صُغِّتْ
من يوانك سلافا يطيح بالعقول ، فشمِلْتُ بها كل الثل أيتها الفاتنة ، فإذا
سقطتُ دون وعي فإلى حيلة ، فليستُ إلا آدمياً وما أنا بحجر صلد .

ولما سمعت ليلى منه قصته ، قالت في عناية وتدل : يا مراد روحى
وقوة جسمى الواهى ! إن الألم الذى تعانى ، ولو أعج القلب الى تقاسى ،
لهى دون ما فى فؤادى من تباريح تُعْجِز الوصف .

فعاد قيس على ذوق هذه الكلمات مسروراً ، وانقلب إلى قبيلته جذلا
مقرور العين .

(١١)

عهد الوفاء^(١)

رأس الفاتنات الغييد في كل الآفاق ، الفريدة في الحسن كأقواس
حاجبها ، إذا برزت فهي دنيا من الدلال ، وإذا احتجبت فهي خلف ستار
الأسرار ، ربحان حديقة الأمانى ، وأوراق ورد ربيع الحياة ، ملازمة
مصلاها ، شأن الزاهدين . وهي مزار العرب ، وفتنة العجم ، لها من حفيف
الوشاح ووسوسة الخلخال موسيقا وجد وطرب ، ومن قلادة عنقها وحلية
أذنها شرك العقل وخدعة الفؤاد . تلك صورة ليلي الفاتنة . ولما رأت في
قيس الوفاء وعرفان الجميل فاض عن القياس عشقها له ، ولم يخالجها في تفانيه
في حبها أدنى شك ، ولم تكن بحاجة في هذا إلى دليل .

وعندما عاد إليها قيس في يوم آخر كانت قد امتلأت جوانب روحها
شوقا إليه . وقفز قلبها من مكانه ببسمة الرضا له ، وفدته بالروح لقاء وفائه ،
ونأت معه عن الجفوة والإعراض ، وتحدثت عن عقد عهد الوفاء . ولكي
ترضيه ما استطاعت قالت له هذا العهد الوثيق : قسما بذات الله سبحانه ، مدير
الأفلاك في مداراتها ، ومضى . هذا السقف الرفيع بنور القمر ومصباح
النجوم ، وكل ما تبدى منه من طرائف المعضلات كانت غاية من اجتهدوا
في حلها فعجزوا دون الغاية . قسما بذوى الأبصار النيرة التي تكشف بأشعة

(١) في الأغاني حديث ذلك العهد الذى أعطته ليلي قيسا ، إذ قالت له بعد أن خبرت حبه
لها : « أعطى الله عهدا ألا أجالس بعد يومى هذا رجلا سواك حتى أذوق الموت إلا أن أكره
على ذلك » : الأغاني طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٤٦

نظراتها عن مخبات الحقيقة في لوح الوجود ، لتصل بأصحابها إلى كنه كمال الله . قسما بصدور العارفين القادرين على معرفة الأشياء ، الواقفين على كنوز الخليفة ، ورموز الحقيقة ، من لا يستعصى عليهم حل المعضلات . قسما بكل غريب مهجـور ، نأت به الدار عن الحبيب ، لا أمل له في ليل همومه ، ولا شفاه تسوق له خبرا طيبا ، قد عانى ضربات سيف الهجران ، وتجرع كأس الهموم ، قسما بكل حبيب فائن الحسن ، شبيه القمر جمالا والخور فتنة ؛ لأربطن قلبي لقيس بحب كحي لنفسى ، وأقطعن صلتى بسواه ، ولا بذلن الروح دون عرضه لثلاثيس بسوء . قسما بكل ما يستصوب الحلف به من عاقل ، أن سيظل حي لك — ما اتسع به المجال — مستعصيا على كل نسيان ، وأن سيظل ذكرك أنيس روحي ، ما سمح لي القدر بالعيش ؛ وإن ضحيت بالهموم من أجلك في هذا العالم وظللت محرومة من نعيم الدارين ، وإن آدتني منه آلاف الآعباء ، فلن أصل بغيرك حبل . ولو منحني الجد الخيرة فلتسكن أنت حظي من العالم . وإن أجلس أو أقف مع أى حبيب لا يستقيم لك معه أمر . فلا صاحبنى شيء بدونك حتى نفسى . ولا كان لي عيش بدونك . وإلى أن ألقى الوفاة سأتحو من لوح وجودى مشاغل الكونين . وبهذا العهد الذى أرتبط به معك قد قطعت كل عهد مع من عداك . فلا يكن مظلمة بحر الوفاء ، وكفانى ما فيه ذخيرة لقيامتى .

وبعد أن أحكمت ليلي وثاق العهد ، جاءت به طريقاً مظلم الأرجاء ، وفصلت ما بينها وبين القريب والبعيد ، وتركزت كل أمر سوى حمل ذاك العبء ، وولت وجهها عن الخلق جميعاً مقبلة على ذلك الحبيب . وحالت جيدها بقلادة الصديق ، ومسحت أذيالها عن الأغيار .

وعندما وصل قيس من طريقه غدوة ، عقل ناقته بياها ، وقص عليها

عناء الليل ، وبسط حلاوة الوصال نهاراً وشكاية البعاد ليلاً . وبقي آمناً منفرداً بها حتى المساء . ولما رأى قيس مدى جهدها في الوصال ، وبرها بالعهد ، زاد وسواس حبه ؛ وعاقبة الوسواس الجنون . فصار يجنوناً خاليع العذار ، مشتهراً باللقب في كل مكان ، وبه معروفاً حتى نهاية أجله . واستبدله في كتاب الدهر من اسمه قيس . فإذا خطر في محفل نادوه بالمجنون . وكان يطيب خاطراً بهذا اللقب ، وكان لحسنه على اسمه حلو الاتبلى جدته .

وفي باب الطرائف والملاح أيُّ إنسان أفضل مِنْ أسام سرح العشق ؟ وأي اسم خير من اسم العاشق ؟ . نعم اهجر — أي جامي ! — كل عمل لا طائل تحته ، لتحظى باسم العاشق .

(١٢)

قبيلة قيس تكشف المكنون من حبه

من جميع أمور هذا العالم ليس هناك ما هو أفضل من أمر العاشق ؛ فقد باع متاع العقل ، وصار طروباً لسماع الألحان ، لا يقر له قرار . فخاله حال مجنون حينما يقبع في غار الهم ، وحينما يتسنى قلة الجبل . وهو أمين خزائن الإيفلاس ، وهو رهين أسى خواطر الوسواس . يقنع في القفْرِ بظل الطلح ، هائم في هذا العالم وادى الأذلاء . وهو رفيق المترنين بالأحزان الآسى ، صديق الأحرار الزاهدين : سمر الظباء في الصحراء ، ونجى البلباب في هيامها . قد أنك الهوى قواه ، وبليت في طريق الحب نعلاه . قد حطم على العقل زجاج وكره الهش ، وأطرح ظهرياً حبَّ شرَّك العقْل . رفيق قطعان حمر الوحش وأسراب الظباء ، وكأنه واحد من قبائل الجن .

تلك حال المجنون أسير ليلى ، برحت به جذبة العشق من ليلى . وأطرح وراءه قواعد العقل ، لا يجد من راحة على سريريه بياتاً ، ولا يراه أحد . لا نهاراً ولا ليلاً ، مزق جبل كل وصال ، وطوى كشفاً عن الناس . فإذا لمح من بعيد صديقاً هرب منه ونأى . وإذا تقدم إليه أحد أقاربه نحاه عنه بعيداً . وحين رآه القوم على هذه الحال ، أطلقوا ألسنتهم فيه بالطعن قائلين : ماذا نفّسه منا ، وأى ملال أصابه من قومه ؟ لقد سلَّ سيفاً وقطع به رحمتنا دون رحمة .

وذهبوا إليه ، وضربوا حوله حلقة كهالة القمر ، وبحثوا عن دليل على حاله ، وجسّشوا نبضه . وتجاه صمته ربطوا عن الكلام لسانهم . فلم يحل

عقدةً عن السر ، ولم يضرب نعمةً على وتر .

وكان له صديق في تلك القبيلة ، له عليه أياد جميلة . حلوا الشئائل ، فصيح اللسان ، ضارب على أوتار العشق بأطيب الألحان ؛ فقالوا له : على الرغم مما بذلنا في معرفة حال قيس ، قد ظل كالإراعة لا تسلك الأنفاس في عُقدتها . وفي زفراته آلام دفينه . فأنفث فيه من روح وفائك ، علك تجد سدى لمسعاك .

فتعقب ذلك الصديق أثره بضعة أيام بغية الوقوف على حاله ، وأخيرا قال له : أخى ! يكاد ينفطر لما أنت فيه من غم قلبي ، وتسكاد لما تعاني من هم تحنرو روحى ، ويلتهم لبيب الأسى من عظامى . فلم قطعت دونى حبل الوفاء ؟ ولم الحرب من صحبتي ؟ وقد كنا فيما مضى أخلص الأصدقاء ، أليفين لا نفرق كالألف واللام . فاشرح منصفاً ، ما فعلت بهذه الصداقة ؟ وكيف أضعت قاعدة الوفاء ؟ واجلس لحظة نتحدث معا عن هذا السر ، ونستعيد ماضى من حال . فإذا لم يفتح الصديق بالسر ، فقد تجردت طويته من طيب الصداقة . وفي خلوات الأصدقاء المخلصين يبين مهندس الصداقة عن سر بنائها .

فلما سمع قيس منه ذلك اللحن أخذ يتوجع توجع العاشقين ، وقال : أى صديقى الحميم ! وموضع سرى ! إن أمرى صعب المركب ، وأنا منه في خطر الهلاك . فليس هو مجرد شجى فادح الثقل ، بل إنه لأثقل مائة مرة من الجبل . وإذا لم يزح عن كاهلى هذا العبء ، فأنا لاشك قاض نحى .

فسأله أى حمل هذا ؟ وأى حبيب أثقل به فؤادك ؟ فأجاب : « ليل » . وسقط مغشيا عليه على نطق اسم تلك الحسنة ، فتعطلت عن الرؤية عيناه ،

وعن السمع أذناه ، وعن الحديث شفاته . ونفض يده من الكونين وقتا
طويلا ، بقى فيه بين الحى والميت .

ولما وقف ذلك الصديق على حاله ، ورأى ما وصل إليه من كمال العشق
والوفاء ، علم أى أمر أمره وأى حمل حمله ! كما اكتشف اسم عشيقته ، وعرف
من هى . وقد تأثر من أجله أبلغ تأثر ، ولكنه أفضى الآخرين بسرّه ،
ومقصوده أن المطّبين يتيسّر لهم — إذا وقفوا على سر الداء — تشخيص
الدواء .

(١٣)

نصيحة والد قيس له^(١)

حين علم والده المسكين بخبره ، لوى عنانه نحوه في سرعة الريح ، واحتضنه إليه وقلبه يغلى بحبه الأبوى ، وقال له : ياروح والدك ، على أية حال أنت ؟ ولم ألقيت بنفسك في الوبال ؟ خُبِّرْتُ أَنْ قَدْ سَلِمْتُ عَذْرَاءُ مِنْ إِحْدَى الْقَبَائِلِ قَلْبِكَ . وَأَنَا مَعَكَ عَلَى وفاق في أنك في طريق طالما سلكه غيرك ، إذ العشق إحساس نبيل . ولكن ليس كل إنسان أهلاً لأن ينال حبنا . ولا يليق أن يجتذب قلوبنا كل منظر جميل ، بل يجب أن تكون المحبوبة من طينة طيبة ، ولا ينبغي أن يكون العشق لمن لم يطبَّ أصله . وليلى — وإن ترامت لعينك عزيزة القدر — ليست بالنسبة لك إلا أقل الجوارى شأنا . ولا يصح في مذهب العقول أن يشغف المرء بكل جارية . فأنت شبيه « الخضر » من علمية القوم ، وهي في النسب من خضراء الدمن . والعالم كله دون أقدام « الخضر » وأين من مكائته خضر الدمن ؟ فبالله إلا ركدت عنها قلبك ، وقطعت منها حبل أهلك . وهي كالخسك الجاف ، وأنت وردة ، وقدك شجرة سر و نضرة . وهي غراب وأنت تدرج مدلَّ بجمالك . وأين من الخسك الورد والسر وأين من الغراب التدرج ! ولا ينبغي

(١) معظم خواطر المؤلف في هذا الفصل لها أصل فيما روى من أخبار قيس ، فقد كان أهل ليلي دون أهله ، وكان بين الحين عداوة ، وطالما وجه النصيح إلى قيس بالسلو عنها كما يروى في شعره :

أخي وابن عمي وابن خالي وخاليا
بنفسى ليلي من عدو وماليا

لقد لامنى في حب ليلي أقاربى
يقولون ليلي أهل بيت عداوة

أغاني طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٣٨

أن تجعل نصيبك من حديقة النساء إحدى الشقائق تسكوى بنارها قلبك .
فالحديقة مليئة بالورود والرياحين ، فتسمع قلبك بالريحان واقطف من الورد .
وخذ من الورود المئات واجمعها في يدك طاقة . فحتمًا يبقى قلبك إذن معلقا
بوردة واحدة ؟

ومن المقرر المعلوم كذلك أن حتى ليلى معنا في نزاع دائم ، ولا يلتقي
بنا إلا للزوال ، فنحن معا كالماء والنار . كل منا يلوى عنانه عن الآخر . ولنا
في ميدان الوغى جولات خضب كل منا فيها بدم الآخر سيوفه . فخبّرني :
أي خير يرجي في صداقة من يتحدى بالعداوة ؟

فقال المجنون لو الله بعد سماعه هذه النصائح : أيها الناصح الشفيق ! لقد
نقش على صفحة قلبي الفطن كل ما قلت من لطيف الحكم ، ومن در
النصائح المثقوب ، ولن أتوجه إليك في ذلك بعتاب ، وأسكن عندى لكل
ما قلت جواب :

قلت : إنك مفتون بالغرام ، وقد شحب لونك من جذبة العشق . نعم
فأنا لا أعيش إلا للحب ، وهو شغلي في هذا العالم . وحاشا أن أكسبح
سجوادي عن هذا الطريق ، وإذا لم أحي للعشق فلا حيةت اومن لا يمارس
طريق العشق فهو في مذهبي لا يساوي حبة شعير : وفي العشق خلاص
قلب المرء من دوران الدهر^(١) المديل .

وقلت : لا يليق الهيام بحسناء لم يطب أصلها ، والحسان طيفتن جميعا
من الماء والتراب ، إذ صفا القلب منهن فقد طاب^(٢) الأصل . فصدرهن

(١) يفكر المؤلف في الحب الصوفي راجع المقدمة ص ٥ — ٦ وكذا الفصل الأول من هذه الترجمة

(٢) أى لا بد مع الحسن في المظهر جمال الخبر ، إذ الجمال من أوصاف الروح ، وهذا رأى

أفلاطون راجع كتابي: الحب العذري وحب المتصوفة الفصل الثاني من الباب الثالث .

جميعا الحسن الأزل^(١) ووصلهن هو العيش الخالص . وهن مرآة
ذى الجلال^(٢) ، وعنوان صحيفة الجمال . ولماذا لم يشرق ذلك النور الإلهي
في طينة الجسم فلا يغترن مخلوق بمظهر الحسن الذي لا طعم له ولا سلطان
على القلب . لا ، ولا ينقص الحسن إذ ذاك الجسم ولا يسمو بالروح .
وقلت : ليلي سامية الحسن ولكنها دوننا في النسب . وما يفعل
العاشق بالنسب ؟ والعشق لا يستعمر من شيء . وكل من وقع صريع العشق
فهو ابن القلب ، وليد العشق ، قد قطع نسبته بالماء والطين ، وصار مرعاه
روضة الروح والقلب ؛ ولن يعرف لنفسه أباً ولا أما ؛ وقد تحرر من العيوب
بل ومن الفضائل أيضا .

وقلت : اثن عنائك عن هواها ، وافرح خواطرك من وفائها . وليس
من شأنى ترك هموم العشق ، وليس لى فى الأمر من اختيار . فقد كتبوا
على صفحة روحى بضعة الحروف التى تكون الوفاء . فهبنى جرحاً
بأظفارى الروح ، فأنسى لى بمحو كلمة الوفاء ؟ ومن الخطأ محاولة محوما خطأ
على قلوبنا من حروف هى الصواب .

وقلت : لا ينبغي أن يقتصر المرء من نصيبه فى حديقة الدهر على
وردة وكفى . ولىلى التى نسيمها طيب ، حسبى من هذا البستان . فهى
روحى وأنا لها جسم . وهى وجودى وهى حسبى . فإذا نأى كلانا عن الآخر
فلا أمل لنا فى هذا العالم . يطيب سروراً خاطرك منا بحبيبه ، فلا كان لنا
فى هذا الوجود سرور سوى ذاك السرور !

وقلت : إن لنا مع هذه القبيلة آلافاً من صنوف المكر والحيلة .

(١) راجع المقدمة ص ٥ .

(٢) المقدمة ص ٥ — ٦ والاستزادة راجع كتابى السابق الذكر .

وما شأنى أنا وإحـن الآخرين ، وكل صدرى جراح من طغيان الحب ؟ فإذا
أرسلت ليلى من أجلى زفرة حب ، فكيف أشعر بالبغض لقييلتها ؟ وإنى
لضائق الذرع بكل ما فى العالم ، وفى حرب مع من عداها ، وإذا لحقها من
صالحى مع نفسى ضيق ، فـمأشـنٌ بنفسى على نفسى الحرب .

وحين رأى الوالد المسكين قيسا على هذه الحال ، وسمع منه عبارات
عشقه ، علم أن أمره شديد ، وأن ركبه فى طريق الفناء ، وأمسك بلسانه
عن سـوِّق النصائح . وتركه فاصما عنه عرى وصاله . وفوض من فرط
رفقه به أمره لعناية الله .

(١٤)

نصيحة العامرين لوالد قيس بتزويجه بأخرى^(١)

عندما شق قيس^٢ عصا الطاعة^(٢)، ولم يَعد على نصيحة والده إلى المنزل، مثل أعيان القبيلة أمام ذلك الكهل، وقالوا عن حسن رأى وتدبير: أيها العامرى وأنت للكون عمار، وملئك بك معمور وأنت فيه سعيد الطالع؛ ولدك نور أبصارنا، وهو راحة قلبك المجهود. وهو قرة عيوننا، وأرضنا به بستان مونسق. نحن بمثابة الحبة السوداء في نار حبه، فحتى متى نرضى أن يبقى في تلك النار. وما دامت طيفته من الحب والوفاء، فذلك مقدور عليه. وإذا أريد القيام بشرط الولاء، لمن يقع في مثل ذلك البلاء، فطريق الخلاص إما في سفر، وإما بحب غادة أخرى. ولأنه لصغير السن فلا يصلح للسفر، وماله به يدان. فخير أن نقرنه في عقد نكاح بغادة أخرى قد شهرت في العالم بجهاها الفتان؛ وأن نكل إلى همتها أمر إصلاحه. فربما تسلي بها وفرغ من هيامه بليلى. فيستمر في خدمتها عن ساعد جدّه، ويقصر لسانه عن قصة ليلي.

فراق في خاطر الأب الشيخ ما أبدى هؤلاء العقلاء من لطيف التدبير؛ فدعا قيسا، وأتوا به وأجلسوه في حضرته. وقال له: يامن بك أنا سعيد الجدد، وأنت لعيني إنسانها. فبفضلك ترى عيناى، وبك يشتد ساعدى. منك يستمد طبعى السرور، ويشرح صدرى؛ والعالم من فراقك مختلط المعالم.

(١) قارن هذا الفصل بما في الأغاني طبعه دار الكتب المصرية ج ٢ ص ٤٢ — ٤٤، ٨٢

(٢) في الأصل حينما مزق الجيب والدليل

فعدت إلى مسكنك كالطائر إلى عشه . وإذا لم تجد في المنزل القرار بحثت
لك عن قرية حسنة تشاركك الدار ؛ حتى تطيب بدلاها محبتك ، وتشي
عنائك عن الضلال . فحين تضع في المنزل قدمك فسستقبل هي قدمك كما
تقبل للمقدم عتبة الدار . وإذا خرجت متهاديا في خطوك ، مرغت
رأسها على قدميك وعلى أذيالك . ولعمرك الذي خلت صفحة عيشه من
سواد الهموم عادة هيفاء في الحجاب ، تخجل القمر جمالا ، نقية اللون كالدر
المكنون . فيها كحمة الجوهر ، ضيق يفوق الوصف . عذب حديتها أخ
للشهد ، وينفخ مرقد قدها الأهيف بروح العبر . تشع النور على العالم .
وإذا بدت قامتها قامت قيامة الناس ، وقد طبقت سمعتها الأفاق ، ووثرت
كثروتك تعد بالآف ، يخرج من حساب العقل ماها ، وأكثر من ماها
جمالها . وهي في الحسب نذك ، وفي الأصل والنسب كفووك ، فلن
يعلق بأذيالك من الاقتران بها عار ، ولن يرمى الطاعنون بسببها منزل
بأحجار سبابهم ، وبالاخسارة أن لم يجد بعد مثل هاتين الجوهرتين النقيتين
سعادة الوصال والصحبة . وأريد أن تكون لك قرية ، وستكون طيبة
الخاطر على حبك وبغضك . وستزف إليك درة نيرة غير مثقوبة . فدوما
معا صديقين كالقلب والروح ، مثل اللوزة : قشرة واحدة ولب ذوقين .
وكونا صاحبين رفيقين ، في أمان من كيد الحسود وطعنات الواشين .

وعندما سمع قيس هذا الحديث انفرجت شفقاته عن شهد القول ، وفاض
من فمه جواهر الحكم كما فاضت عيون بهجواهر الدمع . وقال لو والد هو
يكي : يا أصل وجودي ، ومن تراب أقدامه لرأسي تاج ، ومن
طينتي من صنيعه ، وروحي الصافية من فضل تليثته ، أنا في هذا الدير

كعيسى بن مريم ، في طريق التجريد ^(١) طلق المسير . أنا مثل الشمس منفرد من هذا وذاك ، مقطوع الصلة بالنساء والرجال . لي قلب نافر من الدنيا . وخير لمصاب بالبلاء مثلي أن يبقى مجردا من الزواج ما عاش تحت قبة السماء . وما أنا إلا مجنون ^(٢) مثالي الغاية ، وما لمجنون مثلي والزواج ؟ وقد أقيت عن كاهلي حملي الخاص بي ، فلماذا أشغل بعبء الآخرين ؟ ولا أهل لرفقتي سوى نفسي ، فكفاني بوحدي رفيقا .

فلما وعى الأب المسكين طرفة جوابه ، غاب عن وعيه . ثم قال له : إنما أقصد من جعلك رباً أسرة إلى نجاتك ، فتخلص بذلك من ليلى وعشقها . فوثق صلتك بحبيب آخر ، يرحل من قلبك طارق عشق ليلى . فكما أن الخذاه الواحد لا يسع غير قدم واحدة ، فليس في القلب مكان لقلبين . وليس في البستان مأوى لخصمين ، فإذا أقبل الصقر رحل الغراب .

فأجاب قيس : أرى ! وما حيلتي في الأمر ؟ وماذا يفعل من فقد القلب بدلال الحب ؟ هيات أن أقطع صلتى بليلى ! . هيات أن يمل القلب حب ليلى ! فهي نقش على فص خاتم قلبي ، وهي بذرة منبتها فؤادي . وليلى الروح وأنا لها جسم ، وليلى طائر وأنا للطائر العش . وما دامت الروح في البدن ، فأنا لليلى وليلى لي .

(١) يتكلم المجنون هنا وفي الفصل السابق بلسان الصوفية . وللتجريد عندهم معان كثيرة على حسب المقام ، فمنها تجريد النفس عن الميل إلى شهوات الدنيا ودعوات الهوى ، ومنها التجريد عن الفتور في السير والاتفات إلى الغير ، ومنها تجريد النفس عن رؤية تأثير الكائنات ونسب الأفعال إلى المخلوقات ...

راجع : الكشخاوى جامع الأصول ص ٢١٤ — وكلام المجنون هنا يدور حول هذه المعاني الصوفية .

(٢) يقصد بالمجنون هنا التسمي بالروح في سبيل القربى عن طريق الوجد والدهش والهيان

ولقد طوفت في العالم ، ورأيت كل سالك فيه . كل شيء قابل للفناء ،
وإذا نظرت إليه بعين الاعتبار وجدت له بديلا ، إلا ليلى حين لا أمل لها
فليس لها من بديل . فلو اخترتُ بديلا لمن لا بديل له ، فلن أجن من وراء
ذلك غير خلل في الدين والقلب .

فلما رأى والد قيس أن ابنه ان يتخلص بحال من ربة حبه ، أخذ يدعو
له عن طيب خاطر ، راضيا بما ساق له القدر من بلاء .

(١٤)

الوشاية^(١)

متى استقامت أوتار عود العشق وأطلقت أنغامها بدون مضرب
الفتنة والوشاية؟ وكيف تطلق ألحان قيثارة دون أن تنالها غمزات يد اللاعب؟
فقد ألم فضولي^٢ متتبع^٣ للعيوب بقصة قيس وابنة عمه التي جرت في
مجلس الأحباب والمحارم ، ووقف فيها على بؤس قيس وسوء حاله ،
فأسرع إلى ليليل يحمل إليها الخبر قائلا :

قد بردت حرارة عشقك في قلب قيس ، واتجه هواه إلى سواك ، وسوف
يطرب بوصالها . وليس في شرعة الإنصاف الوفاء لسغير ذوى الولاء ؛
وما جزاء الجفاء غير الجفاء . وقد تحول عنك نظره ، وانطفأت من قلبه
تلك الجذوة . وحدث الأمر الجلل ، ونفق الحمار في الطريق وسقط الحمل .
وقد أتى إليه والده وأخذ يبهده ، وعقد نكاحه على ابنة عمه . فاصر في أنت كذلك
عنه أنظارك ، واختارى حبيبا تعقدين به روابط هواك ، ليمتحمّل من
صميم فؤاده عنك الآلام ، ويقوم لك بما قصر عنه سواه^(٢) .

فلما سمعت ليليل هذه القصة ، ملأ عليها الهم جوانب نفسها ، وخارت
قواها فلم تحرك بدا ولا رجلا ، وشربت الثمالة من دنّ الخمر . وقالت :

(١) تكثر في أشعار المجنون في الأدب العربي شكايته من الوشاية ، راجع مثلا شرح

ديوان المجنون لمحمود كامل فريد ص ١٧١ - ١٧٢

(٢) هنا في المخطوطات التي راجعناها تقديم وتأخير في الآيات ، ولكنها لا تختلف فيما

بينها زيادة وقصا .

أيها الحبيب الغادر ماذا أتيت ؟ وماذا فعلت بقلب العاشق المبتهل ؟ —
 واستمرت تخاطب قيسا خطاب الغائب : لقد غررتني في الصفقة فجريت
 وراء قبحك ولم تبعني غير الشعير . وما هكذا يفعل الأصدقاء ، وليس هذا
 شأن المحبين . تعلقت بمن هي أجل مني ، واستراح خاطرك إلى سواي . فقد
 أحسنت إذن وأحسنت وبارك لك الله ! . ولتبق النار التي أشعلتها بصدري عالية
 اللهب ، ولتضيء تلك النار مجالس أنسك . لقد أريتني في البدء قبحاً حتى قوى
 عقدي أمني ، ثم نكشت العهد غير حافل بليل وما بها . لقد وضعت لي أولاً من
 وفائك أحبولة ، ثم ما لبثت — حين استرحت إلى — أن أدبر عني ريح
 إقبالك . إن جرى ريحك بما تشتهي ، فلن يبالي الريح بما أضرم في قلبي
 من نار .

وظلت ليلي هكذا محترقة الفؤاد ، حتى أسفر الليل البهيم عن الصباح ،
 وأخذ قيس طريقه إليها كعادته كل يوم ، فقالت ليسلي لحرسها في غضب
 العاتب : شددوا الحراسة ، وأرهبوه بالسيف والسنان ، ولا تخلوا له الطريق
 إلى الحرم ، حتى يمضي لسبيله ، ويذهب في أعقاب صديقه . فلا يليق بمثله
 أن يلج لنا حرماً ، وليس هو بأهل للقائنا . فهو في الليل مع الأخريات
 وفي النهار معنا ، ولم يكن معنا نقي السريرة .

ولما رأى المجنون هذا الجفاء ، أخذ يصيح هنا وهناك . وابتعد باكياً
 منتحباً ، ولوى مكروبا عنان راحلته دون حرم منزلها ، قائلاً : واحسرتا !
 وما أعظم آلامي ! وما أنا إلا تراب في طريق الخوف والرجاء . قد أضحي
 حبيبي صديقاً لحسادى . وما أنا إلا فريسة هم لا أستحقه .

ولما لم يجد من الصياح جدوى ، سجد لله مردداً في سجوده : حاشا
 يارب أن يقع إنسان في بلاء مثل بلائي ، أسيراً في أحبولة الشقاء ، محروماً

من حبيبه ، مردداً أسي الحسرة في نفسه . حقّ لي الآن أن يسيل دمعي دماً ،
إذ يصبح هذا القمر أنيس الآخرين - وفي كل لحظة كنت أعزّي أمني وأنا
أعزّي إليها السير ، ولم يدر في خلدي أنني ارتكبت ذنباً . ولم يكن لي من رفيق
في الطريق إليها غير دموعي وآهاتي ، مقدما بين يدي الأعداء لما لم أرتكب
من جرم . ومن يكن جرمه مثل جرمي فسكني ذلك الجرم دليلاً على براءته ؛
وحاشا لو امتلأ الفلك سحبا ، وأطرت فوق رأسي سيوفا ، أن أقطع من
حبيبي حبل الوصال ، أو أن أطرق باب حبيب آخر . وحين أصير إلى
باطن الأرض ، وأخلص من دنايا الجسم ، سيقبلي روعي مصابة دون
الأرواح ، تبثه نغمات الشوق ، وساءمزي عن قالب جسمي السكن ، طالبا
النجدة والغوث ، وساءمك طريق الوفاء لها حتى الحشر ، وأموت كل
لحظة على غبار أقدامها .

هكذا كان يتغنى المجنون ، بتلك الأغنية اللطيفة كالدر المكنون .
ومن بعيد سمعه صديق له عهد بالعشق وحرقاته ، فعاد وأخبر بما رأى ليلى ،
فأخذتْ تقطر عيناها دموع الدم ، وتوثق عهد العشق من جديد ، وندمت
على فعلتها تلك . وتغنت كذلك بهذه الأنشودة الآخذة بالقلوب : من يلق
بسمعه إلى الحاسدين فقد نسي عهد الوفاء . فالحاسدين ينزع من النفس الحبيبة
هيامها بأحبابها الخالص . فيارب لا كان الحاسد إلا مثقل العبء وكاسد
التجارة ، وبعداً للحاسد من بيننا ، ولتعمه عنا كوارث الدهر ، وليُقطع
منه عرق الوتين ، لانه قطع نظري عن مشاهدة وجهك . قد قلت لنفسي :
سأحاول الصبر على نايك ، وأنجرع كأس سم الفراق . ولكن أي مجال للصبر
حين يبرح الشوق ؟ وصبري بدونك كالسحاب الأسيم يصب الدموع في آهات
بروقه المتواليه . فانهضْ مائلاً إلى ، فإني على قلق بدونك ، خجولة من

فعلني ؛ حتى أقدم إليك الروح عن عفة وطهر ، وأقبل يدك طالبة الصفح .
عندما نظمت في سلك القول هذه الآلىء النيرة ، وتفتح قلبها عن برعمة
الآلم ، غطت القلم في دم القلب السائل من العين ، وخطت به فوق رقعة
من الورق ، وطوتها وأعطتها رسولاً ، ليسلها إلى رأس العاشقين ، وعند
ما قرأ المجنون الخطاب ، مشى إليها على رأسه كقلبها ، وعقد الإحرام لحرم
خيمتها ، ومثل على قدمه من جديد كأنه عمود خيمتها . وكان في الطريق
خفوق القلب من هم الوسوس ، وقطع كذلك طريقه حتى وصل .

(١٦)

نذر الحبح

عندما انقَضَ باؤُ الفجر على عَشِّ غراب الليل^(١) ، وصَوَّبَ سهامه إليه ، طار ذلك الغراب عن عشه . وحين انجلي غراب الليل أسرع قيس يقطع بمقراض قدميه حاشية الطريق . وما إن قطع منه قليلا حتى برزت فجأة لعينيه نخلة خضراء فضرة كمنخيل سينا^(٢) ، ففتح عليها باصريته ، فطار عنها غرابٌ متألق النظرات كأنه دخان مصباح ، وتلتصع عيناه كأنهما نجمان في ليل بهيم ، أو كأنهما شرارتان في خمة . عليه خلمة عباسية المظهر ، مجدّ في السير كأنه ساع في إثر الليل . وأخذ الغراب يصيح صيحات موزونة عميقة ، وذلك لدى العرب فال ميمون ؛ فطرب لأصواته قلب المجنون . فرقص شوقا إلى طابته ، قائلا في نفسه : فألى اليوم طيب ، وسأنال فيه نصيبي من الوصال . وعلى الله أن أحج ماشيا ، بل ليس بكثير أن أزيد مائة حجة ، إذا سمحت لي عن طيب خاطر بمحضرها تلك الفاتنة شبيهة القمر . ولما قطع طريقه ، وصل إلى الخي ، ووضع قدمه في حريم الحبيب ، فسمحت له بالدخول ، وأجلسته في مقعد القبول . وفضّا مختوم رسالات الخواطر ، ونشرا طوى السرائر . فأنّا تكلمنا عن جور الفراق ، وآنا عن كرب الاشتياق . وصارا على الصحبة وفيّين ، وفي مباحج العشق متجاوبين . ليسلى مستوية على سرير الملك ، والمجنون يردد

(١) من المألوف في الفارسية تشبيه الليل بالغراب ، وفي الأصل الغرابان .

(٢) يستلهم المؤلف هذا التشبيه من قصة موسى في مناجاته الله في طور سيناء .

الصبيحات طالبا الانصاف . ليلي ورأسها في الأفلاك شرفا ، والمجنون يمرغ
في الأرض خدّ التوسل . ليلي تنثر من فمها الشهد ، والمجنون يفيض من
دموعه الدر . ليلي تسترسل نظراتها دلالات على دلال ، والمجنون تجيش في
ظويته الأسرار هياما . فأين من ليلي نور الصبح وضاءً ! وأين من دموع
قيس هيمان السحاب دافقا ! وأين من جمالها القمر يضيء الكون ! وأين من
حرقة قيس النار الملهبة ! فأعظم بمنطقها مصباح القلوب ! والمجنون محترق
بنار ذلك المصباح الذي يذيب القلوب ؛ فما أشبه ليلي بوردة على رأس جبل ،
وفي صدر المجنون من الهم مثل الجبل ، ليلي في ذوائبها كالمسك الخالص ،
والمجنون تهيم عيناه . ليلي ورودة مغسولة بماء الورد ، والمجنون أمامها
كالعشب الجاف في خلال السراب . ليلي في سرور بنفسها معجبة ، والمجنون
صريع على بساط الآلام . وأمضى العاشقان معا يوما راضيين بعد هجره ،
وأفضيا بكل مألدهما من سر ، وثقيا كل ما عندهما من لطائف درر الحديث .
ولم يبق لدهما من ألم إلا باحابه ، ولم يتركا برعمة إلا وقد تفتحت في بستان
حبيتهما . وأراد المجنون وداع تلك الفاتنة فتمض قائلا :

يا كعبة القاصد المشتاق ، وقبة الحسان من كل الآفاق . حريم حبيك
حديقة الحرم ، والمقيمون به كزوار الحرم . جدائل شعرك عقد ذوى
التيجان ، ونفخ عطرك وله المشتاقين ، وخلخالك الذهبي تاج الرؤوس ،
وسلسال شفاهك يغار منه السكوثر . وكل شعرة من غدائك كالليل البهيم
مشار وله ألف مجنون مثلى . وحين يفتترث فخرك مبتسما فأى سوق
لبائع الشهد ! قد عقدت الإحرام لبابك فجرا وأنا رضى الطبيع جدلان ،
فقلت : إذا تيسر لى اليوم السجود على تراب ذلك الباب ، فعلى الله حجة
وطواف . والآن وقد نلت مقصودى ، وتمتعت من وجهك بما أشتهى ،

فأذني لي أن أشد الرجال إلى البيت الحرام . فإذا امتد بي الأجل أثبت ،
ومأذهب وأعود راجلا . وإن تمزق سجين العمر فلا حيلة فيما يشاء الله .
وكما نما قففت غداثر ليلى على رأسها حين سمعت قوله . وقالت : يا من
منهجك طريق الصدق ، إنما حببك إلى وحجي إليك . ولأن يضيء حيانا
نور التلاق ، خير من أن يحترق قلبانا بنار الفراق . وكيف لي بالصبر يوما
على فراقك ؟ ! مستطيب نفسك بقضاء المناسك ، بينما أظل أرسل الزفرات
في مقام الحداد . فأجابها : في عناية الله ، وأسأله أن يلهمك وإياي الصبر
على محنة الفراق ، لتتلاقى من جديد .

هكذا قال ، وصب من ناظريه سيلا من الدم ، وودعها هامى العينين .

الذهاب إلى الحج بعد إجازة ليلي

شرطُ العهد الوفاء ، وبذل الجهد فيه ولا . وسفره يقوم به ذو محته
رفيع طرفة من طرف الوفاء بالوعد ، ذلك أن الجهد هو الذي يخرج المرء
من عهدة العهد . وقد أخذ المجنون طريقه إلى الكعبة ، باذلاً في الوفاء
جهده . خرج من منزل الحبيبة مضطرباً بمبيل الخاطر . وأخذ يقطع البادية
حاثاً الخطي . وورمت قدماه على حرارة الرمال ووهج الأحجار ، فشى
يظلمع . وتشققت عقبا قدميه من عناد السير ، حتى صارت شقوقها
كفروج أصابع قبضة اليد . وصار كف قدمه حيث مشى كمنعطين بهما
آلاف مسامير من الأشواك . وتراعى على ساقيه آلاف الرسوم من آثار
الحجارة . وكان يضطربه الألم إلى أن ياتحى ناحية من وسط الطريق . وكـ
خطاً على صفحة الرمال بهذه الرسوم آثار عنائه . فآنا كانت تبدو قدمه
بجانبه من شدة ما أصابها ككير حداد . وأحياناً كان يسير الهوينى في طريقه
كناقة معقولة . ربه من عطشه السراب ، وهو كليل من ورم قدميه . خبز
خير من القمر والشمس ^(١) ، وماؤه رشح السكب . ونومه لمام كما يسقط
إعياء المنهكون ، فاقد الإحساس في ظل شجر الطلح . وكانت الأشواك
في قدميه تجذب ألماً عروق الجسم كأنها خطاطيف . وكان رفيقه في كل
مرحلة الثعابين والنمل ، وصحبه في طريقه الظباء وحمر الوحش ، وخلاته
في سفره الجن والحيوان ، كأنه ملك وهؤلاء رعيته . وفي كل معرس

(١) أى لم يعلم شيئاً .

له كان يخط كلمة على الكشبان بيده . ثم يصب فوقها فيضاً من دم جفونه حتى تصير في لون الزنجير^(١) . وكان قصّاد الكعبة يطلقون بعد الميقات أحياناً أصواتهم بالتلبية ، فكان يتحاشى هو من ترديد التلبية . وإنما كان يردد بدلها اسم ليلي . وعندما أبصر من بعيد سواد الكعبة ، وامتلأ سواد عينيه نوراً ، تذكر جمال ليلي ، فأطلق من حرقة الشوق صيحة ، ثم بدأ بالطواف حول البيت . ولم يجد السبيل إلى وصال قمر الحبيب ، فكان يطلق شعلة الآهات من فراق وجه الحبيب . ودق على باب البيت حلقة الشوق ، وفي رقبة روحه من حلقة حبه طوق . وهو في حلقة غمّه مجهود يبحث عن مخرج ، وبينما يصب دم القلب دموعاً من ناظره ، تعلق بأستار الكعبة قائلاً : يارب الخدر ، يا مزهوّة الحجاب ، وباحلالة عقد حلقات الأسرار . مكانك بين أندية العرب ، وبك كسدت سوق كل العجم . تحت كل حجر في باديتك سقطت رموس آلاف الأبطال . معدنك النفيس بلسم في المسكن ؛ ونظرة منك قاصمة إلى الأبد قلب الواله . والرمل من حرم منزلك كحل يرد النور إلى عين الزمان . من سيجتي الهذيان ، ومن شيمتك السر . فكوني لي ملاذاً حتى لا يهتك لي حجاب ، وكوني لي شهيداً على أني تبت ؛ وقف تبت من كل ذنب وأنبت عما كان مني من سىء الفعل وقد مضيت حياتي بباب المعشوق الأزلى^(٢) ، الذي يتجلى لنواظر من جن جنونهم من العشق ؛ وكنت وفيما لما عاهدته عليه . وأنا نادم من كل ما وقع لي من نقض لهذا العهد . يا من يولى وجوههم إليك

(١) الزنجير : زهرة .

(٢) يمثل المحنون في خوطره الصوفي الذي تختلط أفكاره في الجمال الإنساني بوجوده بالجمال الأزلى ، فليلى في ذهنه طريق للقربي ، راجع المقدمة : وانظر كذا الفصل الثاني من الباب الثالث من كتابي : الحب العذري وحب المتصوفة .

العجم والعرب . وأرواحهم جميعاً سكرى من الشوق إليك ، يا رب
أصرف وجهى عن كل شيء ، واغسل صحائفى من كل كلام ، إلا من هوى وجه
ليلى ، ومن نداءات الشوق إليها . فليلى ملاذ أمل روحى ، وكنز عيشى
الخالد . منها تستمد عيني نورها ، ومنها يجد قلبى المضنى روح القرار . هى
ملكه ولاية الجمال ، وروح جسم العشق ، غاية كل محب . وما دامت ملكة
لى فأنا عبد ، وما دامت هى الروح فأنا بها حى . وليلى مصباح الحياة ،
وباكورة يانع الثمار فى بستان الأمل . فكل من لم يحى بها فهو ميت ، وكل
من لم يعثره معها حرارة الشوق فهو بارد القلب . ولو أن العالم كله على
رأى واحد ، وخرج عن قاعدة الوفاء لها ، فحاشا أن أعيرهم أذنا ، وحاشا
أن أنساها لحظة .

وعندما قالوا : إن المجنون خرج قاصدا الحج ، عارى الرأس ، حافى
القدمين ، نرى الخبر إلى أبيه ، فأسرع كالريح فى أثره ، فكان قرينه فى الطواف
واختبأ يصغى إلى دعائه . ولما سمع شكواه ودعاه ، وأصغى إلى عهد حبه
ووفائه ، غسل يده من الطمع فى نجاته ، واجتهد فى إرضائه فى كل الأمور ،
وحمله فى إيباه فى محمل اللطف وهو دج العناية ، وقفل عائدا به إلى حى ليلاه .

(١٨)

منع ليلي من ملاقاته المجنون

وقَعَ معنى الحجاز على قيثارته هذا اللحن الطيب النغمات فقال :
لما عاد المجنون من الكعبة أكثر شوقاً لما كان ، حطَّ رحله بديار ليلي ،
ووجد حبل الوصال متيناً بينهما ، وكثيراً ما تردد ذهاباً ورجوعاً ، واتخذ
التردد عليها مهنةً له ، وظل دائم البحث عن وصالها . فحين كانت الشمس
تبرز بقرنها ، كان يحرق حشيشاً في جادة الطلب ، مجدداً عهد الوفاء ، سالكا
الطريق إلى بيت الحبيبة ، تدار بينهما الكأس المترعة بخمر الطرب طوال
النهار حتى الليل . وعندما ينشر الليل علم ظلمته الأسود ، ينسحب من هناك
إلى وادي الهموم . وكان مقامه ليلاً في كوخ الآسى ، حيث كانت الدعة
عليه حرماً ، إذ بالرغم من غيبة الحبيبة عن ناظره ، كان يناجيها ، يقول
لها ويستمتع منها . ودام أمره على هذا النحو ردحاً من الزمن ، يُسلم الروح
في اليوم مائة مرة .

وانتشرت الواقعة في الأفواه وعلم بها أهل ليلي ، ولاكت السنة
السوء من المرائين هذه القصة ، وبسطوا فيها بينهم حديثها ، ثم نقلوها إلى أم
ليلي وأبيها . وذات ليلة أجلس الوالدان ابنتهما في ركن خلوة ، وتحدثا إليها في حجب
وحب حديثاً كله درر ، قائلين : يا إنسان العين وراحة القلب ، ليزل
عنك أسى جراح القلب ، ومهما بدا القدر مسدلاً الستار على الأسرار ،
فما أقساه في تمزيق الستار . وقد يبدأ في نسج السد فلأ يلبث أن
يمزقه إرباً . وفي كل مساء يلتحف الليل ببرده كالمسك ، وإذا الفجر يضحك

من تمزيقها . ولا تلبث الزهرة المستورة بنقاب براعمها أن تفتح عنها نقابها أنسامُ الصباح . وتستتر الحبة تحت التراب ، ولا تبقى طويلا حتى يتمزق عنها ذلك الستر . وما يتحدث الناس به عن قيس وعنك إنما قصدهم به لك السوء . فمن ذلك ما يلوكون من قصة منتشرة بينهم ، لا يريدون من رائيها غير تدنيس عرضك . قد سمع صبا السحر من البلبل غناؤه دائما بالوردة في نقابها ، فمر بأنفاسه عليها فزق سترها ، ثم أسلمها إلى الهجر . وقد صار حديثك — منذ انتشر — سمر الأوباش . فاقطعي دونه ألسنتهم ، ومزقي أوراق ظنونهم . وحين يهي أمسُ الحائط من الرطوبة فقد يتقوَّس إذا دامت حاله ، وإذا لم يعرض أمره على معماري صار أعلاه أسفله . فاطفئي النار على عتبة البيت قبل أن تصل بقاياها إلى السقف ؛ إذ حين تصل الشعلة إلى السقف لن يُخمد أوارها مهما أعملت الحيلة . فانتزعي قلبك من قيس عامر ، واقطعي أملك من صحبته . فليس من رأى قيس أن ينصرف عن بابك ، فأنت السكينة وقيس جبل أبي قبيس . فلا تلق إليه بالا ليزاح عن كاهلك هذا العبء . ولا تحملى لقب صديق يلحقك منه غبار العار . ولا تحمدي عاقبة حمل هذا العبء ، وانفضي أذيال هذا الغبار ، وابتقي محجوبة بستر العفاف ، ولا تسمحى له بدخول البيت مرة أخرى . فذات الحذر والنقاب برعمة ورد لم تفتح بعد ، طيبة المقام في طرف الحديقة ، غير مُنتهنة بالعرض في الأسواق والميادين ؛ وأما حين تكشف عن وجهها النقب ، فهي كوردة تفتحت ، فصارت غرض البلابل في تغريدها بشعرة الشوق والعشق ، ثم تنطف من منبتها وتوضع في طاقة محاطة بأعواد العشب ، ويدار بها على المحال والميادين العامة ، فيذهب رواؤها وتذبل نضرتها . ومهما طهرت أذيالك ، ولم ينلها سوء من طعنات حسادك ، فلماذا

تصيرين غرضا للظنون ، ومضغة في الأفواه ؟ ومن خلصت رأسه من الأوجاع فقد برأ من الانحراف مزاجه . وللتخلص من آلام الرأس الذي تجلبه عليك عصابة القوم ، خير من لف الرأس بعصابة اتقاء صداع الرأس .

أعارت ليلى أذنها لها ، وصدرها من نار حب قيس يغلي غليانا . فهما مع قيس على حرب ، ونفسها بدون قيس ضائقة الذرع . وهما ينالان منه بكلامهما ، وهي تدعو له بروحها بينهما . وهما مع قيس كلاما والنار ، وهي معه كاللبن والشهد . وهما منصرفان إلى النصيحة بظاهر القول ، وهي في طوية فؤادها فريسة الحب .

وعندما أخذ قيس طريقه لزيارة من هامت بهاروحه ، على عادته كل يوم ، التقى في الطريق بشخص هرم^(١) كأنه حمار مسن ، مقوس الظهر . وما أشد شبه وجهه لصلابته وخشونته بسدحفاة . وقد عرى رأسه من الشعر ، لكثرة ما انتابه من حوادث الدهر ، حتى غدا كالقطينة ، ليست عليه عصابة جميلة . وجسمه عار من المنزر . له شفتان عابستان ، وفه خال من الاسنان . له عين كالقلم وليس له سواها ، فلا ريب في أنه بعوره الدجال . ووقع في قلب قيس فأسى من هذه الصورة القبيحة ذات الشكل الخيف ، وقال في نفسه : كيف يرجى ربح الخير لمن وقع نظره أول ما وقع على هذه الصورة ؟

وبينما المسكين مسبل الخاطر ، إذ به مع رفيقته شبيه القمر على شرفة الحب . فأخبرته الخبر ، وشرحت له مسلك والديها المشين . وقالت له : انظر إلى

(١) في الأغاني ج ٢ ص ٤٥ أنه التقى بجارية عسراء فطير منها ، وفي النص الفارسي لا يعرف أكان من لقيه قيس رجلا أم جارية ، ولذا آثرنا وضع كلمة «شخص» لتكون عامة . (م ٥ - ليلى والمجنون)

ما يعترض طريق من عقبات ، وأى طعنة تعرض لها فؤادى المصاب .
فبقلي من الهيام بك جراح ، وفراقك طعنة في تلك الجراح . ويحترق قلبي
على فراقك ليله واحدة ، كما يحترق شمع المحفل ، فقل لي بربك كيف تكون
الحال لو امتد به الفراق شهرا أو سنة ١٩ . وفي مقدمك لزيارتى مائة بلاء ، وإذا لم
يلحق بي أذى منها فأنا على وجل من أن ينالك بأذى امرؤ سوء .

وسمع المجنون قولها فزق ثيابه جزعا ، وغلت روحه من شدة وقع ما جرى .
وأخذ يردد هذا اللحن : أى قلبي رضى بعد ذلك نفسك على الصبر ؛ وأنا
عن كل شيء سوى الصبر ، ولا عليك إذا ردك الحبيب ، فلن يحين اليوم
الذي يألف فيه قلبي سواه . فلهجر عن رغبة من الحبيب هو الوصال ، بل
هو من الوصال أطيب . ومن يبرح به الشوق للقاء الحبيب بدون رضا
منه ، فليس صادقا في دعوى العشق ، وليس بأهل لأن يحمل لقب العاشق .
فالعاشق من تجرد عن نفسه ، وأقفل أمامها باب الشهوات ، وهو الذي
يسلك وادى اليأس ، قد خلا من الغم ، وفرغ من السرور . فهو خلى من
الآمل ، وفي أمن من الخوف . قد ركن بنفسه إلى التسليم . لا يعرفه أسى
لما يقاسى من محن ، وهو بكل ما يحدث جد مسرور .

(١٩)

عقاب^(١) والد ليلي لها حين علم بلباقائها المجنون

لما حُرم المجنون زيارة النهار نزولا على حكم أسرة قلبه ، كان فريسة
الهموم طوال النهار حتى الليل . وكُم باغت روحه التراقي . فإذا سجن المساء
اتخذ من الليل لباسا ليذهب في طريق الطلب ، وجعل ديار الحبيب له مبيتاً ،
وقرّر قراره هناك طوال الليل . وكلما وجد مجالا للحديث تحدث ، كما تسمح
الحال ، عن تباريح فراق النهار ؛ وكُم كان يحكي عما يلهب به صدره من الشوق ،
وعلى الرغم مما كان يعاني من غصص الهجر ، كان طيب خاطر بما يبذل
من جهد .

وذات ليلة كان هذان الحبيبان الطاهرا الذيل ، الطيما السمعة في عالم
العشق ، يتجاذبان مختلين أطراف الحديث ، فربهما حدث من أهل
الحى ، من ذوى القلوب الميتة ، ومن يسيئون الظن بدلال العشاق ، فرأى هذين
البائسين الجريحي الفؤاد في خلوتهما ، فأخذ الحسد على طيب صحبتهما ،
وأساء بهما الظنون . وحقا لا يأتى الخبيث بالطيب ، وكل حامله تلد من
جلسها . وينضح الإناث بما فيه إن خلا وإن خمرأ .

وموجز القول أن ما رأى من قطرة دمع على خد ليلي بالغ فيه فجعله
سيلا هاميا . ومر في اليوم التالى بوالدها على انفراد ، فأخذ يقص عليه

(١) قد أخذ المؤلف معنى هذا الفصل من قول قيس :

أمضوية ليلي على أن أزورها ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا ؟

(شرح ديوان المجنون لمحمد كامل فريد ص ١٧٨ ، وتزيين الأسواق ص ٦٣)

من خياله ، وأشعل نار الغضب في عشم حصيده ، وسرعان ما أكلت النار هذا الحصيد ، فأقبل على ليلى بنار غضبه ، وألقى على سرّ أمسياتها مع قيس ضوء الإبانة . وبسط إليها كف التأديب ، وصفع وردها صفعه آلمتها ، فصار الخد في لون السني لوفر الذى عانى قسوة السيل ، وصار أزرق ذلك الخد ، بعد أن كان في لون الشقائق . ونالها بضربة عصا لينة على قامتها ، فترامى بها ما يشبه الورد على قامته كشجرة الورد ، وكانت ليلى ترد في كل لحظة التوبة ، وهى تعنى التوبة من كل شئ . إلا من عشق قيس . وكانت في كل لحظة تصيح منتحبة لامن الضرب بل من ألم الفراق . وكانت جفونها تريق دماء . ولسكن من جوى السعد .

ثم حلف والدها بجلال الله الذى تخر من هيبتة الأفلاك سجدا ، وتشرق لوامع كماله في بدائع جماله ، من يطالع المقربين إلى حضرته على أسرار صفات ذاته : أنى سأحمل شكائى أمام الخليفة من تطاول قيس ، وبما يجره على من ضيق دائم ، إذ يلج أطراف حريمى صباحا حيناً ومساء حيناً ، ويضع مئات الأشرار من الحيل والسكيد ليصيده غزاً إلى المليلح . فإذا أنصفى الخليفة فيها ، وإلا فلن أصبر على الضم ، وسأتصدى له في الطريق الذى يسلكه فأنزله ، فأحكم حوله حلقة بالسيف والرح ، فإذا ابتعد عن الطريق وإما خاطر بأجله .

وعلم الجنون بالحديث في نفس اليوم ، فاحترق فؤاده ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت ، وبرحت به آلام الهجر وغصصه ، فأقصر عن البحث والطلب ، وعنى من لوح قلبه حروف الأمل ، فاعتزل ، وكف عن حث خطاه للذهاب إليها سرا أو علانية . ولم يفعل هذا خوفاً على نفسه ، بل حذر أن ينال حبيبتة من جور والدها سوء .

(٢٠)

الجارة الأرملة^(١)

كانت لليلي الفاتنة جارة ليست من قبيلتها ، مكشوفة الفؤاد من كرب
الاغتراب ، مهمومة الفكر لمخبتها بالترمل ، فقد خلفها زوجها وحيدة مع
يتيمين بقيا لها منه . فكانوا معاً غرباء مهجورين ، يقاسون آلام الجوع
والعري . وعندما حرم المحنون كنز الوصال ، صار من الأرملة كاللوم
يأوى إلى بومة ، واتخذ من منزلها الحزين مأوى يقوم فيه بخدمتها . وكان
يرى هذين اليتيمين فيمسح بيد الشفقة على رأسيهما . وكان يضع سراً في
أيديهما كل ما يقع في حوزته من فضة وذهب . وحين ضاع من يده ظل
الحبيبة ، استعاض عنه بجارتها ، شأن الظلمآن المكروب في البداية حين يمشن
بشفقيته الرمال النديّة ، طالباً في طرقاتها عوضاً عن الماء حين يعز الماء
وتشمتد به الحبي ولهب القبط

وكان من دأبه ترك كل قيل وقال ، سوى السؤال عن أسرة فؤاده
وحبيبة روحه . فكان يقول كيف هي ؟ وما حالها ؟ ومنذ الذي يتمتع بجملها ؟
ومع من عقدت الوصال ؟ ومع من من تمارس آيات الدلال ؟ أولها آخر
مثلي أم لا ؟ أولاً زالت أنظارها إلى أم لا ؟ ومن ذا الذي وقع قلبه في
أحاييل غداثها ؟ ومن الذي يستقبل محراب جفونها ؟ وفي فم من تصب

(١) خبر تردد قيس على جارة ليلي الأرملة المذكور في ترتيب الأسواق للأطشكي ص ٥٧ وفيه
أن والد ليلي فطن للحيلة فنع الأرملة من استقبال قيس ، فأشدد قيس في ذلك :
أجارتنا إنا غريبان ههنا * وكل غريب للغريب نسب
فلا تزجرتني عنك خيفة كاشح * إذا قال شرأ أو أخيف ليب

الشَّهْدُ من شفاهها الياقوتية التي تخط بسماها بالعتاب ؟ وبأذن من تعلق نظم اللؤلؤ من قولها ؟ إني لمحترق شوقا إليها حتى أحظى برؤية حياها . وإني لصريع لوعة النأى ، فختام أبى خدن الفراق ؟ ويحظى غيرى بمجالستها ودلالها ، وبحسبي أنا أن أجلس بمنزلك كي أرى من بعيد ربها وطللها .

وما إن فرغ من قوله حتى خر على الأرض ، تهمى بدم الدموع عيناه هميانا استنفد به كل ما فيهما من قدرة على البكاء ؛ وخارت قواه ، فخر مغشياً عليه ، لا يشعر بشيء في هذا العالم . فكانت الأرملة ترش على وجهه الماء ، وتغسل عن ناظريه كحل الإغماء . وعندما كانت تصحو عيناه من الغفوة ، كان يشرع في الانصراف . ولم يكن له هم غير هذا النوع من السَّطَب ، إذ كان محروما من رؤية حبيبة روحه . ولكن القدر بحُمتِه القاسية — وذلك دأبه دائما — كان يهيء له طعنة أخرى ، ليثني زمامه عن المراد . فقد سعى الوشاة بليلى إلى أبيها ، وتكلموا في أمر ذهابه ومجيئه ، ونسجوا حول ذلك الأقاويص ؛ ثم انصرفوا ؛ فأخذ والد ليلي يغلي غيظاً ، ويصيح من فعلة الأرملة المنكرة ؛ وقال لها : أيتها الخسيصة الحقيرة ! ماهذه الدناءة ؟ وما هذا العمل الذميم في حقى ؟ ! لماذا تفسحين الطريق في دارك لمن شُهر بى ، وسبب لى العار ، ورعى جام شر فى بالآحجار ؟ وإذا طرقت بابك مرة أخرى فأوبته استرضاء له ، فأعلمى عن يقين أن هذا إن يبقى سرّاً .

وعلى سماع لومها ارتعدت المسكينة خوفاً كيراعة في الماء . وحين رأت المجنون في المرة التالية مقبلاً من بعيد موله القلب صاحته به : أيها الابن السعيد الجد ! أنت لا ترضى بأذى لمسكينة مثلى ، فلا تلمح لى منزلاً ،

ولا تضع قدمك من بعد في ساحتي . ليلي صديق لك ، وهي على حبك مقيمة ،
ولكن أباهما يسر لك الضغينة . وهو أمير قبيلة ، وأنا مسكينة ؛ فأين أنا
من صولته ؟ ولا أخشى على حياتي فحسب ، ولكن أخاف بخاصة عليك .
فأحضرص كذلك على ألا يلحقني ضرر ، وقد أخبرتك بالصدق ، فذار أن
تريق دمك .

واضطرب المجنون لسماع هذا الحديث ، وهمس با كيا بهذا القول :
ما هذا العمل أيها الأم الشفيق ؟ إن قلبي جم التأثر لإشفاقك علي ؛ فكلانا
غريب هذه الديار ، وليس أحدهنا بغريب عن الآخر . وماذا علينا
إذا أسدى كل منا للآخر يداً ؟ وأي ملام فيما تقطر به قلوبنا من دم
الأسى ؟ أكل غريب عانى آلام الاغتراب فغريب عنه أذى الغرباء ، إذ هم
في كتاب الأنساب أقارب ، بعضهم من بعض ، وقد أثبتوا على صفحاته
نسبهم ، فلا ينال من نسبهم بعد ذلك أن يمزقوا صفحات ذلك الكتاب .
كنت في منزلك أولى وجهي شطرا ليلي قانعا ، والآن وقد صرفت وجهك عني ،
فإني أدعو لك دعاء منبعا من الروح والقلب . وهأنذا غريق في مستنقع
الورطة ، أحزمت راحلتي عن دارك ، وقد أقبلت مسرورا ، وهأنذا أعود
مهموما . وهكذا أمضى ليلتي ، ولى عندك رجاء : إذا وقع نظرك على ليلي
أن تذكريهما باغترابي ومحنة حرمانى ، وأن ترددى بلساني لها الدعاء ، وتتمنى
لها باسمي البقاء . وإن تجيب يومى بغيثي ، فقد حلت عقدتى ، وإلا
فسأقضى من الفراق ، لأتعلق بأذيالها في الدار الآخرة يوم التلاق .

قال هذه الطرفة وأخذ في السير ، موليا وجهه بدون رفيق شطـر
الصحراء .

(٢١)

شكوى والد ليلي إلى الخليفة^(١)

قد منع والد ليلي الجليل الشأن ، الخطير في كل الأمور ، المجنون الواله القلب من زيارة تلك الحسناء الفاتنة القسمات. وبوقوع حادثة الأرملة حق عليه العمل بالقسم الذي كان قد عقده من قبل ، وبمقتضاه نهض ليضع رحله بباب الخليفة ، وشرح — على ما هو معمول — قصته كما هي ، قائلا : في قبيلة بني عامر شاب عنيد الطبع ، نظام لقصائد الغزل ، متمم خداع ، يمزق ستار السمعة بنفاقه . وهو برأء من مراسم الآداب ، قد أعطى نفسه لقب المجنون ، خليع العذار ، صنّاع في توقيع ألحان الحب . وعندى دوة يتيمة كائناتها إحدى الحور ، محجوبة عن أنظار حوادث الزمان ، طيبة النفس في ستر خدرها ، مسدل نقابها على فائن قسماتها . لم ير وجهها أحد سوى المرأة ، ولم يمس شعرها غير المشط . وما إن تكلم في أمر عشقها هذا الشاب الطائش الرأي ، المفضوح أمره والممزق ستره ، حتى تلقف العالم صدى حديثه . فلميس من مجتمع يخلو من التغنى بهذه القصة . وإن اسمها المستسر كالروح في الجسم ، وهو في صدرى بمنزلة الروح ، بعد أن تغنى به غزلا ، امتلأت به الأفواه في أرجاء الأرض . وقد أبلى هذا الشاب بذهابه ومجيئه عتبة بيتي ، يدخل الدار دون أن يطرُق الباب ، فإذا كسرت رجله سعى على رأسه . فإن أحكمت رتاج الباب أقبل من السطح . وإذا

(١) في الأغاني أن أهل ليلي شكوا قيسا إلى الخليفة فأهدر دمه لهم (ج ٢ ص ٢٦)

وقد أفاد الجاهلي من هذا الخبر في نظم هذا الفصل .

طارده صباحاً طرق زائراً ليلاً . وقد ضاقت نفس الجار به ذرعاً لالم ما عانى منه . ومن يسعفني غيرك ؟ فأشدك الله أن تنقذني ، وتعطف برعايتي ، فتكتب كلمات في رسالة إلى أمير تلك الولاية ؛ ليتصرف بما يقضى به كرمه ويحررني من ربة هذا الأمر .

وعلم الخليفة تفصيل حاله ، وأعطى الأمر على وفق ما طلب . وقرأ أمير الولاية أمر الخليفة ، فتوجه في ركبه إلى قيس وقومه ونشر بساط العدالة ، ودعا رؤساء بني عامر . وجلس قيس مع أبيه ، وأحاط بهما أعيان القبيلة في شكل حلقة . وأخرج الأمير منشور الخليفة وهذا مضمونه : على قيس المجنون ، الذي يفتخر بعشق ليلي ويشبب بها ، ألا يتجاوز حدود الإنصاف ، وليشتغل من الآن فصاعداً بحال نفسه . وليلزم ديار قومه ، ولا يتغن بالغزل في ليلي ، ولا يسوق راحلته في طلبها . وليقصر خطوه عن السعي وراءها ، وليربط لسانه عن القيل والقال في عرضها ، وعليه ألا يعرّس في حرم دارها ، وألا يشترك في مجتمع مع بني حبيها ، وألا يشد أغنية على لسانها ، وألا ينسج القصص حول أطلالها ، وألا يبيت على عتبة بيته يقص على المجامع قصتها ، وألا يضوع المحافل بإحراق عود وجودها ، وألا يتغنى بها غناء النمل ، وإذا وقع منه ما يخالف ذلك ، فهو مستحق للهلاك . ومن يقتله عمداً ، ويرم قارورة جسمه بالأحجار ، فليس عليه من دية ولا قصاص ، ولا يحكم عليه بعقاب عام أو خاص .

ولما رأى القوم الواقعة وعلموا مضمون منشور الخليفة ، تناولوا على قيس ، وصوبوا إليه — مفتحة عيونهم — نظرات الإشفاق وقالوا : قد سبرت غور الأمر بعد أن سمعت منشور الخليفة ، فليس بعد من مجال للكلام ، وليس من قول أسى من هذه الأقوال ، فإن لم تستقم

على هذه النصائح قدمك ، فدمك مثل مالك مباح . فارغ جانب والدك ، وعد عن ذم خلتك . فلو أن ليلى أو الدها قتلاك اطل دمك . وما لنا والصراع ؟ وما لنا والبحث عن النزاع والاحقاد ؟ .

وسمع المجنون هذه النصائح ، فصاح صيحة العاشقين ، وهمت جفونه بها طل من دم القلب ، انتشر على صفحة وجهه الممتقع . ووقع على أرض الذلة والهوان ، وغاص في هوة المهانة والحقار ؛ يتلوى تلوى السليم ، ويرعش كطائر يختصر . قد طار عقله من رأسه ، وذهبت روحه من جسمه ، وغاب عن نفسه كالمصروع . وحوله من الخلق حلقة محكمة ، قائمين عليه في مآتمه ، ووقف الحاكم مكروبا وقفه القاتل . وأخذت صبغة سلطانه لونا آخر ، ووهن دستور حكومته ، واحى أثر منشور الخليفة . إذ سبيل سلطانه على ذرى العقول . وليس من تكليف على غير العقلاء ، وما المجنون بأهل للتشريع . وطال بقيس المقام على حاله ، صريعا على الثرى ، وجهه إلى الأرض . ولما أفاق من إغماءته ، جرى في هوسه إلى أنشودة ، وردد بمضرب العشق على أوتار قيثارته هذه الألحان ، قائلا : نحن الكرام المسافرون في طريق العشق ، ونحن غرض لغارات جيوش العشق . وليس لنا أمر سوى العشق ، فما بنا خوف من الخليفة . وإن يد الخليفة لتقصر عنا ، إذ وصلنا إلى مكانة قيّد فيها العشق أقدامنا واستعصم حمامنا بعش يستعصى على باز الخليفة . نحن طير عشنا في سدرة المنتهى ، ويسمو بنا موطننا عن الأرض ، ويطيب لنا فيه المقام . وأية قوة نحفل بها لتلك الشراك التي يلسجها العنكبوت !! أو حين تغزو روحى وتحتل مكانها من قلبي يقولون لى : سر فى طريق الخليفة ! وارك من أجله تلك العروس المجلوة ! هيهات ! أى مكان لهذا الخيال ! فهجرى إياها محال ، وإنى لآخى فيها كما يحى الظل فى النور ، وبعيد عن التصور أن أكون بعيدا من نفسى .

(٢٢)

والد المجنون يخطب ليلي^(١) له

ماشطة عروس هذه القصة ، المدلة بنفسها ، هكذا جلت عروسها قائلة :
خرّ قيس طريقا تحت أقدام جيش الهموم ، صامداً في مسيل البلاء
كالجبل ، مضطرباً تدور به الرأس في كل متجهه ، كأنه دوامة إعصار
في الصحراء تدور بها الريح . وظل نائياً عن حى ليلي ، وقلبه مليء بالشوق
إليها . وضائق به نفسه ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، وصار على شفا الهلاك
من انبأى ، لا يقر له في مكان قرار ، بل كان دائم التنقل في كل لحظة من
مكان إلى مكان . يقطع الأودية المحرقة الرمال ، تطأ قدماه نارها وشررها ،
يرمى بظله على الرمال كأنه سحاب ، ويثشد القرار على حد السيف . وإذا
جاز أن يحيا على الغم بئس ، فكيف له بالعيش على لظى الجمر وحد السيف ؟
وأيما لمح سوادا جرى إليه جرى الدمع إلى سواد عينيه ، مستخبراً منه
عن ليلي ، مرددا اسمها وقلبه نهب الوجد . فإذا حدثه عنها بضع كلمات تسكحل
بتراب أقدامه ، وإلا سحب عنه أذياله ، وقطع معه سلك حديثه .

وما إن استمرت حاله على هذا النهج ردحا من الزمن ، حتى قطع كل صلة
له بالعقل ، واشتد به الشوق وشن الحرب على صبره ، وصار منكس العلم
كالقلم ، فأعمل الحيلة ، وسلك شعاب الفسكر : ثم سار شطر قبيلته ، باحثاً
من بين رجالها عن رجل شبيه بالروح المشرقة الجوانب بمصباح العقل .

(١) لأجل خطبة ليلي لقيس ورفض والدها تزويجه إياها راجع الأغاني طبعة دار الكتب

وقال له : لى لديك أمل أرجو أن تسعى فى تحقيقه ، أن تحمل منى إلى أبى السلام ، وأن تبلغه منى هذه الرسالة :

يامن بفضل رعايته عميت كمنخلة ناضرة توج رأسها الثمر. فطينة زهرتى من صليح يدك ، ومضمون ما فى قلبى من خط بنانك . ومالى من شمائل إنما مردها إلى فضائلك ، وهى كل مالى من فضائل ، فأنت حليلة بستان عيشى ، وأنت النور اسراج حياتى . وقد رأيت منك من البشائر ما تلا بعضها بعضها ولى فيك الآن رجاء : هو أن نأتينى البشرى بتحقيق أمل آخر : لىلى مراد الروح وسعادتى الدائمة ، وقد صانوها فى خدرها عزيزة ، كما تنما أرادوا أن يقوها الحسد من نظراتى . وهأنذا على شفا الهلاك من فراقها ، فقللى اليوم مكوم وصدري محترق ، إذ بسوى بابها لا يطيب لى مقام . وويل لى ثم ويل لى إن لم يتييسر لى ذلك المقام . وموجز القول : أمل أن تستجيب لمطلبى ، وأن تنظر لما أنا فيه من آلام ، وأن تطبني مما أعانى من سقام . انصح لوالدها ألا يسر لى الضغينة ، فالعالم لا يعدل مثل هذا العناء . وايضع فى عتقى طوق صنيعه ، وليرفع رأسى بأن أكون له عبداً . وأصير له صهرا ، بل أقل خدمه شامئنا . وقد قلت لى إن نسبك عال وينال من قدرك مصاهرته . وقد احترقت وجدا ؛ فما جدوى النسب ؟ وماذا وراء النسب غير نحن الليل والنهار ؟ أمل أن يبدو خبيثى طيباً فى ناظريك ، وأن يعمر قلبك بحبى ، إذ لم يبعد لى منك حتى الآن سوى الجدة على ، كأن ليس لى إديك من حب أبوى . فاصغ للنصيحة القائلة : ارحم ترحم ؛ فتمنحني منك العطف الذى تشمل به ذوى رحمك . كن رحيما ، فالمروءة فى الرحمة ، وهذه روحى تسكاد تزهد من ظلمك . وليست غايتى من هذا سوى النجاة بنفسى ، فأنى مكان لهوى النفس

في المقام الذي أنا فيه ، وإنما هذا ديدن طينتي الطاهرة ، وطبعي البريء من الأدران . وقد احترقت روحي بحب ليلي ، فجنى حصادى منها حرقة الروح . ولم أجد هذه العاطفة لدى سواها ، ولذا إن أحول نظري عنها . وأى بكاء تجود به عينا مثلى الفريد الطبع المبلبل الخاطر ! هذا ولم أضع أولا ولا آخرأ قدما في جادة الطلب من أجل امرأة ، وحسبى أن أنظر لها أحيانا عن بعد ، وستتبوأ هي صدر عرش اللطف والدلال ، كريمة مرفوعة الرأس ، وأما أنا فقامى حيث تضع نعلها ، وساء كون دون قدمها مهينا ذليلا .

نهض هذا الصديق السكامل الخلق ، النزيه الشماثل باكيا من محضر قيس ؛ وأخبر أشراف القبيلة بما تم من أمر والده . فاتفقوا فيما بينهم ، وحلفوا على ما اتفقوا عليه ، وتوجهوا بعد ذلك إلى أبيه ، ونشروا على وجل كتاب كروبه . ونقلوا كلمات قيس إلى أبيه ، وعرضوا عليه درر قوله . وعلم الأب إلى أية حال وصل الأمر بابنائه ، فوضع يده على جبينه وبكى ، إذ انتهى سكين الأسى من قيس إلى العظم ، وبلغت المحنة بقلبه المدى ، وقال الأب : كيف لى أن أطيب خاطرا بما يعانى من آلام ، وخير أن أثمر عن ساعد الجد ، ناشدا الشفاء لمابه من دام ، باذلا من الجهد كل ما استطاع ، واضعا في كفه زمام المقصود ، وساء جعله ثملا من جام المراد .

وأعدت الرحال للذهاب ، ونهض معه من القبيلة جمع من الصحاب . وصاحوا جميعا الطريق ، تهيم عيونهم من الدمع سيولا : الشيوخ في تضرع الشفعاء ، والعقلاء في تواضع المطيعين ، حتى وصلوا إلى الوادى حيث ضربت خيمة ليلي ، فأتى والدها على ماله من مكانة معروفة ، ومد بساط الضيافة ، وجرى الخدم من كل الأطراف يجرون أبسطة الموائد . وقد أخذوا يتجاذبون على الطعام أطراف الحديث الطريف ، يحكون من

القصص ما طابت به خواطرهم . وقد طرق كل منهم باب حديث طريف ،
كاشفاً القناع عما في ضميره ، وقاد من كل جانب جنبية ، مواريباً في قوله
عن القصد . وقالوا : من دأب هذه الدنيا أن اليد الواحدة لا يأتى منها على
الصدى حتى تساعد اليد الأخرى ، وخبرنى كيف يكون الميزان ميزانا
مالم تستقم ذراعاه ؟ والجمليل مقبور ما دام فردا ، ومرآته أن يصير ذا زوج
وألق بنظرة على البساتين ، فهما كانت الوردة جميلة فهي وحيدة معزولة ،
فإذا انتظمت في سلك الحضرة ، صارت لعينيك أطيب منظراً .

ثم تسابقت ألسنتهم في الثناء على رب البيت : أنت من اقتلع جذور
البخل ، وهذا الخى حى بسخائك . وفي خدرك قمر مجدود إذ عين رعايتك
عليه مبسوطة ، وهى نقية الجوهر كلؤاوة لم تسلك ، عذراء كبرعمة لما تتفتح .
وهى بدر ، ومن الآسى أن يتنقّب وجه البدر بسحاب . فتعطف على ظلمة
الليل ، واكشف السحاب عن وجه ذلك البدر . إنها فريدة ، وسنديها
آخر إذا أردت أن تزوجها . وقيس ذو فضل ، وهو مشتاق لأن يشرف
إذ يصير من غلمانك . وهو فى أصله ونسبه وحيد الدهر ، وفى فضله وأدبه
مضرب الأمثال . فلا تحرمه هذا المراد ، وقد قدمناه لك صهرا وابنا ،
فلتقبله بحضرتك غلاما ، فتبدل علقم ريقه شهدا . فهى من الحور وهو من
الملائكة ، فجوهرهما قدسى الخلقة . وغير محمود أن يظل ملك مهجورا من
الحور كأنه شيطان . وهما جوهرتان كلاهما للآخر كف . وهما نجمان
يجذب كليهما لأخيه الشوق . ومكان الجوهرتين علبة واحدة ، ومقام
النجمين برج واحد . وقد قلنا ما يقتضيه الوفاء والعطف ، على أنك
بعد تعلمه .

(٢٣)

رفض والد ليلي خطبة قيس

كان والد ليلي غريباً عن منهج الإنسانية وتقاليدها ، قد ضل طريق المرومة ، كما نما ركب في جسمه عوضاً من قلبه حجر ، بل بينه وبين القلب آلاف الفراسخ . وهو مطمور المقام في بئر الغفلة ، سريع الخطى في ركوب طريق الضلالة ، غريق ظلمات دخيلته ، في جنة السواد من قدمه حتى ذؤابة رأسه ، ناء عن شرعة الإنصاف ، موقوف على جهل جبلته ، فارغ البال من معاني العشق والدلال ، مستريح الخاطر من التبايح التي تصهر الروح ، لم يعان المحبة لوعة ، ولم يذق المحن جرعة . فهو مشتمل المحبين ، وموهن عزم العاشقين . أى أن الراعى لأمر ليلي قد اضطرب به أمر ليلي . وعلى الرغم من أنه والدها نسباً ، فقد خرج من نطاق أبوته مساكناً . فليس بين جنبيه لها رحمة الأبوة ، وقد جلب عليها مآت المحن والغم . وعندما سمع رغبة قبيلة قيس ، لوى عن مرادهم عنانه ، وقطب حاجبيه ، وعقد مآت العقد غضباً على جبينه ، وكيف يكون حال امرئ حين يقطب الجبين ، وهو الذى إن ابتسم يجرح ببسمته القلوب ! ! لقد قال :

ياله من خيال غير صائب ، واهن كبيت العنكبوت ، لو طُلب منى أولاً هذا الأمر ، لكان عين الصواب والعقل . أما اليوم فقد امتلأ حيز الزمان بصدى هذه الأنشودة ، ولم تبق أذن في العالم لم تصنع لرجع هذه الألحان . وغدت القصة حديث الأطفال ، ويردها القوم في عقر دارهم ، ويحتسى الداعرون في مجالسهم على أنغام ألحانها كتوس الخمر . ويحذر الناصحون

الداعون لكريم الخلق من أمثال حالتنا ، وأى عار آلم من هذا العار ؟! إن هذا لاسوأ ما يتصور حدوثه ، حاشا أن أقبل مثل هذا الرأى ، وأن انسج حيلة من نظم الشعر . وها هي ذى النار تفيض بالأنوار على الجبل الشاخ فى ليلة حالكة ، فكيف يستطاع إخفاؤها فى الهشيم ؟ وكيف يستسبح ذو الألباب مثل هذا الهوس ؟ وأنى للزجاجة التى تكسرت قطعاً على حجر أن تستعيد سيرتها بمحض الرغبة ؟ وكيف تعود سليمة على ما كانت عليه ؟ فإليكم عنى ، وأقبلوا باب هذا الحديث . فقد تدنس أذيالى بهذا العار ، وثقل به كاهلى ، فلا تجلبوا على عارا آخر ، بل دعونى وشأنى . ولماذا آتى عملاً مشيناً ؟ وكيف أحمل عبثاً هذا العبء ؟ وكيف أعهد بعينى إلى لثيم وضع قدى الاشواك فى عيني ؟ وكيف أقبل أن أسلم قلبى إلى من يصبو سهامه إلى قلبى ؟ ومن شأنه تصويب السهام يستطيع تسديد الضربات وحمل أعلام التشهير . وإنى لأشتكى الآن من ضربة واحدة ، فلا أستطيع أن أسلمه ظهرى ليؤوده بحمله . والسالك يمضى لغايته خفيف العبء . وليس هناك من عبء أثقل من العار . فلا تفدحونى ظالمين بهذا الحمل ، ولا تقصموا هذا الظهر المقوس .

وظل العامريون جالسين ، وامتلات آذانهم بهذا الرفض ؛ ثم فضوا أخيراً خاتم الصمت ، وأخذوا من جديد فى تنميق الكلام . وقالوا . حتام الحديث عن العار ؟ وإلام هذا الافتخار الذى لا مكان له ؟ فقيس ذو خلق كريم لم يتجاوز نطاقه ، ولم يتعد حدود الفضيلة . وحنار أن تعد الحب الذى أصيب به من عيوبه . وليس من مجال للقليل والقال فى عشقه ، إذ العشق دليل على طهارة طينته ؛ فأنى لقلب لم تتطهر سريره من الشهوات أن يحترق بنار العشق ؟ وليس من عار فى نقاء السريرة ، ولا منه غبار على حيا الفخار ،

وقد قلت: إن ليلى بما يحاك حولها من قصص قد جُمِلت بالعار بين بنى عصرها، وأى مجال للعار وقد أضحت من عشقها طيبة السمعة ذائعة الصيت؟ وإنما دليل عفتها وجمالها وجَدُّه بها وحاله معها. فلو كانت المعشوقة غير جميلة لم يقع المعشوق في طريقها ذليلا. وإذا كان الجميل ولم يكن طاهر الجيب، كان في وصاله مظنة عيب، فسرعان ما تنطفئ نار حبه ويموت عشقه من قلب الهائم به؛ وهذا هو مجال الاختيار، فأخبرنا عن العشق ماذا فيه من عار؟ فمهما قال قيس في ليلى فهو شاهد على جمالها. ومهما كثر عدد الدلائل فلن يتجاوزوا مجال القول. ودلال الجبال ذو قلب، فلا عيب في دخيلته ولا عار عليه. وإنما يظل في المقام المعوج ذلك المعوج المسلك الخبيث الطبع، المريض الدخيلة.

وحينما سمع والد ليلى هذه العبارات الصائبة، كان كالجاهل الذى تؤلمه الحقيقة، وانسد عليه طريق الجواب، فأطلق لسانه العنان بالخلف، وقال: قسما بالله الذى لا يخلو منه مكان، ليس له مكان والعالم به معمور الجوانب. وليس العالم منه خاليا، إذ هو ملء الأرواح. وكل ذرة — وإن لم تكن فارغة منه — فليس لها به علم؛ قسما بالمرسلين من الأنبياء، وهم الصف الأول من ثابتي الأقدام، من مارسوا الحكمة ولقنوها، وهم النافذون البصيرة، مؤسسوا بناء المعارف، ومخطموا قوى أهل السوء، ومن ينهض بهم كسيرو الجناح، وتخطم بهم شوكة أهل السوء؛ وأقسم كذلك بأبناء السكينة مسكننا، الذين يطلقون من جعبة الكعبة سهام نظراتهم، فإذا اكل سهم ألف فراسة خرجت في مصيدها عما ألف من التدبير، إذ هم جميعا من صيد الحرم، وتقصر مع ذلك دونهم السنة الأفكار؛ إن طلبتم بجهودكم شعرة واحدة من ليلى لقيس، وأعطيتهموني ثمنا لها العالمين، فلن تمودوا

(م ٦ — ليلى والحنون)

في هذا الأمر بغير الخيبة والفشل ، ولشجرة منها خير من ألف مجنون . فليدم له جوده ببعده منها . وبحسب المجنون الذي يطلب مني الإنصاف ، طالبا ليلى مراداً له ، أن يسلم الروح ، وأن يبلغ غايته بموته من فراقها . فلا تعيدوا على هذا الكلام ، ولا تبجشوا عن تحقيق أمليكم في هذا الشأن .

وحين سمعوا منه هذا الجواب ، بسطوا ألسنتهم بما لا طائل تحته من العتاب ، ورجعوا إلى منزلهم يائسين ، وأرسلوا إلى قيس صديقه الوفي ، وأفخروا إليه بكل ما جرى ، وأسروا إليه بما تفتح من ورد أقوالهم ، ففقد كل أمل في الوصال ، وفقد قلبه والراحة . القرار ، وأسأل دماء الدموع ، ورقدي وحل دموعه ، مردداً هذا القول من صدر مليء بالحسرات :

ليلى الروح وأنا لها جسم ، فيارب بروحها المشرقة لإقضيت على من قضى علينا بالفراق ؛ ألا فليكن له الموت في كل نفس من أنفاسه ، ولا تزدهر له حياة ؛ وهذا الإنسان الذي فطر قلبي ، وردني نائماً عن ديار حبيبي ، لتفطر -- مثل قلبي -- روحه ، وليضل به السبيل في كل البلاد . وهذا المرء المتمتر الطبع الذي قذفني من بعيد بحجر الفراق ، لتزق أعقاب قدميه على الأحجار ، وليلتهم رأسه نمر . فقد رمى على قلبي ما يشبه الخاتم المستدير ، فضاقت به على أرحاء العالم الفسح ، وهو الذي تركني من الدهر في هضيق هذا الدور ، فأصبحت كحجر في فص خاتم الجـور . ألا فلتنزع أطافره من الأصابع ، واتقصر يده عن حك ظهره الأجر (١) .

(١) قارن هذه المعاني بما روى للمجنون من شعر يدعو به على والد ليلى ومنه :

ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يرضى	شقيت ولا نهيت من عيشك الخفضا
شقيت كما أشقيتني وتركنتني	أهيم مع المهلاك لا أطعم الغمضا
كان فؤادي في محال طائر	إذا ذكرت ليلى يشدها قبضا
كأن فجأج الأرض حلقة خاتم	على ، فما تردد طولاً ولا عرضاً

انظر شرح ديوان المجنون لمحمد كامل فريد ص ١٢٩ — ١٣٠ والأغاني ج ٢ ص ٩٢ — ٩٣

(٢٤)

نوفل يعد قيساً بتزويجه من ليلي

جامع لطائف هذه الصحائف قد استخرج هذه النافذة من معدنها من
فراء الظبية فقال :

ظل المجنون نائماً عن ليلي، غريق الأنظار في دم الدموع، وتبدلت حمالة
من اليأس من مطالعة جمالها سيرة أخرى . فشد رحله بعيداً من الحى، ونفض
عن أردانه غبار موطنه . وصار مثل غزال الصحراء ، وحمل الوادى ،
يضرب فى صخر جبل اليأس ، صبوراً على كل أذى ، نفوراً من كل من
يرى من الناس . ولم يكده يبقى له فوق بساط الغبراء غير الأتس بظباء الصحراء .
وفى الليالى حين كان يذوق طيف السكرى ، كان يلتحف ستار الظلام ،
ويجعل من عجيذة حمر الوحش وسادته ، ومن جلود الغزلان الجافة سريره .
وكان ينهض كل صباح من نومه فيملا الأرض دموعاً ، ويرتوى من دموعه
التي تفيض من كبوس عيذه فى لون الورد ، وندماؤه فى مجلس شرابه الغزلان .
وذات يوم كان عارى الجسم كالقلم نحافة ، قد اتخذ من الرمال صفحة
يخط عليها بإصبعه : ليلي ليلي .. وفى ذاكرته ذوايتها كلالهين فى لون المسك ،
وهو ينظر بعينه لاميها حين يكتب اسمها ، وينثر فى عزلته من دم قلبه
دموعاً سائلة من جفونه تشبه النقط ، ينثرها على الرمل ليكمل بها كتابة
الاسم ^(١) . وبعد أن يكتب اسمها على الرمال ، ويخلطه برشح دم كبده

(١) يتخيل الشاعر أن قيساً حين كان يكتب اسم ليلي كان يرسم فى الوقت نفسه ذوايب
شعرها المتتوية كأنها اللامات ثم يضع نقط الاسم من دم دموعه ؛ وفى الاغانى أن المجنون كثيراً
ما كان يرى يخط بيده على الرمال : الاغانى ج ٢ ص ١٧٠١٦ .

المقروحة ، يمحوه بمسيل من أهدايه ، ويجن جنونه مما يعتلج بقلبه من آلام ،
ثم يأخذ من جديد في كتابة هذا الاسم الجميل ، ويطيب خاطرا بنصيبه من
ذلك . هكذا كان يحيا ، وهكذا كان يقضى أيامه .

وجأأة انجلى غبار الطريق عن جمع أقبلوا يشدون الراحة على مقربة
منه ، واستولوا على مرتفع تمتطون صهوات ركائهم ؛ مهنتهم الصيد في
الجال والوديان ، من بينهم من اسمه نوفل^(١) ، كالشمس وحيد دهره ،
يده في الجود كالبحر ، حلال العقد بدين كرمه ؛ كالشمس في النهار ينثر
الذهب نهارا ، وكانلك يفيض بالجواهر صبحا . وهو في النظم على النجم
كالثرى ، وفي السجع لطيف الطبع مهيأ . خير بمجالس الانس مع اللواتي ريق
شفاهن خمر ، لطيف المحضر مع ذوى القلوب المسكوبة ضيقا . في ميدان
الوغي ليث ، وفي حسم أمور الملك سيف . مرفوع الرأس بتساج الملك ،
سخر بكنز نواله .

وهبط نوفل من فوق جواد كريم ، كما تنفصل عن الغصن الثمرة ،
واستوى قائما أمام المجنون ، وفتح معه أبواب الحديث . وقرأ الاسم الذى
كان المجنون يكتبه ويتلوه ، فكشف عن مكنون سره ، وعلم أنه اسم عشيقته
ذات الدلال . وعندما رأى ما هو عليه من حداد وأسى ، وأبصر دموعه
وآهانه ، أدركته الرحمة بحاله ، فبكى إشفاقا ، وقال : أيها الجالس على عرش
ملك الصحراء ، وأيها الكاتب وصفحاته رمال الصحراء : كم تسرف في
استنبات بذور الخيال ! وكم تتبع طريق الهوس حين تخط الاسم على الرمال .
فارجع عن وسوسة هذا الخيال ، واربا بنفسك عن تعذيبها وراء محال .

(١) قارن ما يحكيه الشاعر عن توسط نوفل في أمر قيس بما ورد في الأغاني طبعه

إذ لا ينجح على الخيال أمر ، وما عن طريقه يأتيك معانقا الحبيب . وإن يسهى إليك طبعاً أملاك ، بتلك الكلمة التي تخطها بأصبعك ؛ وهذه الرمال التي تصبغها بالدم لن تستخرج منها جوهرة بل حجرا . فالبث معي قليلا ، واصحبني لتسكون رفيقي وجليسي في منزلي . ودع عنك ما أنت عليه من عرى ، والبس حلة رجل كريم . ولم يطب لك بعد طعام ولا نوم ، فقم واطعم مثل الآخرين ، ليعود لك مأوك ورونقك ، وتستقيم قناتك بعد تقوس ، فتصير أهلا لوصال ذلك البدر ، ولانقا لصحبة طلبة الفؤاد . وكأنك الآن أخ الجنة ، لا طعام ولا نوم ، فكيف اجعل منك قرينا لإحدى الحور ؟ .
 يمينا بمن هو دائما قسم العقلاء ، إذا استمعت لقولى فأنا عند كلمتي لك ، وسأبذل في الأمر جهدي ما استطعت ، حتى يطيب ريقك بذلك الشهد ، فأجعل من ساعديك حائل لهذه الحسنة .

وإذا صعب أمر كان المسعى إليه إما بالبسكاه توسلا ، وإما بالذهب ، وإما بالقوة^(١) . ولا يليق التوسل بالبسكاه من ذوى الكرامة ، فهو غير جميل بمثلك . ومهما أنفق من ذهب نسأبذله حتى أسعدك حالا . وإذا لم يستقم الأمر بالذهب فلا عليك ، إذ هذا مجال قوى السواعد . وسأحل العقدة التي تقف في طريقك بطرف السنان ، فإذا كلت رموس السنان برتها بجحد السيف .

وسمع المجنون من كلام نوفل حديث السحر فرقى به من خيالات الجنون ، وآب إلى طريق الرشد ، وحمد مسلك العقل . وأضحى مع الآخرين رفيق

(١) في الأصل جناس في الألفاظ لا يمكن ترجمته بين الكلمات الثلاثة : زار (انتعاب)

وزر (ذهب) وزور (قوة) وإليك بيت الشعر الفارسي :

كاري كه زساختن بود دور سازند بزاري وزر وزور

نوفل في الطريق ، حتى وصل مخيمه ، فغسل جسمه ، وحلق شعره ، وارتدى حلة ، وتعطر . فكان شديداً يلبت السوسن ينفخ الطيب ، قد نفص عنه الغبار . ولما وضع عمامته كما يفعل العرب ، تبدى كخصن متوح بزهرة السوسن . وكان نوفل يرتجل معه الشعر ، يحثان الخطى في سرور . وكلما وجد نوفل تعة ، ردد أحياناً بأغنية جديدة ؛ ثملاً بالضرب في عرض الصحراء . وقد بالغ في إرضاء قيس ، فكان حيناً يساجله الغزل والسيب ، وحيناً يتحدث معه عن الحبيب . وما إن مر بعض الوقت على هذا النسق حتى صار المجنون أكثر رونقاً من سالف عهده ، فعاد لقدسه رواؤه ، وصار يضرب كورق الورد المونق . وكان في لحيته القصيرة ومنطقه الفصيح ينثر عذب القول في مجالس نوفل . تتألق وجنتاه في اختيال الطاووس ، تغار منهما شقائق الربيع . وقد بدا المجنون في لطف ممالك ، قد أضاع جسمه شعاع الروح . وصار قيس المجنون بعد أن فارق الاضطراب رأسه متزناً رصيناً . وموجز القول أنه أصبح في حالة هوبها أهل الليل . وصار كما تشتهي ليلي ، بحيث تعزف عن الخمر بخمر حبه . وأبصر نوفل هذا التطور ، وقاده بحكمته إلى الطريق ، حتى وصل إلى حي ليلي ، وأرسل إلى والدها قولاً فيه طلاوة ؛ فأقبل الوالد للقائه ، وبصحبه أعيان قبيلته ، فاحتفى به نوفل كل الاحتفاء ، وأنزله من نفسه أكرم منزلة . وسنحت له الفرصة للكلام حين جلسوا على الموائد ومُدَّ الخوان . فأفاضوا في مئات القصص بين قديم وحديث . ثم تخلص من ذلك إلى الغرض فقال : إن قيساً الطيب الصحبة منا بمنزلة الابن ، وهو خير من عنهم تتحدث ، وفيه كل الفضائل التي عنها تبحث . وأريد أن توليه شرفاً يسمو به درجة أخرى بين ذوى الفضل . فاشمله بنظرك ، واغمره بعطفك ، ومُدَّ له بسبب إلى أصلك . وانظر ما تريد من مال وذهب ،

فما تشاء منهما قت على قدمي أمامك ، وسببته تحت قدميك . ونكون معا
حلفاء أوداء ، في صفاء قلوب على دين الولاء . وعقب على قوله مرة
تلو أخرى ذلك المر الجواب الحشن الخطاب . وكلما قدم نوفل سببا ، قدم
والد ليلي تعلقة عنه . وحاوره نوفل في إجابته وغلبت حجته ، وكان الآخر
يرد عليه ، ويستدرك على قوله ؛ وعلى صدر نوفل غضبا لفرط ما أبدى
الوالد من تعلات ؛ وضرب نوفل على صدره حادا في قوله كالصمصام ،
وتوعد بلغة السيف قائلا :

أيها الهاذي في قوله ! ادع حادي ناقتك ليعود بك إلى صحرائك ، فإنني
أشفق بسبب خطلك أن تعود راجلا بلا إبل . انهض وليأخذك الوجل على
حالك ، ولتشغل بالك بالخوف على آلك ، إذ سأزحف عاكسكم
يحيش كنوازل الدهر يبيتكم بالسوء ، ليس بالبحر ولكنه بحر في إثارة
الرعب ، أمواجه السيوف والخنابر البتارة . وفي هذا البحر سيغرق نومك
في الدماء من أخص قدمهم حتى مفرق الرأس ، أو فهبني تلك الجوهرة
النقية ، يكن لك على ألف منة ، وترفع رأسي بذلك حتى عنان السماء ،
وسأولم لعرسها كالعيد ، وتأتي لها يوم الزفاف جموع الحور من الغيد ،
تسعى على بساطها تقبلها .

وأجابه والد ليلي : أيها الملك ! اصرف عنانك عن هذا الطريق ، فهما
كنا غير ضارين بالحرب ، فلن نضيق بها ذراعا إلى هذا الحد ، وفي اليوم الذي
تدق فيه طبل الوغى ، وتنفخ في النفير ، سنخوضها مسرعين في الخطي .
فإذا أحرزنا عليك النصر كان ذلك اليوم عيدا محدودا ، وتخلصنا من عذاب
قبضتك ، ونجونا من أهوال عقابك . وإذا واناك الظفر ، ونكس منا
علم النصر ، فسأطلق كالبرق صوب منزلي ، وأشق الصدر من جوهرتي
النقية بضربة سيف ، وأودعها الثرى مضرجة بدمائها ، وأواري جسم هذه

العروس مقرها من القبر ، مكفنة في الدماء ، ومجلوة إلى الضريح ؛ وأعيش في دار الهموم مستريحا من سمعة العروس وعار الصهر ، ولمواراة هذه الحسنة التراب خير من وقوعها في يد ملوث الشمائل . ولإيداع هذه الجوهرية تحت حجر القبر خير من هبوب رائحة الدنس من دنى الخلق .

ولما وعى نوفل ما أفضى به أخيرا من حديث ، أو ما بطرفه إلى قيس أن ألق بسمعك .

وأبان قيس عن خلقه الفاضل ، وأبدى من الشجاعة في المعركة بينهما ، وافترقه عن سحر الحديث فقال : ياذا الحديث السوء ! يا منكر الصوت ! إن الريح التي تهب من تحت أقدام الجهل تشير الغبار في ناظرة العقل . والكلمة التي يخطها غير العالم بها في الكتاب تسود وجه كاتبها . ونوفل لا يتكلم عن جهل ، وإنما يرسل النكتة الحلوة السهلة ، وكل ما يقوله لب لا قشر فيه ، وكل ما يتلفظ به بديع طيب ؛ فلا تطو صحائف حكمه ، ولا تنصفحة القلب عن صائب درسه ؛ فهو فيض نسيم اللطف ، وليس هو بملك مغتر فظ . والحكمة التي تخرج من قلب ملك نور ينعكس من دارة القمر ؛ فنأى عن ذلك النور بقي مطمونا في الديجور . وليلي عذب ما حياقي ، وأنا المحترق الظامئ الروح . فها أقبلت بوجهها على الظامئ إلى ماء وصالها فإن في تراب قدمها قوة لمن أثقلت رءوسهم الآلام . وليلي زردة على شط ينبوع ، وحسبي من الوردة ما تنفح من عطر . ألا فليبق القلب كالبيستانى لتلك الوردة ، يحاذر أن تخرج من حديقته . وليلي في مقام الروح مصباح ، ولي من هذا المصباح حرقة الصدر ، ألا فلتدم لي منه يارب حرقة الآلام .

وعلى نطق اسم ليلي تجهمت وجوه أولئك الذين أعماه الحسد ، فأطلقوا

في وجهه صيحة قائلين : أيها الغر ! عاق لسانك في سقف حلقك عن نطق هذا الاسم ، فسيبيله غير ميسرة لك ، فأى جدوى إذا لك منه ؟ فلتقطع دونه لسانك ، ولا تهذب بالنطق به مرة أخرى . ولاتدنسه بلشره بين الناس ، وإذا لم تمسك عنه بمنطقك لأنك فقدت العقل ، فسنقطع منك اللسان ونفصل بين روحك والجسد .

وانقطع أمل المجنون على سماع هذه الكلمات ، فتوجه باكيا إلى نوفل قائلا : يا مريم الروح ودواء الألم ! اطلب لي من هؤلاء العنيدين أن يتركوا ديدنهم في حملتهم على ريشما يضع الطائر منقاره في ماء النهر مرة أخرى ، فليفتحوا لي باب الرحمة كي أرى محيا ذلك الحبيب ، وأنظر إليه مرة من بعيد ويكون لي بما يعلق بخيبي إلى من تلك النظرة ذخيرتي طوال العمر في ليالي الحالكة ، وأيامي السود .

فقالوا له : دع هذا الخيال ، ولا تتعلق بأسباب المحال ، وإن رؤيتك إياها ، أيها المخبول ، اسكلماء لمن أصيب بالكلب . فانهض واصرف نفسك عن هذا المطلب ، ودع من رؤيته رهينة بموتك . وإذا ظلمت على حياتك قرين الأسي فمت فراقا في مقام أساك .

فلم يصل المجنون إلى غايته بعون الصديق . ولم يبلغ أمله مدى حياته . وحينذاك ، قال لنوفل : أيها الجائر والذي وعده سراب كله . قد قلت لي إن آلام تلبي إلى ذهاب ، قلت ولم تف بما قلت ، ولكن لا عليك ، فهذا خطئي ، إذ هذا النور يفيض على من هو غير أعمى . قد رفع نحسى علما ، وانتكس علم سعدك . وأين أنا من قصص أرباب العشق ؟ وخير لي — إذ لم تنجح حيلتك — حياة الخبل والجنون .

وما إن نطق بهذه الكلمات حتى نهض من مكانه ، راقصا على توقيع

كلامه ، ورمى بعمامته كالزهرة ، كما يرمى الغصن بأوراقه في الخريف ،
فاقد الأمل ، تعتلج بالآلم دخيلة قلبه ، يضرب رأسه بقبضة يده ، كأنه شجرة
ساج ، يشير بكاء الخلق وهو يحشو على رأسه التراب . والناس من حوله
يضربون بالأحجار الصدور ، يمزق بيده صدره الضائق . وقد استخفه
الطرب فضى هامسا بهذا اللحن :

ليلي على عرش الطرب والدلال ، والمجنون أسير أسى الأشواق . ليللي
عنانها بيد الأبعاد ، وقيس جلساؤه حر الوحش . ليللي مع هذا وذاك طليقة
الحيا ، والمجنون يعدو في الصحراء مع الظباء . ليللي مطمئنة الدارين قومها ،
والمجنون في شعاب الجبال مع الغزلان . ليللي تشنف أذنانها بالألحان ،
والمجنون لا يصغي إلا لصفير الأفاعي والنسور . ليللي قر دارة قصرها ،
والمجنون سجين كهوف الأسى . حقا لكل امرئ شأن ، ولكل أسد
مرعى ، والخط لا يشتري بدرهم ، وإيوان الجنان لا يجلب انتزاعا . والخير
أن نحيا على سوء العيش وطيبه ، ولكل امرئ ما قسم له . وما دام الورد
قد أعوز ، فلنقنع بالشوك ، ولنعش في الأشواق حتى الموت .

(٢٥)

إعصار في الصحراء

مطلق ريمان حريم هذا البستان قد نشر هذ النسيم الطيب الروح ، فقال :
إن ذلك الشبيه بشقائق النعمان ، المكتوى القواد الوهان ، حين آب
من صحبة نوفل وصحبه ، وصار طليقا من كل المجتمعات ، هائما على وجهه
في الجبال والوديان . فأينما كان يلح من بعيد إنسانا كان يهرب منه ، شأن
الظباء وحر الوحش .

وذات يوم زاد به الحال ^(١) والوجد ، وكان في بعض جبال نجد . فامتطى
صخرة على قمة الجبل ، ونظر في كل الجهات ، ف وقعت نظرة منه على ديار
ليلي ، فجرى دمه على الجبل سيلا ، وقد استقر شوقه في دخيلته كالجبل ،
وتحطمت قارورة صبره تحطيا . وكان يتوق إلى رؤية امرئ يقبل من
ديارها ، ليحمل إلى قلبه القرار ، ويشرح له من أهوالها وأحوالها ، ويصف
له ربوعها وأطلالها ، وجفأة انجلي غبار الطريق عن سواد رأى فيه عمود
إعصار ، وقد حمل من تراب أرض الحبيب ، فانعقد على وجهه من ذلك
الغبار نقاب ، وخر ساجدا على الأرض ، وانطلق لسانه بهذا القول مرحبا
بمقدمه : أي هذا الذي تدور على نفسك في رقصة الصوفي ، تقطع طريقك
في غير عسر ، تجوب السهول والوديان ، لا تقر لحظتين في مكان . سواء

(١) الحال ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل كحزن أو خوف ، وللوجد معان
كثيرة عند الصوفية منها أنه لب متأجج من نار الحب ينبعث منه لطلب الفضائل الخلقية والكمالات
الإنسية : انظر الكمشخانوى : جامع الأصول ص ٨٥ ، ٢٠٨ .

أمام أقدامك الهضاب والسهول ، تنطلق فيها سهل المسير ، وتلتوى على نفسك كالتنين ولست بتنين ، ورأسك في السماء كالتنين ؛ تجول في الهواء جولانا . قائم كمنحلة تتطاوّل على القصور ، ولا يرى لك من فروع ولا جذور. ولو كنت قد نبتت في بستان ، لدنا جنك وانتثرت منك الأوراق . ومحال أن يكون طريقك بدون غبار أو يقر لك في مكان قرار . تماق الأشجار منك صرعى ، ترمى بها من عل بينما ترفع العثير والأشواك . تتلوى كالمدخان ، وأى دخان ! هودخان من سواد وزرقة . أجيدت نقوش مبنائك وسقفك ، كأنك عمود في قصر إرم . تبدو الدنيا بك سفينة أنت لها شراع ، أو كأنك صاريها ذو الشراع الدائم الدوران ، تقلب على ذلك المسكن سافله ، وتدمر مئات الألوف من البيادر .

قلبي اليوم جدلان ، وصدرى منشرح بمقدمك خير مقدم . قد اتجه بك دليلك صوبى ، فروحى فدى لتراب أقدامك . مررت بى كرما ، ورددت إلى ما عذب عنى من سكينه . قد تزود رحلك من ديار الحبيب ، ولذا أشم منك طيب المسك التتارى . ومن ذلك التراب عطر محملك ، كالمسك القطيف من جلود الغزلان . فصُبَّ على مفترقى من غبار أعتاب الحبيب ، وضع منه كحلا لعينى الرطبتين بالدموع . ينفج بالمسك ما تحمل من أشواك وعثير ، فهى ريحان رطب وعود نديّ جاف . وبذلك العود تتقد عالينا نارى ، ويستروح قلبى منها الرقية . أفض إلى بكل مالدك . وقللى من أخبار ذلك العالم الذى منه بحمت . وكيف حال قلبها بدونى ؟ أما أنا فقلبي بدونها يدمى حزنا ، ولم يعتر النسيان ذكراها ، ولم أفتر عن ترديد اسمها . مع أنى لم أمر قط بياها ، ولم يتحرك بحديثى لسانها . وهيات ! أى مكان لهذا السؤال ، إنى متعلق من هوسى بمحال . وكيف يتوجع ذو عرش من أجل سائل ؟ وكيف

يلقى القمر بالا إلى السها ؟ خبرني من الذى يرافق فى الليل كلابها ، فيمرغ رأسه على أعتابها ؟ — وبينما هى تردد على فراشها طيب الألمان ، أظل على سرير الهموم أتوسد الأحجار ، وهى تسلم جنبها إلى لين المضجع ، وأنا طريح الغبراء ، ذليل الوجه على الثرى — وينباج الصبح فتغسل وجهها كالشقائق بماء الورد ؛ فمن هو أول ساع إليها ؟ ومن الذى يفتح ناظريه على رؤية حياها ؟ ومن الذى أخذ مكانى على دمنها با كيا على الظلل ؟ ومن الذى يدور من بعيد حول تخيمها ليظفر برؤيتها ؟ ومن ذا يتمتع مسرورا بدلاها ؟ ومن ذا يبكي بين المتوطين فى عشقتها ؟ ومن الذى يسرع إلى التقاط شهد الحديث حين تنثره من شفاهها ؟ ومن الذى تلفحه أحيانا نار الشوق من بعادها ؟ ومن الذى يحث خطاه فى طريق الطلب ؟ ومن الذى يضع فى ركاب الجهد قدمه نهارا ؟ ومن الذى يبقى من مسيل جفونه من أجلها فى وحل ؟ ومن يمضى أمسياته بدارها ؟ ومن الذى يقيم دون أقدامها ؟ أمجولة على كل الوجوه محجوبة عنى !! قرية من القوم وأنامها ناء !! وأنت ربح خفيف المسير وأنا التراب ، وأنت صر صر وأنا العشب الجاف ؛ فحين تأخذ طريقك إليها ، احملى بيد لطفك إلى منزلها مع ما تحمل من غبار ، وارفعنى كالعشب الجاف إلى رأس طريقها ، لأرى مرة أخرى جميل حياها . وإن لم أكن لذلك أهلا ، فدعنى غريباً مريضاً ، ولكن اشرح لها سقامى ، وردد على سمعها ما ترى من آهاتى ، إذ أمل روحي أن ترى هى ما أنثر من دموع الدم .

ولا يقع فى ظنك أنى منذ نأيتُ عنك كنتُ صبوراً فقد تمزق إربا قلبى ، ولكن ماذا أفعل وما الحيلة ؟ ! وكل جسم بعيد من روحه مُمكتو بحرقة الفراق ، وليست وحدته عن صبر ، وبوده ألا يفترق من روحه ،

لكن ماذا يفعل ، وماذا يستطيع ؟ ! قد تعلمت كل حيلة ، ولكن لم أفد
لا من صالح ولا من حرب . وحين لا يسهف القدر ، لا جدوى من جهد
شباب ولا من حكمة شيخ . فأنا من الآن نهب لواعج الأسى ، أسقط إعياء
في المساء فاقد القوى ، وأقوم بالأسحار بين الموت والحياة . وأعلم أنك مثلى
تعانين ، وأن كل حيلة فى أمرى خارجة عن طوقك . ولكن لى عليك
إذا بلغ أجلى منتهاء ، على قدم جبل أو جانب من غار ، أن تذكرينى
بعد مماتى .

هكذا أعرب عن آلامه . وحين طوى كوكب النهار أظناب خيمته
الذهبية ، وضربت القبة السماوية سرادقها الاسود كخيمة أعرابى ، وضع المسكين
رأسه على حجر ، وامتد على سرير من الحسك ، فاقد الشعور ، لم تهناً عينه
بنوم طوال الليل ، ولكنه بقي فاقد الوعي ؛ وهكذا كان ينام (١)

(١) يقع أحياناً فى كلام المجنون تكرار لنفس المعانى ، وأحياناً ما يوقع فى اعتقاد التناقض
فى خواطره ، ولعل المؤلف يقصد بذلك إلى تصويره بصورة من اختلطت خواطره لاختلاط
فكره ، وقد نقلنا النص على ما هو عليه كما تقضى أمانة الترجمة . هذا والمجنون فى نومه لا يشد
الراحة ، ولكنه مشغول بما يعانى من وجد . والفرق بين نومه ويقظته أنه فى نومه يفقد الشعور
والوعى بما حوله ، ولكن وعيه الداخلى يظل غير مفقود ، قارن هذا بما يحكيه الجاني عن نوم
بعض الصوفية الذين بلغوا فى قربهم من الله درجة قصر عنها سواهم : انظر الجاني : تفحات
الأنس مخطوطة فارسية بجامعة القاهرة ورقة ٢٠٤ .

(٢٦)

الظبية^(١)

عندما كسا الصبحُ وجه الأرض من خيوط الغزاة^(٢) غلالة من الذهب
ونفض عن الفلك ينبوع قار الدُّجَنَّة ، فاسترملت من قرن الشمس قطرات
النور حلوة وضاءة ؛ حينذاك فتح المجنون ناظريه من غيبوبة نومه على ما به
من بلاء ، وخف نسيطا من فوق الأشواك والأحجار ، حتى لكانه شرارة
انبجست من الصخر . وهبط من الجبل إلى السهل ، ثم أخذ يدور في السهل
كإل عصار ، ينظر إلى قطعان الحية—وان ، مرسل من صدره توجعات
الآسيان ، وكان يحسد الطير والوحش^(٣) ، وترسل عيناه الدموع قائلا في
نفسه : لكل مفارق خلاص من فرقته ، أما أنا فأسير لا خلاص لي . ولسلك
حتى رفيق هو أنيس وحدته ، فهو على قرار في طعامه ونومه ما عداي ،
فأنا بم عزل من الأليف ، ضال في وادي الفراق ، لا طعام لي ولا نوم .
وإن الجبل لينوء بما أحمل من عبء . وبينما ينقل على هذا التخيل الخطو ،
إذ به يرى من بعيد شبكة نصبت حيث يسرح الغزلان ، وقد وقع في ربقها
غزاة . وأصلت الصياد السفاك على رأسها مميها حادا ذا بريق كبريق
عيليه . والغزاة ترتعد جزعا أن يسرع الصياد بفصل رأسها عن الجسد .

(١) في أخبار المجنون أنه كثيراً ما كان يفدى الأطباء حين تقع في أشراك الصيد ، راجع
مثلا الأغاني طبعة دار الكتب المصرية ص ٧٣ — ٧٤ ، ٨١ — ٨٢

(٢) الغزاة : الشمس وهي نفس الكلمة في النص الفارسي .

(٣) المعنى هنا مأخوذة من قول أبي صخر الهذلي :

لقد تركني أحسد الوحوش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذعر

(ديوان الحماسة طبعة القاهرة ١٣٢٥هـ ج ٢ ص ٦١) .

فأطلق المجنون على رؤيتها صيحة ، ليأخذ الطريق على القائل حتى يصل إليه . ثم أخذ بيده وأهاب به قائلاً . الانصاف والعدالة من جورك ، فأتق الله إن كنت ترجوا منه خلافاً ، وكف يدك عنها ابتغاء مرضاته . واحملها بيد اللطف ، وأبعد سيفك عن عنقها وقيدك من ساقها . فساقها قلم خير زانى يمشق رأسه حين تعدو ، وهي تخط على صفحة الأرض بأربعة أقلام . وما من شك في أن هناك سبعة أقلام ، وقليل ما بين الأربعة والسبعة . فلا تكسر هذه الأقلام بقيد الإسار ، فإنه لا يجوز عمدا تحطيم الأقلام . ولا يليق بحال أن يسام مثل هذا العنق مقوود العسف . فهذا ظلم لدى العقول البتيرة ، فاجعل من قولي حليلة لجيد المعرفة . وأصرف عنانك عن هذه المظلمة وخلص عنقك من ربة العهدة . وانظر إليها إن كنت ذا عينين ، وتأملها من رأسها إلى القدم . فمن الجور أن يطفأ النور من عيניה اللتين غنيتا بالكحل الإلهي عن كل المارود ، فتحرما ذلك النور . أترى ذلك الجيد الحال على عطلة ، الذي لم يمسه سهم صائد ، أليس أهلاً لقلائد الذهب ؟ ! فياذا القلب الفولاذي ! أى مكان فيه للسيف ! وهذا الصدر النقي كصفحة من الفضة شبيهة قلبي ليس أهلاً أن ينفطر ! وإن صدرها لظاهر الطوية من ضغائن الناس ، فأى ضغينة لها في صدرك ؟ ! نخذ مكانك إلى جانبها في لطف ، وحررها من يد عسفك . والخنجر قلم في قبضتك ، فلا تسكتب به على لوح الظهر ولا تحمد القيد لمثل هذا الأسير ، وأتركه مترقياً به حراً من القيد . ألا ترى جيدها وظهرها ؟ آيتان من آيات الجمال والدلال ! فانزع أسنان الطمع من عجيرتها . فمن مديده حول الفخذ استهدف أن يأتي بأمر (١) . وكيف تكون الحال إذا تمزق فراؤه الذي ينفح — مثل نأجته — المسك ؟ ولأن تطعم معدتك الجشعة التراب خير من أن تغذيها بقطعة من ذاك اللحم . .

(١) أى أن من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه .

ومما غرر المجنون من أقواله للصياد شبكةً ليصيده بها ، فوقع الصياد في
قيده كما كان الصيد أسيراً له من قبل . وذاب شمع قلبه رقة ، فرمى بسيفه
من يده . لكنه ظل يفكر في هم عياله ، ولا زالت الظبية أسيرة قيده . ولم يكن
على جسم المجنون حلة ، ولا على رأسه عمامة ، فتحير مفكراً فيما يمنحه
الصياد . خفف إلى قطع أبيه ، وأخذ منه شاة لم يمسه من الذئب سوء ،
ثقيلة العجز ، ذات النسب جميلة المظهر ، قد اكتنزت شحماً من رأسها حتى القدم .
وأحضرها ، وأعطاه الصياد . وبسط عذره له قائلاً : إن هذا الصيد الذي
هممت به شبيه ليلى جيداً وعيناً . وإن أقومته أو أساوم فيه ، فكل شعرة
منه تقدر بشاة . فلا يقع في ظنك أن هذا ثمن له . وإنما حملته لك فداء .
فامنحنى رسن الظبية ، إذ هي في يدي خير حالا ، لأدين لها بالخضوع مكان
ليلى ، وأطلقها فداءً لليلي .

وحين تسلم المجنون قيادها قبلاًها مائة قبلة في عينها النجلاوين . وحلَّ
عن عنقها رسن الصوف ، وطوق جيدها من ساعديه بطوق من ذهب ،
وكتل بتراب أقدامها عينييه ، وغسل وجنتيها بدموعه ، قائلاً : يا من جيدك
كجيد الحبيب ، وعيناك عيناها ، غنيتان بألوان الفن . لو أن ساقك ،
يا ذات الساق الدقيق ، كان من ذهب ، ومثلنا كساقها ، لقلتُ بلسان الصدق
مؤكداً : إنك أنت هي وهي أنت . مادام حبيبي ينعم بالسلام ، فظلي طليقة
من سيف الخوف ، وارسمي حول ديار الحبيب ، واقطني السوسن ،
واطعمي الخزامى . وعندما ترعين الخزامى حول ديارها ، رددي مثلي الدعاء
لها : ليدم ذلك المحيا ندياً كالخزامى ، ولتدم ذائمة صيتها بالحياه والعفة .
وعندما ترعين السوسن في المروج القريية منها فليدركك الشجن لذكرى
طيب غداً ترها تنفخ مسكاً ، وترددي : ألا لا يرَ إنسانٌ تلك السوسنة

النديّة اولا يقطف امرؤ من بستانها غصنا !

وانطلقت الظبية، وجد على أثرها كأنه أحد أطلائها^(١)، وتابعها حتى ديار الحبيب، وأخذ مكانه هناك دون صخرة من الصخور، وانصرفت الغزالة ترعى في المروج. فكان ذلك يئن من فراق الحبيب، وهذا يطوف في المروج حول ديار الحبيب، حتى غابت الشمس، وأقبل القمر؛ ثم أغار الليل بدجئته، فلم يعد يرى أحدهما الآخر، واستلقى كلاهما على العراء يمشد الراحة.

(١) الطلاء بفتح الطاء : ولد الظبية جمعه أطلاء

(٢٧)

لقاء مع راعي ليلي

حين انبلج الصبح ، وبدت الشمس وكأَنَّها أمل من لا أمل لهم ، تنثر
عن لبريقها خيوط الذهب ، وتصيب من حُققها جواهر الضوء . دار المنجنون
— وقلبه نهبٌ لآلف يأس — في الجبال والوديان ، يردد اسم ليلي ، رفيقه
في طريقه دموعه وآهاته . وأينما رأى أثر مسافر طار إليه من بعيد كالريح ،
وخفَّ إليه كالمسيم الصبا ، جاعلا من غبار قدمه كحلا لناظريه ، يستنخره
عن أحوال ليلي ، وملء قلبه نار ليلي . وجأة أقبل قطع من الطريق على
رأسه راع مرح ، محدثٌ في مجالي الطرب ، عليه عباءة صوف سوداء ،
شبيهة موسى في كفه عصاه في عين الذئب ثعبان ^(١) ممين . فألقى تيس بنفسه
دونه ، كأنه ظل وقع دون قدميه ، وقال له : يا من قلبي وروحي فداك ، ضوءُ
بصرى فداءُ لغبار أقدامك إلى لأجد منك ريح الصداقة ، فن أنت ؟ ومن
أين أنت آت ؟ وأى أثر يحمل هذا القطيع الحسن المنظر من معز وضأن
الذي حفَّ بك من أمام ومن خلف ؟ ومن منزل من قد آتى ؟ فإني
أشم منه ريح المسك والعتبر . ولمن ذلك المراح الذي فيه يبيت ؟

فقال الراعي : أنا راعي ليلي ، وقد ربيت على موائد ليلي ، ومن هذا
القطيع خوان جودها ، وهو ثروتها النامية . وتلك السمات برءوس
القطيع وآذانه من صنع يدها ؛ وهو يأوى في الليل إلى مسكنها ، فذلك
الطيب هو من عطر أذيالها . فأينما خطرت في غداثرها المتهدلة ، وجرت

(١) في الأصل أثردها وهو الثنين .

أذيال الدلال ، فإنها تنشر على أثرها رائحة المسك ، ويفيض من طيب روحها ريح العنبر .

وسمع المجنون وصف حبيبته ، فتمرغ في وحل دم دموعه ، ووقع على الأرض فاقد الوعي ، فلم تسعد ترى عيناه ، ولم يستطع لسانه كلاماً ، وبقي على الأرض طويلاً فاقد الرشد ، وظل على حاله ردحا من الزمن ، وأخيراً عاد إلى رشده ، فأقبل على الراعى باكياً يقول : أيها الأمين الملدلُّ بدار الحبيبة ، ويامن تيمت كلباً حارساً على عتبة دارها ، ماذا لديك اليوم من أخبارها ؟ نبئتني في صدق عن كل ما عندك من أحوالها . إن صدرى مليء بالغم حتى الشفاه ، فبالله إلا جادت على شفاهك .

فأجاب الراعى : في الحى فرصة طيبة لك الآن ، فلميس حول خيمتها لإنسان ، وهى وحدها فيها كالللال في دارته . وقد شد رجال القبيلة رحالهم وخرجوا من عرصة الحى ، يتصيدون غفلات بعض القوافل ، فهم لهم منذ الغدوة كامنون ، ليغيروا عليهم دون أن يأخذوا حذرهم في الحراسة

وسمع المجنون هذه البشارة ، فاشتد به القلق ، وشن عليه صبره الضائع غارة ، وقال للراعى : أيها الراعى الحميد الخلق ، من على بلطحك ، استجب لرجائى ، وامنحنى هذه العبادة القديمة ، يكن لك على ألف منة ، فهى سوداء ، وهى أليق بى ، أنا المحروم من حبيبى القديم ، فأعطينا عتلى أدق بها خفية طبول الطرب ، على الرغم من أنه لا يقع في حيز الإمكان إخفاء طبل تحت عبادة .

قال هذا القول وارتنى العبادة ، ومضى في طريقه يحبش بالشوق ، وغشى الحى في طلب ليلي : مرددا في نفسه صيحات الوجد . وكلما تقدم

خطوة في الطريق كان يغيب قليلا عن وعيه . فلما وقعت عيناه على منزلها
تقوَّض كيانه من أمسه ، وأطلق من قلبه الماكروب صيحة ، ثم خر على
الأرض كأنه الظل . وسمعت ليلى صيحته فعرفته ، وخرجت إليه ؛ وبصر
بها المجنون مقبلة من باب خيمتها ، فخرج من نطاق عقله . وعلى رأسه جلست
تصوب إليه من عيونها قاتل النظرات ، وترسل من نرجس ناظريها سهام
الفتنة . وصبت على حياه من ماء الدموع ، وليس بماء ولا سكرته من الدم .
فأفاق من نومه الثقيل ، وترددت فيه أنفاس الحياة على ماء نرجسها .
وجلس ينظر إليها ويحادثها . وظلا يتناجيان ويشرحان هموم الماضي ،
فاشتكى المجنون إليها من أهوال السفر ، وصاغت ليلى درر الكلام فيما تعانى
من أسى الإقامة ، وقرأ عليها حديث الجبال والوديان ، وثبتت هي بشرح
قصص العزلة واليأس . وكان يصف لها ما يرسل من آهات ، فترسل الدموع
تغسل بها خدودها . وقال لها : بدون حياك أظل كالمختضر ، فأجابته : آلامى
أشد تبسريح . وقال : إن قلبي قد تنائرُ مزقا ، فأجابت : هكذا الدهر
غما الحيلة ؟ ! وقال : قد سئمت العيش وضقت ذرعاً بنفسى . فأجابت :
إن موتى قد أطل حينه صائلا . وقال لها : قد صهر الهجر روحى . فأجابت :
فى الوصال الدواء . وقال لها : أنا بدونك فريسة الجوى . فأجابت : وأنا من
أساك على شرف الهلاك . وقال : قلبي جريح الهموم . فأجابت : جراحى
أشد عمقا . وقال لها : إن أبرح هذا الحى . فقالت : إذن فتخل عن روحك .
وقال : طال اصطلائي بالنار . فأجابت : اتخذ الصبر ديدنا . وقال : روحى
فداؤك من حبيبة . فأجابت : عيونى تمطر الدموع . وقال : ليس من طبعى
الصبر . فقالت : وليس لنا سواه من دواء . وقال لها : ما أطيب النجاة . فقالت :
ما أشد محنة الفراق ! ! وشكا المجنون من ذوى الحقد والضغينة ، فدعت

عليهم بالويل والثبور . وقال لها : قد فطر الاسبى قلبى شطرين ، فأجابته :
وما الاسبى بالقياس إلى كرم الله ؟ .

وعند ما أفرغا كل ما عندهما من قول ، وفضا ما ليهما من أسرار ،
التهم نار الخوف قلب ليلى ، خشية أن يقدم فجأة من الطريق هؤلاء القوم
الذين ضلّوا حظه من العقل والدين ، فيعجلوا بخاتمة هذا الولهان ، شاهرين
عليه سيف الظلم ، حيث لا يسرع لإنجائه أحد . فقالت له : أيها الفرد بين
العاشقين ، وذو المروءة فى وفائك ! أسرع بالانصراف ، فسيف القدر
مصلحت على رأسينا كلينا .

فوقفا معاً للوداع ، وأسالا من جفونهما أنهار الدم ، ثم انصرف
إلى العراء يضرب من جبل إلى جبل ، وبقيت هى فى مكانها كأنها من ثقل
الهم جبل .

نعم هذا ديدن الدهر الغادر ، فأقصر عن طلب الراحة فى هذه الدار ؛
فقد تعانى فيها قرناً من البلاء والكروب ، لىكى تجلس لحظة كالمستريح ،
ولا تكاد تدفىء مكانك بالجلوس ، حتى يتعجلك الدهر فى غير استحياء ،
ويأخذ بيدك مهيماً بك أن أسرع بالانصراف ، ويقرّع قدمك أن "لذ"
بالفرار .

(٢٨)

المجنون وكثيرٌ أمام الخليفة^(١)

كان كثيرٌ مشرق الديباجة في القول بين فصحاء العرب ، وكان في
سماه النظم نجما نيرا ، وكان هائما بعزة التي يحسدوها لجمالها الحور العين ، وتمحو
بجمالها رونق فائنات الصين ، وكان هيامه بها يفوق القياس ، مثل قيس في
هيامه بليلي . ولما تفتحت على نسيمها زهور فصاحت ، قال في هواها ماقال ،
وشعره في طلاوته مدين لذلك الهوى . نعم ، ملح الفصاحة من العشق ،
ونور فلك البلاغة من العشق . فمن حرقة القلب يكتسب القول قوة
وحرارة ، ومن شعلة العشق يضيء الفلك .

وذات يوم دعا الخليفة كثيرا ، وأجلسه على مائدة كرمه ، وقال له :
على مائدتي خذ مكانك اليوم ، وأضئ بنار عزة مجلس القوم ، فرفع كثيرٌ
صوته بلحن لذكري حبيبتة ، وأطلق من عينيه مسيل الدموع . فصير
— من دمه ونظمه — أذباله مليئة بالعقيق ، والمجلس مليئا بالدر . ورأى
الخليفة منه هذا الأسى والالم ، فسأله قائلا : أيها الفتى ، أعلم أنك رأيت
كثيرا من العشاق ، فهل رأيت بينهم لك شبيها ؟ فأجاب كثيرٌ : نعم ،
ذهبت في سابق العهد إلى ديار عزة ، والقلب جريح الأسى ، ف وقعت في طريق
على واد أصابني فيه الخوف ، فضاع من يدي الزمام ، وسرت يومين أو ثلاثة
بلا نوم ولا طعام . ولم أستشف^(٢) فيها ماء ولا خبزا ؛ وإذا بي أمام امرئ ،

(١) ليس لهذا الفصل والفصلين بعده أصل تاريخي في أخبار قيس التي وقفنا عليها ،
ويقوم فيها خيال الشاعر فيها بدور كبير . (٢) حرفيا لم أر من بعيد .

مضطرب الحال ، مقوَّس الظهر كالللال ، ذى كبد دامية من قَرَحها كنافجة
المسك ، يابس جلده على جسمه من الغم ، وقد نصب للصيد شبكة .
فذهبت إليه ، وقرأته السلام ، وخاطبته فى أدب ، سائلا إياه بعض الخبر
والماء . فأجاب : إني بعيد من أهل الحى ، وبى نفور من أهل الحى
موتى القلوب . وليس معى من طعام ولا شراب ، فطعامى العشب ، وشرابى
من السَّرَب^(١) . ولكن اجلس لحظة فرىما فتح لنا باب الرزق ، فيقع فى
شبا كنا صيد ، ويزول عنا هذا العناء . فتمحيت منه ناحية ، وعلقت أنظارى
على طريق الأمل ، وإذا ظبية رشيدة تقع أسيرة قيد الشبكة وحلقاتها ،
ظبية لا تحاكيها رسومُ مصوِّر ، بديعة الشكل جميلة المنظر . فى عيون
تفوق عيون الغزلان ، سوداء بلا كحل ، ثملة بلا قدح . يسكر من يراها
بخمر عينيها ، وتقع ظباء العيون من النساء صيدا لناظريها . ذات قرون
مقتولة من العنبر ، يترامى من بينها شعرها الساحر ، لم ير أحد مثلها غصونا
بلا ورق ، حتى لكانها نبات من المسك . وفى سرتها نافجة جميلة المنظر .
ولها من قرون ناصيتها قوة تنمو ، كل عقدة من عقد قرونها طعمة تجذب
قلب ألف صائد . ليس لها عقد ولا وشاح ، فعنقها ساذج كدورق الخمر .
ذات عين فاتنة يذبجس منها دلال يكاد يقطع عقد وثاقها ، وفراء صدرها وبطنها
فى لون الكافور ، وناجفة سرتها كحجر جَزْة^(٢) إحدى الحور . وعجيزتها
كزهرة اللسرين فى حديقة جسمها ، لم تُبسل بحرقه الشقائق^(٣) . لم يوضع

(١) فى الأصل سراب ومن معانيها بالفارسية الينبوع أو الماء الجارى ، وفى القاموس
العربى السرب بالتحريك الماء السائل ، ولعلها معربة عن الفارسية : سرباب أو سراب .
(٢) الحجزة معقد الإزار ، وهذا المعنى هو المراد هنا من كلمة نيفة فى النص الفارسى
(٣) يكثر فى الأدب الفارسى تعليل حمرة الشقائق بحرقه الفراق أو الحب .

على ظهرها من حمل سرى الغبار ، وقد تربت بين الخضرة والماء ، فى مامن
من يد القصاب . قدمها قلم مارس الخط ، غير أنه لم يحجر رأسه إلا على
صفحات المروج الخضر .

فلما رآها قيس قد وقعت فى شبكته ، خفَّ إليها ، وعانقها معانقة الحبيب ،
وقبل عينيها ، وأخذ ينفذ عنها الغبار ، وأشد مائة بيت فى وصفها ،
وخلص أقدامها من حلقة الشبكة ، وتركها تذهب إلى المرعى . ولكن الظبية
حينما أطلقت من أسارها لم تهرب ، بل ظلت قائمة بين يديه ؛ فأطلق صوته
قائلاً : فى عينيك مائة المشابه من عيني لبنى ، فهو دى ، ولا تحشى شيئاً ، فأنا
صديقك من دون الناس ، وحسبك مثلى صديقاً ؛ وما دام فى العالم لإنسان
كريم فظـلـى وليلى طليقتين من النعم .

وما إن فرغ من قوله ، حتى وقع فى الشبكة صيد آخر يفوق الأول
جمالاً ، فأنهى منه كما انتهى من الأول . ثم وضع يده على صيد ثالث ، فجرى
على نفس القاعدة ، وهكذا سلك أربع مرات أو خمساً ، لم يشعر فيها بجهد .
ولم يبق لى على الجوع من طاقة ، فقلت له : هيا فأطفيء نار الجوع ،
وإلا فلماذا تنصب شباكك للصيد ؟ ! ولم تطلق الصيد بعد الظفر به ؟ !
وأنا ضيفك ، وفى حاجة إلى طعام ، فلماذا تضيقه عبثاً ؟ !

فقال : إياك وهذا الهوس ! وعد — مثلى — إلى العقل والرزانة . لى
أصيده لأنه مثل لىلى ، وعندى لمثلها ميل عظيم . أقبل فى محبتها قدمه ،
وأستعيض عن ناظرها بناظره ، وأحيى به موات الأمل ، ثم أطلقه فداء لها .
وشىء يحمل لى مثل هذا الأمل ، خبرنى : كيف أقوى على ذبحه ؟ وشىء
شبيهه بالحبيب ، كيف تكون لى طاقة بأكله ؟ وإلا فإنى لهذا الصيد أشد

حاجة منك ، فلم أطعم شيئاً من رطب أو يابس إلا أعواد العشب ،
لا شيء آخر .

وبينما يتحدث إذا ظيمة أخرى تقع في شبكته ، فقلت في نفسي : سأسبغه
إليها وأصرعها بخنجرى ، واسكنه سبقنى عدوا وأخذها كما أخذ سابقاتها ،
وطبع مئات القبلات على وجهها وعينيها ، ثم ردها طليقة فداء لليلي . ففقدت
الآمل في أمره ، وبقيت بلا طعام من صيده . ومن هذه المحادثة في ذاك
المكان أيقنت أنه مجنون بنى عامر ، قد تبدلت حاله من جوى ليلى لوفا آخر .

(٢٩)

الروضة

ما كاد الكريم كُشَيْر يغادر مكان الصيد ، حتى رأى غير بعيد روضة جميلة تُذكر برياض الجنة ، قد كست أرضها الخضرة ؛ ذات ورود كثيرة مختلفة الألوان . وكأنها مصحفٌ حروفه من الزمرد ، تقوم فيه الشقائق مقام الخمر (١) . أو كأن أرض تلك الروضة صحائفٌ خُطَّت عليها بماء الزنجار (٢) ألغاتٌ مكررة ، تترأى كأنها بنات العشب أو بنات الربيع ممشوقة القد ؛ وكأن شجرة العَرْف قد اجتمعت برداء أدكن ، فلبست من الخضرة ثياباً محكمة لتتقى الغرق ، وتحمي من سهام السحاب ونبال البرق . وقد أطلت من جيوب الأرض الشقائق كأنها كُثُوس من عقيق ندى . وكأن أزهار العرف أقداح مليئة بالصهباء على حراب من الزمرد ، يداعبها النسيم في دلال ، فتمايل تمايل اللاعبين بالكُثُوس ؛ أو كأنها مشاعل تتوهج ولكن بلا زيت ولا فتيل ، على سيقان دقيقة رخت في الأرض أصولها . والورد فيها معانق للياسمين ، والخبّازي في انسجام مع الممرين ، والبنفسج يميل على خد الفُـلِّ ليقبله ، وقد اشتملت في قلبه نار الحب ، « فبدأ كأنه أوائل النار في أطراف

(١) معرب الشنكرف أو الشنكار وهو نبات لاصق بالأرض في غلط الأصبع أحمر كالدم تصنع به اليد إذا لمسته ، راجع : الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدى شير طبعة بيروت ١٩٠٨

(٢) منه ما هو معدن ومنه ما يستنبط من النحاس بوضعه في دردي الخل ، انظر المرجع السابق .

كبريت (٣) « وكان النرجس ، وقد انتحى جانباً ، عيون تبص هنا وهناك . وكان السوسن السنة تتحدث إلى هذه وتلك من الأزهار . وأطلاء الظباء في لعب ورقص كما يفعل الأطفال ، فتخطف هذه من فم تلك زهرة من الشقائق ، وتنتزع تلك من هذه صيحة ألم . وبدت شفاهها حمراء من رعيها الشقائق ، وحوافرها خضراً من سيرها على العشب . وبجانها سرب كبير من الغزلان مرعاه الزهور والخضرة ، متحرر بسرعة عدوه من سلطان الراعي وحراسة السكب . وحين رأى السيد الرأي كشير هذا السرب من الظباء ، عاد مسرعاً إلى مكان الصيد حيث جلس المجنون ، وقال له : أي هذا الذي هو الصيد ، انهض ودع عنك هوى ذلك المكان ، واجمع منه شباكك وما بها من حب ، وانقل خطوك قليلاً إلى مكان كذا ، وانصب هناك شباكك في طريق الغزلان ، فسترى هناك صيداً يتلو بعضه بعضاً ، فتقيم فيه مستريح الخاطر .

فبكى المجنون وقال : ذاك حمى ليلى ، وحرم ليلى كالكمعة . وهناك أقامت ليلى ، وخطرت مع رفيقاتها المجدودات ، مغردات كالبلبل الثمل ، صاحبات الذبول على العشب والزهر . فكل خضرة نبتت في تلك الأرض قد جررت عليها ذيلها ذات يوم ، وكل حسك فيها قد ترك كالورد أثرأ في أذيالها . واكتسبت الورود عطرها ولونها من ذوائبها وعارضها . وإنما صارت الشقائق قانية لأنها نبتت على دموع حرقتها ، وقد فتح النرجس عيون

(٣) مقتبس من أبيات لابن الروي :

ولا زوردية تزهو بزرقها بين الرياض على حر اليواقيت
كأنها فوق هامات حففن بها أوائل النار في أطراف كبريت
(معاهد التنصيص لعبد الرحمن بن أحمد العباسي ج ٢ ص ٥٦)

تضرعا دون تراب أقدامها ، وبسط السوسن لسانه ليتحدث عن محاسن
 محياها ؛ وعلى البنفسج طابع الذلة لأنه لبس لفرقتها ثياباً زرقاً . وأطلاء
 الظباء النافخة بالمسك صيد لسهام نظراتها ، فتظل أنظارها مصوبة إلى الطريق
 عليها تطالع فجأة محياها ، ومنذ ذلك اليوم الذي خطرت فيه بتملك الأرض ،
 'حُرِّمَ صيدها كالحرَم' ، وكيف أنصب شبكة لغزال يرعى في روضتها ؟
 وكيف يحمل بي صيده ، ومن ضحاياها قلبي ؟ وأينما أكن ينجذب قلبي
 إليه ، فأسير إليه على عيني تدميان بكاء . أطوف حوله طواف الحبيبيج
 وإسمان عيني هام بسيل الدموع . فلا غز لانه مولية عنى خوفاً ، ولا أنا ألوى
 من أعواد نبتة عودا . ولأن أظل صيداً للسهام 'خَيْرٌ' من أن أذعر فيه
 صيداً .

هكذا قال ومر لشأنه ، وانصرف لصيده يردد اسم ليلى ، وفي كل آونة
 كان يتقع صيد جديد من الظباء فيقبله عَوْضاً من ليلى ، ويطلقه لها فداء . وكان
 هذا شأنه من الصباح حتى المساء ، لم يركن قط إلى راحة في هذا الأمر .

(٣٠)

دعوة الخليفة لقيس

الدهقان الذى تعهد براعم هذه الأغصان ، والصناع الذى أبدع هذا التصوير ، هكذا سطر فيما كتب .

أضخى معمر الخربات مشهوراً بحديث العشق ، مهجوراً بمن شهروا بالعقل . وترددت فى مجامع العصر طرف نظمه كالدر ، ولم يخل من تلك اللآلىء قلب ، وتشفت بها الآذان ، وحليت بها مسامع الخليفة : فاشتدت رغبته فى لقاء قيس ؛ وأنهى رغبته إلى والى نجد ، فكتب هذا إلى أعمال ولايته : أن لن يسمع من امرئ عذر إذا لم يرسل إليه من دياره ذلك العاشق العامرى النسب ، اللبيب الأريب ، الذى شهر بلقب المجنون .

فلما انتهت هذه الطرفة إلى أبناء الولاية قالوا : إنه بعيد من العقل ، نافر من صحبة العقلاء ، لا قرار له فى منزل ، ولا طعام له سوى العشب ، فأحياناً يتخذ مقامه فى الجبل ، وفى صدره من اللحم مائة جبل ، كفاه كخلب النمر قوة ، وماواه ليلا الكهوف . وحينما يطوف حول السهول والوديان ، وقلبه نهب لآلئ يأس . يسير نهرا مع قطعان الحيوان ، ويلشد الراحة ليلا مع حمر الوحش والغزلان . تحيرت فى أمره الخلائق ، فكيف يليق بالخليفة لقاء مثله ؟ ! فأجاب الوالى : هذه رغبة الخليفة ، ولا حيلة .

فأعملوا الطلب فى كل جهة للعثور عليه ، وبحشوا هنا وهناك عن آثاره حتى وجدوه على قمة جبل فى مجاس خطير الشأن ، له من شعره فوق قمة رأسه مظلة كمظلة الملوك ؛ وهو مثل الخليفة وسط جيش من الحيوان

في حلقة محكمة من حوله ، وهو طيب الخاطر بمجلسه بينها . فقالوا له : قم وشد رحلك ، واعقد وشاح الطاعة لأمر الخليفة .

فقال : ليس لي رحل فأشده ، وقد وضعت رحلي في الجبال والهضاب ، وهيات أن أدين بالطاعة لإنسان . وحظى أسود كسواد الدخان ، وكفاني حملا ما أنا فيه من بؤس ؛ وصدرى مفطور بسيف الهم ، فكيف أعقد عليه وشاح الطاعة . فقالوا له : حذار من هذا التطاول ، ولا تحمد مغبة ما قلت . فأجاب : لست بمن يذله الطمع ، فما أبالي عاقبة التخلف عن الخليفة ؛ ولا أقاد بنظام الحرص ، فلست أهلا لمجالسة الخليفة . والعاشق فوق الخلق ، إذ يحدوهم في أمورهم الطمع والحرص ، وقد تخلص العاشق من كلتا الخصلتين ، فتحرر من عناء العالم ^(١) .

وقالوا له : تحاش غضب الخليفة لئلا يهدر دمك بدون حجة . فأجاب : أما وقد استباح العشق دمي ، فكيف يخضعني سيف الخلق ؟ ! ولم أطلب النجاة من الخنجر البتار ؟ وسواء لدى فت بورق الورد أم بالخنجر ^(٢) . فالحي يتحمل أن يكون مسودا ، أما إذا كانت الحياة قد شدت رحالها مولية عنه ، فإن الخنجر يلقب عن هدفه .

ويؤس القوم من جداله ، فأتوا بذاقة من الطريق وجروا بها إليه حيث كان في ظلة جبل البلاء والاسى ، فبسطوا إليه أيديهم ، وشدوا على جسمه القيود والأغلال ، كما يلتف في الجبل ثعبان بحلقات جسمه حول غصن لدن . وقد عانى من حبال القيود كائنات حلقات ثعبان ، ولكن كان في

(١) قد يكون هذا هجاء من الشاعر لمن يترامون على أعتاب الملوك ، وقد كان الشاعر ممن يخطب الملوك وده ، وقد ربا بنفسه عن الترامى على أعتابهم ، انظر :
Browne : Lit. Hist. of Persia, III, P. 510.

(٢) قارن هذا المعنى بقول شوقي (الشوقيات ج ١ ص ٢٤٣)
لا تحفل بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالقجم

صدره أضعاف هذا العناء . وأخذ يتلوى تلوى الثعبان ، وينثر الدرر من دموع عينيه قائلاً :

أنا مشدود الوثاق بحلقات غدائر الحبيب ، فقيدى ذوائب شعورها
كالمسك ؛ فما قيد آخر فى قديمى ؟ وهل هناك من قيد للبلاء فوق بلائى ؟
وإذا رنّت فى قديمى حلقات قيود العشق ، سر منها العاشقون فى حلقاتهم .
والمقيدون بقيود التدبير ، لهم مخرج لتخطيم القيود ، فعلى قيد خطوتين
أو دونهما تتحرر الأقدام من قيود هذا العالم . وأنا المحاصر بالبلاء حتى ضاق
بى فسيح هذا العالم ، فكيف بى فى مضيق هذا الإيوان ؟ ^(١) وهيهات أن
يمسك بى فى محضر الخليفة حلقة أو حلقتان من الحديد يضعهما فى قديمى . وإن
سافرا لا يقود إلى الحبيب ، وليست غايته وصال الحبيب ، حتى ولو قاد إلى
الخلد ، هو فى اعتقاده أعظم جرم . فهذا القيد الثقيل هو جزاء ذلك
الجرم فى مذهب العارفين لطرائف الأمور . وساروا به هكذا على راحلته
أسبوعين أو ثلاثة ، حتى وصلوا به إلى باب الخليفة ، فأخذ حماما دافئا لينزيل
الأدران عن جسمه ، وخلق شعر رأسه ، وكساه الخليفة حلة جديدة من
جوده الذى يفيض على الوجود كنور الشمس . وصبوا عليه عطرأ ،
وأجاسوه أمامه على مائدة نواله . ورأى المسكين أنه فى مقام مهين ، فلم
يحمد مقامه ، وأدرك أنه عرض لحيلة ماكرة ، يتعرض بها لأذى المهانة
من المزهوئين بنفوسهم ؛ فضاق به فضاء الكون ، وأخذته فى جنونه نوبة
وجد ، فمزق خلعتة ، ورمى إلى الأرض بعمامته ، ولم ينبس ببنت شفة ،
وركن إلى الصمت . فأمر الخليفة أن يؤتى بكُشَيْرٍ إلى المجلس الخاص ،
لأنه طيب المحضر مع أهل العشق . ودخل وحيد عصره كُشَيْرٌ على

(١) فى الأصل هنا اصطلاح فى لعبة النرد مفاده ما ذكرنا .

أليف الأسفار وقال كُثَّير: إبتوني أولاً بقلم ودفتر. وكتبوا له على صفحاته أشعاراً طيبة كالشهد. وانطلق صوت كُثَّير من الأعماق بنشيد يصف فيه جمال ليلي، والحرمان من وصال ليلي، وسقام قيس من فراقها، وآلامه المبرحة من الشوق إليها. وما إن أنشد عدة أبيات حتى وجد منها مصباح قيس زينه، وكان حبل وريده قتيلة ذلك المصباح، فرك لسانه الفصيح كأنه شعلة نار، وأنشد في حرة قصيدة بلغت عقود أبياتها مائة: كل بيت منها كلمة من سندس، مليء بالآلء الدموع، صاف كالدر؛ وكل مصراع من مصاريعه باب، وتلك الأبواب معابر تنفذ منها الآلام. ومقاطع أبياتها شفاء مقاطع الصدور الكريية. وبحر القصيدة ذو أمواج تقتلع الجبال، وهو مع ذلك يفجر مسایل الأشجان، ويضرب من قوافيها ذوو الصدور المسكومة صدورهم بالأحجار؛ وفي كل حرف للعشق قصة، وفي كل نقطة قطرة من دم القلب، ويسيل من حروفها ماء كالدم هو رشح السكبد المقروحة وعصارة القلب الجريح؛ ومطلعها مشرق الدياجة من نور طلعة ليلي كالشمس. وفي مقطعها قاع الأمل من طلعة ليلي السعيدة الجدة المشرقة القسيمات. وتنال صواعقها على ساحة القلب من ذكرى الحبيب والديار. واستفاض فيها في شرح أحواله، وفي وصف الخيام والأطلال. وهَمَّتْ جفونه بالدمع سيلاً، فأودع القلوب مئات الحرق، وحمل الطير والريح رسائل شَجِيٍّ مكروب. وخلط تراب قدمه بدم الدموع، وكتب به رسالة أو دعها يد الرسول ليفضي بها إلى الحبيب، أو ليدعها حيث يقيم. وأودع قصته طيب أيام الوصال وشكوى آلام الفراق: فحيناً كان يمزق الثياب ضيقاً بأفعال الواشين، وحيناً يبكي تعس الجدة. فكان كل من ألقى سمعاً إلى نشيده غلى دمه في قلبه، وكل من ألقى نظراً على تلك القصيدة جادت عيناه بسيل الدموع.

ولما فرغ من إيداع آلامه تلك القصة ، ووصل إلى آخر مرحلة في وصف حداده ، أو قد النار بشعل آهاته ، فاحترق منها كل قلب ما لم يكن حجراً ، ثم أخذ يندشج بكاء ، فلم تبق عين فارغة من الدموع ، وارتى في قيوده كأنه الظل ، يمرغ خده على الأرض . ورأى الخليفة أساه وشجنه ، فأمر بفك قيوده ، وأن تفتح باب خزانته ، ليعطى منها مائة بدرية من ذهب وفضة ، ثم قال : ليبق في ديارنا ، ولينزل بجوارنا ، ولتُحرر برعايتنا صحيفة يطلب فيها من أمير تلك الولاية أن يبذل جهده في إحضار والد ليلى ، وسندفق في ذلك الجواهر والدرر حتى يتيسر لك المرام .

فلم يلتفت المجنون إليه ، ولم يقر له قرار على وعده ، ونقض أوردانه من عطائه ، وانطلق إلى وادى العشق ، وذهب يعدو كغزال فر من شبكة ، واعتقد أنه نجا من كارثة . واستمر في طريقه سائراً أو جالساً أو نائماً ، يردد كل لحظة حديثاً كالشهد ، ويقول : قد نجوت من هم الخليفة ، وعقدت الإحرام لحريم الحبيبة .

(٣١)

في قافلة ليلى

الأسانح في نواحي هذه الولاية ، والناظم لعقود هذه القصة ، هكذا روى فقال :

إن ذلك المتخذ من العراء مسكننا ، الضارب كالوحوش في الوديان ، شبيهه الظباء في العدو والجريان ، ألقي نفسه بعيدا من ديار ليلى ، فحش خطاه نحو تلك الديار ، يجوبها ، مبلبل الخاطر على غير قرار ، يغسل بدم الدموع عن وجهه الغبار ، ضالا يبحث عن آثار الحبيب . وكان يلاقى — أينما سار — القوافل ، ويكتشف مسافرين ، وكان يسير مكتوبا من نار الفراق سائلا عن أخبارها .

وذاث يوم هبت سموم الهاجرة على الجبال والصحراء ، فأضحت من الرمال وقطع الحجر كأنها وعاء مليء بالجمر والشرر . وبدأ الثعبان فيها يتلوى بحلقات جسمه ، كأنه شعر على نار . وتبثر حوافر الحيوان من حرقة السير فيها . وتضطرم الجواء بهواء لافح كوهج التنور الذي ترمى أرجاؤه بشرر من نار ونور . وتجيش الينابيع كقدور يغلي ماؤها ، ويتلوى فيها السمك ألما ، كأنه من مائها في إناء شواء . وكان صفحة كل صخرة خوان عليه أنواع الشواء من الصيد . والظبي في ظل قرونيه لاهث الأنفاس . والنمر مسكين لا يجد ما يحتمى به من الظل دون أقدام الأشجار ، فهو فوق الأرض كظل شجرة نفدت إليه خطوط من النور . وكأنه صيد مطروح قد لاذ من عنائه بكثف من غيبوبة . وانحدرت السيول في الوديان من الأعلى إلى الأسفل ،

ولم تكن فيض سحاب ، بل كانت سيوفا مصلمة في الجبل . والمجنون في ذلك اليوم فزع مضطرب ، قد صار من القيظ والسموم خمة انقد داخلها بشمل الآهات كأنها ألسنة اللهب ، ولم يفتر المجنون عن ترديد آهاته لحظة ، يحترق الفؤاد والقدم ، قد أعيا بدشدان الراحة ، قلبه من الحرقة كإحدى الشقائق . وجلس فوق هضبة ، ودار بطرفه فيما حوله ، فرأى من بعيد مخيما به حشده من الرجال كأنه فلك عامر بالنجوم . فنهض المجنون يئن مابه ، وأخذ طريقه نحو الخيم ، وهناك غير بعيد منه التقى بأعرابي مقبل من الخيمة فوق راحلته ، فأخذ المجنون عليه الطريق ، وسأله : أيها السعيد الطالع ، ما قصد هذه القافلة ؟ وإلى أين تشد رحالها ؟ وما هذه الجوع ؟ وما اسم هؤلاء وأولئك ؟ فرد الأعرابي على أسئلته جوابا جوابا قائلا : وجهتهم جميعا الحجاز ، وقد بدموا رحلتهم بنية الحج ، أما القوم فهم ليلى وآلها .

وحين سمع المجنون منه هذا الاسم أخذ يشعر بالراحة ، وارتضى على الأرض كالظل . ثم مالبت أن نهض متجردا من ذاته ، ناويا الإحرام بالحج مع الحبيب ، متحررا من الفراق بصحبة الحبيب . وسار يحمل ليلى والمجنون يتبعه من بعيد بفؤاده المسكوم ، يسلك ذلك الطريق الطويل مسوقا بالرغبة في صحبة ذلك المحمل . وقلبه في تردد أناته وآهاته كأحد أجراسه ، يتردد رنينه كله المبح هو دجها . وكان يقول : « وما حاجتها إلى المحمل ، وبحسبها قلبي مقاما ؟ والمحمل حجاب الغانيات فليس أهلا لأن يكون للشمس برجا . وأين الطالع السعيد الذي تشرق به على مسكين مثلي من ذلك البرج ؟ علتي أصير كذرة مهيئة في شعاع تلك الشمس بلا عقل ولا فكر .

وكان المجنون يقبّل مواقع أظلاف ناقتها على أثر حاديهما . وكان ينثر

جواهر الدمع من جفونه فوق محيا أصفر كالذهب . ويقول : « هذا أثر
من آثار الحبيب ، وتذكر ناقة الحبيب . وما دام قد عزلناه الحبيب ، فأقل
ما تقر به العين هي آثاره » .

مسكين ذلك الذى يقع فى إسار العشق ، يرضى من حبيبه بلا شيء . فإذا
لم يفز بالوصال ، اكتفى بمداعبة الخيال . فإذا لم يجد أثراً لأقدامه ، خَفَّ
لأثر غبار طريقه . وإذا لم يصل إلى تقبيل أقدامه قَبَّلَ آثارها .

فانظر — أى جامى — فى أمرك ، وماذا فى يدك من الحبيب فالعالم
كله ثمل بحامه ، والقلوب جميعاً صيد شباكه . وكلُّ ثمل بنوع من الشوق ،
فذاك باللون ، وهذا بالرائحة . فهو شمس فى عرشه ، ظله السماء والأرض .
فتأمل ظل الحبيب . وحيث إنه ظله فلا تؤمل فى الظل رؤية الوجه ، إذ الظل
حجاب الشمس . فاعبر طريقك فى ظلمة الحجاب ، ولا تتطلع فى الظل إلى
رؤية الشمس .

(٣٢)

لقاء في مناسك الحج

قد كان في فسيح البادية ضيق العطن ، ذلك المسافر صوب الحجاز وغايته
الكعبة ؛ فهو مع الحبيب ومحروم من وصال الحبيب ، ونهب لآسى البعاد .
وحين نزل بحريم البيت الحرام ، توجه إلى ذلك المقام الفريد ، وأخذ
يطوف ، سالكا سبيلي الوفاء . ونهضت ليلى متجهة شطر البيت ، فتزين
البيت بجملها . ووقعت عينها على ذلك الشريد ، فتحدر من عيونها دم القلب
وقالت وهي تبكى : أي هذا النائي عن العين ، وأنت مثار كروب الشوق في العين ؟
كيف أنت في صراع الفراق ؟ وكيف أنت في نار الفراق ؟ أما أنا فما بي
حاجة لشرح حال بدونك ، وهأنذا غريقة في دموعي ! أنا طوال الأيام
والليالي أسيرة شوقك ، وحيدة مع خيال وجهك . ليس لي من إنسان سوى
إنسان العين ، أسيل منه دم القلب . وأنت في ذاك الآسى خير حالا ،
إذ تشهد العزاء في نظم القول .

وأخذ المجنون يناجيها بالمعهود من نجوى ولكن بلسان الصمت ،
ناظرا إلى الامام والخلف حذرا من أدنياء الناس . وشرعا يطوفان بالبيت
في مدى ماتيا من فرصة كانت قلوبهما فيها نهبا لآسى لاحد له . فبدأت
ليلى الطواف ، ووقفت أثرها المجنون كريب الصدر . فكانت تقبل الحجر
الأسود ، والمجنون طروب بخيالها على الارض . ووضعت ليلى شفاهها على

ماء زمزم ، فملاً المجنون بالبكاء عينيه ماء . وسعت ليلي بين الصفا والمروة ،
وقد بلغ المجنون ذروة الوفاء لها . فعانى الهموم من شعرها الفواح بالمسك .
وشهرت السكين في يدها حادة لنحر الهدى في منى ، فصاح المجنون :
بل أربقي دمي أنا . وشرعت في رمي الجمار ، فكان قيس يعطو برأسه في
طريق تلك الأحجار . وبدأت تودع البيت المرفوع ، فأطلق المجنون
صيحانه خشية الهجر . وفرغت ليسلى من طواف الوداع ، فرمت بمسند
هودجها ، واغتتم المجنون الفرصة فاتخذ قبالتها مجلساً . وجلسا معا جلسة
الوداع ، يسيلان من مآقيهما دم الدموع . وبدون قول أسفر عن آلام
صدرهما لسان العيون الفائضة بالدم . وودع كلاهما الآخر كما يودع الجسم
رأسه ، ولا يتيسر العيش لجسم حرم صحبة الرأس . وسأقت ليلي محلها
على حرقه وشجن ، وبق قيس وقدماه من دموعه في وحل . وأضحى الهودج
بليلى كناجفة الظبية ينفتح مسكاً ، وأما قيس فقد تجمد دمه في جسمه كناجفة
الظبية ، وضاع سره مثل الناجفة .

وباح من حاله بهذا القدر الضئيل فقال : وأسفا أن يبقى الجسم
وتذهب الروح ! وأن ينأى عن القلب الصبر ، وتذهب القوى من البدن !
لاح لي جمالها بعد طول هجر ، وأخشى أن تكون قد ملتي . وقد أفنيت
عمرها ، أحدث الخطى على أثرها ، حتى رأيت وجهها دون نقاب .
ولم تكذب تقر عيني برؤيتها حتى توارت ولم تخش في الله . وما أنا إلا
ظمي . الشفاء في القفار ، أجرى في العراء كل سوب أطلب الماء ، وقد نفذ
صبري نفاد الماء ؛ ووصلت إلى حافة الينبوع ، فلم أكد أجلس لأطفي .

نار ظمئى بوصالها حتى شهرت على خنجرها : أن قم . وما طريقى إلى الموت
ببعيد . وليس فى الدنيا إنسان فى مثل عيشى . القلب منى ذاهب ، والصدر
محترق . فلا ذاق أحد يارب مثل هذا العيش .

هكذا قال وافترق عن آل ليلي ، ولكنه صاحب الركب بالخيال ،
متخذاً له رفاقاً آخرين فى الطريق ، قد نفذ حوله وطوله ، وعز صبره ،
وعزبت عنه الراحة ، خشية أن يكون بين رفاقه امرؤ سوء ، يقع
من قلبه على موطن الداء ، فيدرك ليلي منه ملالاً ، أو تعملوها سورة
انفصال .

(٣٣)

زفاف ليلي إلى شاب من بني ثقيف

ناظم عقد هذه الجواهر ، قد ملأ سلك نظمه بالدرر ، فقال :
إن تلك المكنونة كالسر في محل الأسفار ، ذات الدل المخدورة
في هودجها ، هي ظبية صيادة الأسود ، مغيرة على قلوب الأبطال ،
مشار جنون العقلا والحكام ، تنال من كل ذى مقدرة .

وخرج ركبها من الحرم ، وأخذ حاديها يغنيها بحدانه . وكان الحجيح
قد أخذوا يثوبون بمحملهم مسرعين . وكان من بينهم فتى ممشوق القوام
من بني ثقيف ، يحياه شمس وجبينه قر . وحول يحياه عذار ينفح العنبر ،
هو دائرة من المسك حول بدر وجهه . في إصبعه خاتم الرئاسة ، وهو كبير
قبيلته أبا عن جد . فيض نواله يفوق الحد ، يغمر الجبل والسهل . فهو خالى
الوافض بما ينثر من كنوز عطائه ، وغيره فى غنى بفيض نواله . واتفق أن
مر تجاه محلها ، فوقع فى قلبه جنون حبها . وكان قد ألقى نظرة على حجاب
هودجها ، وهبت ريح فرفعت الحجاب ، فتبدت له من خلف الحجاب
وشمسا يفيض من وجنتيها الشعاع . تفسدل غداثها حتى مهوى القرط ،
فرأى الليل والنهار مجتمعين . وحاجبها مصلت إثر آلاف الفرسان مولين
تقدح سنابك خيولهم بالشرر ، وترنو بعينين فيهما إغراء الخلود وسحره .
ويبتسم فيها العذب عن تضيد يفك عقد الروح .

ويرامى ذقنها وضيئنا أمام عنق كالماء النير ، هو لوح به مئات العظام
للمتأدين . ورأى من خلف النقاب ذلك القمر فعزب الوعى عن روحه

البيعة ، وهوى طائر قلبه صيدا للعمق ، ووقع فؤاده جريح العشق . وأضحى مسكيناً لا حيلة له . وأعمل فكره في طلب النجاة ، فوقف به العجز دون الحيلة . وبحث عن وسيط يستعين به . وكيف يستطيع المرء الاهتداء إلى وجه الحيلة في أمره مهما كان ذا حكمة وتجربة ؟ وبميد لدى العارفين أن تستطيع السكين قطع مقبضها . فالخير إذا في الاستعانة بوسيط بصير بمدخل الأمور ، ليكون زينة مجلس العرس . وبدونه كيف يحظى صهر بوصال عرسه ؟ فوقع على خبير ساحر القول ، راوية للقصص ، كهل عذب القول في مضائق الأمور ، يستطيع أن يصلح بين الماء والنار . وأرسله إلى والدها ، فقام بالدعوة وحددها موعدا . وحينذاك قال : نسبي عظيم يضارع نسبك . ومالي نظير في الجاه والجمال ، وفي المال والنوال . أجيئك إلى كل ما تطلب ، وأصب دون قدميك كل ما أملك . ولى من القطعان ما يغطى الوديان واديا واديا كما تسكو الطريق أشجار القشاة . ولى في كل مكان خدم من النساء والرجال كقطعان الإبل والخيل رأسا رأسا . وعندى من الذهب والفضة ما يفوق العد والوزن . وأنا مملوك لك ولا حيلة لى ، والعبد وما له لمولاه . وأنا لك صهر طيب العشرة ، أقبل قيد إيسارك لى . وإذا حوتُ لديك القبول ، كنت سعيد سعادة يقصر دونها الكلام ، وإلا فلن أستطيع بكل مالى أن أحوز ذرة من السعادة

وتذوق والدها مائدة ذلك الكهل الشهية ، واستمتع هذا الشاب ، ووقع فى قيد حبه طواعية بلا شرط . وقال : إنه فى الجمال لا مثيل له ، وهو ابن لى ونور عيني . وفى استجابة رغبته سكن لخطارى الحائر . ومع هذا فلا عيب على أن أستشير أهلى .

وذهب فطلب والدتها العارفة حق المعرفة بقدر جوهرتها وانفرد بها دون

الناس ، وأسر إليها بذلك السر . فرضيت هي به كذلك ، ونزل في صدرها منزل القبول . وقالت : هو أمر موافق لسكلا العاشقين . فحين تصير ليلى في حيازة ذلك الزوج ستفسى بذلك صديقها القديم . وسيتوجه المجنون بحبه إلى أخرى حين يشم هذا الخبر ، وتتخلص نحن مما يدهمنا من أمر ، إذ غدونا أحدوة القوم .

واسكنها حين أفضت إلى ليلى بهذا الكلام ، عرا قلبها اضطراباً واضطراب ذوائبها ، واحترق فؤادها غما ، وصارت بشرتها الفضية كإحدى الشقائق حرقة . وارتوى ورق خدودها بدموع حمر كماء الورد . وامتلا جيبها بدرر الدمع ، ونفضت يدها من خيال وجودها ، واضطربت حائرة في أمر نفسها . لا طاقة لها بمخالفة رأى أمها . وهي بعيدة عن الرضى بقولها ، إذ لا حيلة لها في ترك حبيبها القديم . ولوت برأسها لا تحير جواباً . وبدت العذراء خلف نقاب الحياء ، وعلا وردة وجنتيها ماء الخجل . فماذا تقول لأمها وأبيها ؟ وإلام تلجأ إذا خرجت عن رضاها ؟ وإثر هذا الحديث الذي دهم بالخطر روحها ولت باكية متتجبة ، ولم تحاول أن تنبس بكلمة . فقالوا : هذا السكوت رضا . وحررا للخطاب رسالة حتى يسعى في إثر مقصده . وحين سمع الحب هذه الرسالة رأى فيها سعادته في الدارين فطاول بتاج نغره الثريا ، إذ أصبح كل شيء في أمره مهيئاً . وحين غطت عروس الغرب (الشمس) نقابها بغدائو الظلام في لون العنبر ، وأوقدت بجم الفلك بحب الحرمل ، وأضاءت المجلس بمصباح القمر ، كان قد هيئ محفل الطرب ، وأقيمت الزينات ، ودعى أشراف القبيلة للحضور ، وجلس كل في مكانه المعد له ، وعقدوا قران البدر بالنجم . وأتى الأصدقاء بأطباق الذهب والنقد . لينشروها حين العقد . فكان هناك قوم ينشرون الذهب ، ودونهم

جمع غفير يلمونه ، وكانت أكف الأثرياء تصب الدراهم ، فيجمعها الفقراء في أذيالهم . فهذا يجمع من قطع النقود ملء راحتيه ، وذلك يملأ بالذهب قبضته . والقوم في سرور إلا ليلي ، باسمون بالأمل ما عدا ليلي . ورأى الصهر هذه التحفة تزف إليه كما اشتهى ، فلعب برأسه السرور ، مؤملا من ورائها الخير ، غافلا عما دس له من السم . كطير حوم بعيدا عن عشه ، يلقع على كل حب يتاح له ، فوق نظره على حب قد هيء ، فهو ي إليه ليلتقطه ، فقفز له من فوق الأرض فبح ، وأحاطت بعنقه حلقة الضيقة . ومضى هزيع من ليل الزفاف ، ملأ الشوق فيه جوانحه ، فسعى في أثر تلك الشبيهة بالبدر في أوجه ، في محفها المزينة كالفلك ، وحملها مكرمة إلى منزله ، وأجلسها في حجلة الدلال .

وتبأت مقعدها معززة مكرمة ، ناظرة كالقمر بوجهها إلى الأرض ، لم تفك عقدة عن عقد حواجبها ، ولم تفتر باتسامة عن نضيد الجواهر من ثناياها ، بل أمطرت اللؤلؤ الرطب من بكائها . وهو دونها ظامئ الكبد ، ينظر ماء ربه من بعيد . وليس له في حرقة ظمئه على الصبر يدان ، ولم يؤذن له بعد بالورد . وراود نفسه يومين أو ثلاثة ، حتى طغى الشوق فقسم متن الصبر . وهم أن يضع يد هوسه على قامة هي بحق نخلة ذات ثمر . فأهابت به : انشأ عني ، وخذ مكانك دوني واصبر عن جنى هذا الرطب الشهى . فلم يقطف أحد من هذه النخلة ثمرة ، بل لم ير امرؤ ثمرها . فلا يليق أن تنكسر منها غصنا ، فهذا هوس بالغ المدى . فأنا جريحة القلب ، في انتظار من غدارهين الآسى والخور ، من فداني بالصبر والفؤاد ، وجعل روحه هدفا لبلاني . وهو بي ضيق الصدر في رحاب البادية ، يعاني في شعابها ألوانا من الهم . وعلى خيالي يرعى الظباء ، وفي هواي يمزق الشياب ، ومن سم فراق يقطع نياط

قلبه ، فيبحث عن ترياق في دموع الأطباء . ولم يغفل عن ذكرى لحظة ، ولم يمل إلى سواى . ولم يحظ برؤية وجهى مرة واحدة ! ولم يسر قط إلى سير المتطاول . هو قانع من سرو قامتى بالظل ، راض من التدرج بريشة من جناحه . هذا ولم أرفع إليه رأسى فى ذلك الظل ، ولم أضر إليه أثر تلك الريشة . وأنا بعد على عهد وفائه بمالى من طوق ، ويغلبنى إلى لقائه داعى الشوق . فانظر بعين الاعتبار إلى حاله وحالى ، أنا المبتلاة بوصول سواه ، وعشرة غيره . وإياك وذلك الوسواس ، فلا تغتر بطولك ، ولا يبطرك جاهك وعزتك . قسما بصنع الخالق المنزه ، المبدع فى تصويره على ألواح الثرى ، إذا تطاولت مرة أخرى على كفى ، لأبسطن إليك يدى ، شاهرة على أم رأسك سيف الانتقام . فإذا قصرت يدى عن الانتقام منك ، ففى مكتبى أن أقتل نفسى ، فأزحق روحى بسيف الظلم ، لأنجو من نير عسفك .

وسمع المسكين هذا الوعيد من شفاه لا تفتر إلا عن حلو البسمات ، فعلم أن قدم حظه كليل ، وأن الناقة بلا زمام صعبة المراس . ثم وجد نفسه أسير شبا كها ، ووجل قلبه لفراقها . فلم يجد بدا من العيش على حرقة الوجد ، واكتفى من تلك الحديقة بعطر زهرها ، فكل لحظة للوصل موصولة بالفراق . وتثير فى نفسه أوقات الراحة ألوان المحنة . قد اجتثت جذور أمه ، له من أسباب الأسى ما يموت به مائة مرة ويحيى . ودام على هذه الحال أمره . وكان هذا كل ماله فى حياته من خلاق .

وقضى نحبه يوم أن قضى فى ذلك الأسى ، متخذاً منه زاداً لأخراه .

(٣٤)

المجننون يعلم بزواج ليلى

موسيقى غناء هذا العرس ، الموقع على آلاته من عاج وآبنوس ، قد دق على طبل بيانه الثمين ، وأطلق من صدره هذا اللحن الحزين ، فقال :

حين عاد من الحجاز ذلك المعاني لطعنات العشق ، المطلق الصيحات من تباريح العشق ، مر بحريم الحبيب ، فانتكأ جرحه ، وعادت حديقة ذكرياته أنضر ثمارا ؛ وعراه الوله من جديد ، فأطلق أناته من السطوح والأبواب ، وعقد من حبال دموعه فيشارة وغنى عليها أنشودة ، ووقّع من لوايح قلبه لحنا . باحشا أينما ولى عن آثار الحبيب . وكان كلما جلس على دمن ، أو قام على طلل ، فقليل له : إن هذا أثر من آثار تلك الشبيهة بالبدر ، الشهيرة بالجمال ، أى ليلى بلأه روحك ، التى ذهبت بمالك من حول وقدرة ؛ وضع جبينه عند سماع هذا القول على تلك الدمن ، وأسأل عليها من دم الدموع ، وتغنى غزلا بذلك الطلل ، تمرغا وجهه على الأشواك والحشرات .

وكان يجلس فى حريم الخيام المضروبة ، فإذا قيل له : ليلى هناك ، جعل مأواه ظل الخيمة ، واتخذ منها حرما يطوف حوله . وأينما جلس فى البادية كان ينقش اسمها على الرمل ، ثم يمحو ما خط بفيض دموعه . وقد رآه شخص مرة يلتقى الثرى ويضع منه على رأسه ، فقال له : عَمَّ تبحث فى الثرى ؟ من أجل من تضع فوق رأسك التراب ؟ فأجاب المجنون : لاني أنتقى الثرى من كل أرض ، على أجد ريح تلك الجوهرة النقية ؛ وحين

لا أجدر يحها أضع الثرى على مفرقى ألما وحسرة . وسأظل أطلب هذا السرّ من التراب حتى أصل إلى الماء . وحظّى من الطلب مذاق الطلب ، أما الدر فلا سبيل إليه . فأجابه الآخر : أرح نفسك من المطلب ، ومن طي الأيام والليالي في هذه المحنة . إذ أن تلك الجوهر النضرة التي تمضى عمرك والها في التطلع إليها والوجد بها قد أقتلعت منك قلبها ، واستقبلت بك آخر حين وجدته خيرا منك ؛ فأنفض أنت كذلك يدك منها ، واطرح من جانبك هوى هذا الصديق . فمن لم يخلص كل الإخلاص في طريق الوفاء فلا تساوى مائة كومة من حصيده حبة واحدة من الشعير . فبينما تقيّدت حين بسطت يدك إليها بالعهد ، مدتّ هي يدها لبيمة آخر . وتحدثت أنت عن ليلى درة مكنونة ، بينما أمسكت هي لسانها عن النطق باسمك ، وربطت قلبها بحبيب طابت شمائله ، وأخلت قلبها من كروب حبك ، واختارت شابا في مستقبل الشباب من بنى ثقيف ، ذا عقل راجح ، وتزوجت به . وباعتك كعقد وضع القيمة بجوهرة . فهما كاللام والالف في مكان ما ، وأنت قائم كالآلف وحيدا . وهما كالظفر واللحم رفيقان ، وأنت كالظفر قلع من رأس إصبع . فانهض وانتزع من رأسك هذا الخيال ، ودع عنك الهوس في المحال . وما معنى الصفاء مع ذوى الدخائل السود ؟ وما جدوى مجازاة الجفاء بالوفاء ؟ والحسان كورد^(١) الفجار لا يعرف للوفاء عهدا ، وإنما يغتر فيه بلونه ورائحته ، وكل من بكر إليه قطفه . وكيف يتخذ الأرغوان من الصفصاف ؟ وكيف يجعل من اللص بستانى ؟ وما دامت قد وضعت أذيالها في قبضة الأشواك ، فدعها والأشواك . ووردة ليست لك خير لك أن تتركها مهينة في الأشواك . فكن رجلا ، وأنثاء بجانبك عن كل امرأة تبحث

(١) الكلمة الفارسية هي كل دوروى ، انظر Desmaison: Dict. Pers. Franç.

عن إرضاء نفسها بزواج . ومنذا الذى رأى فى نعل واحد قدمين ؟ أو فى منزل واحد سيدين ؟ والمرأة مخلوق كله سحر وخديعة ومكر ؛ أما عن إخلاصها فلألون ولأرائحة . والمرأة صعوة جناحها^(١) أحر أصفر ، وإرضاءوها محال . فإذا صدقت عنها وقعت فى حبال الموى ، وإن أكرهتها قضت ألما . وهى نخلة مشوقة القد ولكنها من الشمع ، فما إن تهزها حتى تسكر ؛ فلا زهرتها ناختة بالمسك ، ولا ثمرتها حلوة المذاق . قد حليت بكل الأوراق والأغصان إلا غصن الوفاء ، فقد قطع من شجرتها . سرعان ما تنسى عهدك إذا عانتك سواك ، وطريق الخلاص من نائض العهد أن تنقض عهده . فانقض يدك من وصال ذلك الحبيب القديم ، ما دام قد نفى يده من حبك . فإذا صبغ كفه بلون آخر ، فلا تلون كفه بخنائه .

وسمع المجنون هذه الأنشودة ، فهض يرقص رقصة الصوفية ، ثم صرع فتمرغ فى التراب الرطب بدم دموعه كطائر نصف مذبوح . ثم أخذ يضرب بالحجر صدره وقلبه ، على أثر فجيعته فى حبيبه الحجرى القلب . وصار أمره نهبا لمائة خسار ، ثم سقط فاقد الوعى ، فلم تتردد من شفتيه أنفاسه ، ولم يعد للحياة فيه من أثر ، حتى لم يُدْرَ أحي هو أم ميت ، وفقد الأمل فى بقائه . وبعد طول إغماء عاد إلى الحياة ، فألقى روحه نهبا لآلاف الغم ؛ وجرى فى حلقة النفس فلم يردده بسوى الآهات التى تخرق صدره بسنانها ، واستمر يزددها قائلا :

أواه من قلب حبيب حجرى القلب . وآه من كرب حبيب ولوع
بتحطيم القلوب . وأسف أن تتقد شموع الحسان بصدر نافذ الصبر ولهان .
واحزننا ألف مرة أن مزق ذلك الحبيب جيب شرفى حين مزق الجيب

من لباس الطهر ، خثا على رأسى تراب الحسرة والندم . قد نقض كل عهد
أوثقه ، وانضم إلى من لم يكن له به عهد . فهو ذو قرين وأنا وحدى فرد .
وقد وجد طريق الشفاء وخلائى لآلامى . فخرماني منه يحرق كبدى الكريب ،
وحظوة الآخرين به يزيد اللبيب انتقاداً . فأنا بذلك الحرمان كالشجرة السوداء ،
وبهذه الخطوة فى نزع المحتضر . وقد يسهل على العاشق الوهان احتمال
البعاد والإشراف على الهلاك ، ولكن العبء الذى ينوء به هو علمه أن
حبيبته فى أحضان الآخرين . لقد ظل دهرأ يستخرج الكنز ، فلما جمعه
حمله غيره . وقد غرس فى حديقته شجرة ، فاقتلعهما فى غارته جيش . فيما من
كنا معاً جلسين ، وقد أخذنا الطريق على الريح حتى لا تسوق إلينا وجه
إنسان ، ولا تحمل ريحنا إلى الآخرين ، هاأنذا أحياء فى أمل أن أفضى إليك
بلوعتى ، وأن أحمل النسيم إلى تلك الحسناء ما به تذكرنى مع من تذكر .
أيها الريح توجه إليها ، وألق نظرة منى على حسننها ، وقل لها : يا من هربت
بقلبها منى وركنت إلى آخر ، حين تصيرين نديمة كأسه ، وتنقلين النّقل
على الشراب من فمك إلى فمه ، تذكرى آنذاك حال مرير الحلق محطم الكأس
من ألم القلب ، يعدّ نفسه للهوت من هموم حبك ، ولم يظفر من وصلك
بطائل ، وإنما يضرب فى الأرض نادماً صادق العهد .

(٣٥)

أسى المجنون بعد زواج ليلي

في هذا الوادى الذى يصهر الروح ، كان الحبيب بمراحله ومنازله يتغنى
أحياناً بألحانه ، مطلقاً أنعام موسيقاه قائلاً :

إن هذا الحب الفريد فى لطفه ورفيقه الجور ، قد أفلت من العقل زمامه
عقب حديثه عن ليلي وزوجها ، وتحرر من الفكر خيره وشره ، وصار
مجنوناً بخرم العشق ، وطار صوابه بذلك الرقيق ، وناله الأسى بحرقة
على حرقة البالغة بالفراق ، وزاده الهيام اضطراباً على اضطراب ، فنفر
من الناس ذوى الطباع المسفة ، مولياً وجهه شطر الوحوش النقية الدخائل
من حقد الإنس ، التى لا تسعى له بأذى ، فكانت كلها تألفه ^(١) ، تأنس به
وتهش له ، فكان ينطلق فى الجبال والوديان ملاكياً رفيقه جيش من الوحش ،
فإذا استراح فى ظل شجرة أقعى دونه بعض قطعانها على الرمال والأحجار
حلقة محكمة حوله ، كأنه فيها فوق عرشه ، وإذا وقع بينهم ما يعكر الصفو ،
فسرعان ما يستضيئون بعدل ملاكهم فيعود لهم الصفاء والوئام . فلا الظبي
بوجل من الذئب ، ولا الثيوس فى خشية من الليث . والحملان لاهية بذيل
النمر . وإذا سار فى وادى همومه جرت حمر الوحش أمامه وخلفه ، وكس
الشعاب له الطريق ، ونثرت الغزلان فيه دموعها تاطف حره ، وقام سرب

(١) من المؤلف عند الصوفية أن الوحوش تألف ذوى الكرامات منهم راجع مثلاً :

الدكتور عبد الرحمن بدوى : شهيدة العشق الإلهى رابعة العدوية ص ٩٣ — ٩٤ .

من الغربان ظِلَّةٌ فوق رأسه . وإذا مال عنهم في مكان ليسكتب رسالة لليلي ، أعطاه الظبي ساقه قلماً ، وصفحة عجزه ورقة ، وحمل عليه طيِّب الخاطر ليتخذ قيس من سوادها مداداً . وهكذا كان يسير مردداً ألحانه ، مرسلًا ياقوت دموعه ، تمشي بين يديه أسراب من الطباء رشيقة مطمئنة ، وإذا به فجأة أمام روضة ، وعلى مسافة منه جماعة دون أقدامهم بساط الخضرة ، تشج كسوسهم بالخمر في لون الورد ، فلولى المجنون من بعيد عنهم عنانه ، لينجنبهم خطر جيشه . وكان في أولئك القوم من عرفه ، فناداه متغنياً بالثناء عليه قائلاً : يا طلبة من جن جنونهم من العشق ، ومن يحياه يتألق بنور العشق ، مقامه في الخرابات متحرراً من القبيلة والقراية ، أيها السالك طريق التجريد ، وحيد المسير في مضائق التوحيد ، أيها المصلت على رأسه حسام الأسى ، وهو دون الحسام مقيم كالجبل ، أقسم عليك بمن جنت بحبها ، وبمن فقدت من جرائها الرأس والقدم ، أقسم عليك بمن لا تعرف الحياة إلا في كنف وصالها ، أقسم عليك بشفتيها الياقوتيتين حسناً ، وبغداثرها الملتوية وبعميقها النجلاوين كعيون المها ، الفائضتين بالسحر والخمر ، وبجدائل شعرها فوق قرأذنها ، ألا تنأى عنا بجانبك ، فنزد مدة ونحن على شوق إلى لقائك بعد البعاد ، واليوم ظفرنا باللقاء عقب السفر ، فلا تستبج إذا فطيعتنا ، وقد وصلنا إليك فابق معنا لحظة ، لنلقى عن عاتقنا ثقل الغم .

ورأى قيس حاجته ، وسمع منه آيات رضاه عنه وحب له ، فترك جيشه في مكانه واتجه نحو هؤلاء القوم ، وسألهم : أي الديار دياركم ذات الروق والطيب ؟

فأجابوا : نواحي الحجاز مقصد كل تقي ، وطالما قصدتها ليلي ، وسارت

هناك بحملها ، وجررت في تلك الرسوم أردانها تنفخ المسك .

وسمع المجنون قوْلهم ، فوقع كالظل على الأرض فاقد الوعي ، وصاح متغنيا بهذا التشديد :

أيها الرفقاء القاضون بملك الديار ، ذكرتموني بالحبيب ، ألا فداء لكم
روحي وقلبي ، ودون أقدامكم رأسى ! ليس بي من هوى لقصد السكعبة ،
وما في نيتي القيام بالحج ، وإنما قصدى الطواف بليلي ، وسوى ذلك فضل .
وما لي من جدوى من الطواف بالسكعبة ما دمت لا أستطيع أن أمر بمنزلها ،
فجئى وعمرتى رؤيتها ، وبدونها لا حرج لى ولا عمرة . وسهم وصالها المسدد
من الجعبة تدور به الرأس طوفا بالسكعبة . فأنا الظامى إليها بوادى الأسى ،
فكيف أروى من زمزم ؟ وأنا الطروب فى زمزمة همومها ، أجريها هائما
على لسانى فتجري من دموع عيني زمزم أخرى . وأينا أسرف غشايتى
من السير وصالها ، وكل مقام لا يضيقه مصباح حياها فهو النار ولو كان الجنة .
فليلي أينما حلت هي المراد ، لا أطب بها سلمى ولا السواد^(١) . وسأظل
على ذكر منها لا هيا عن العنيد حتى أطفئ أساى فى أحضانها . فلا رأى
عدو ما عانيت من حبها ! فقد وقعت فى مخالب العشق غير مبال ، ونبتذلتنى
فى شرخ الشباب ، وأفلتت من برائن العشق . واليوم وأنا فى انتظار الوصال
وروحى من الفراق فى وبال ، أضحت هى نَقْداً لغيرى ، وصارت لقمة
فى فم سواى ، فلها رفيق حبيب ، وأنا ناء بعيد ، وتنعم هى بالوصال ،
وأظل غريباً مهجوراً .

(١) هى نفس الكلمة فى النص الفارسى ، ومن معانيها فى العربية : المال الكثير ،
وسواد البلدة قراها ، وسواد القلب حبه كسودائه وسويدائه .

هكذا قال ، ومرغ في الأرض جبينه ، مرسل الأهات من صدر ممزق ،
ما كيا بدموع من الدم ، حتى وقع من بكائه في إغماءة . وحين أفاق في المساء
كان الفلك قد استبدل بلباس النهار لباس الليل ، فصار ذا لون واحد وهو
الخداع ذو اللونين ، يحتال لمراذه وهو في قوة النمر ، نخرج قيس من حلقة
رفقائه ، وانضم إلى سرب الظباء ، تكاد روحه تزهق من الهجر ، وأمضى
الليل كما كان يمضى كل ليل .

(٣٦)

الحمامة المطوقة

عند ما بزغ الفجر ، وحال لون نجوم الفلك ، واسترسلت من القبة
اللازوردية على الأرض أشعة مبهوتة ، أفاق المجنون من غيبوبة نومه ليجد
في طلب حبيبته ، وسار يردد اسم ليلى حتى انتصف النهار . وهبت سموم
الهاجرة ، فأخذ يقع وينهض متمثر الخطى فوق الرمال المتوهجة ، ظامئ
الشفاة ، ربه من خنجر الفراق ، يعانى فى صدره من آهاته خناجر الفراق ؛
وإذا به يمر على قرية كجنة الخلد والقرار ، فيحاء كأنها وسط الوادى القائط
نار الخليل^(١) . فأوى منها إلى حائط قصير جلس عليه أسود كالغراب من
لفح الشمس . وأقبل رب الحديقة عليه قائلاً فى لطف : أيها الرفيق اقد
صرت أسود كالغراب ! فكُن ضيفي ولك المنة ، وزين بمحضرك عُشسى .
فليس الجلوس على الحائط بمقام لك ، نخذ مكانك من البيت فهو بيتك .
ولا عليك إذا صرت أسود ، فجة العين الصحيحة سوداء .

فتأثر المجنون بلطف هذا الشاب ذى المرومة ، وخف إلى منزله ، وقد
قال حقاً سيّد العرب : « نحن العرب نكرم الضيف » وبسط المضيف
للضيف الكريم مائدة نواله ، وأعد له على المائدة شهداً صافياً وشواء
الطير . ولم يمد المجنون إلى المائدة يده ، وامتنع عن تناول الطعام ومذاقه ،
قائلاً : « ما هذا طعامى ، ولست بقادر على إساغته ، فديدن الناس صيد

(١) إشارة إلى قوله تعالى : (وقلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) سورة
الأنبياء آية ٦٩ .

الحيوان والاغتذاء بذبحه ، وأما أنا فكل حى حرام على ، ولذا ألفى كل الحيوان . وإذا أنشبت في الحيوان أسنانك فلا مناص من نفوره منك طلباً للنجاة . وأجدنى أعاف شراب البلح إذ هو قى النخل ، وكيف أطعم قيثاً ؟ ويمرُّ فى حلقى عصير النبات الحلو . وإنما يحلو فى ذوق النبات (١) . فكانت الأعشاب فطوره ضحى ، وكانت كذلك عشائه مساء . وحين حى الليل رونق النهار ، لبس رب البيت لباس النوم وأوى إلى حجرته . وكانت فى صحن الدار نخلة سهلة الغذاء نفيسة الدخل . نهى تقنع بقطرات السحاب زاداً ، ودخلها فى رأسها وسعفها وعصيرها وعذقتها . وتدنو أعداؤها مذلة القطاف ، يحلو بها ريق من أمّرت حلوهم . وعرجونها ذو شماريح من ذهب قد علق بها عقيق سائل ، فهو فى اللون عقيق ، ولكنه فى الطعم شهد يغرى أفواه الطاعمين . وقدها شبيه بقذائف الغيد ، وعلى رأسها الطيور تتلو ناشيدها . قال المجنون إليها ، ووضع رأسه على جذعها ، متذكراً قد لى وأخذ يبكى قائلاً : لا تطيب الحياة على نأى الحبيب ، وإنما هنا عيش من يتمتع من حبيبته بنصيب ، فيرفع رأسه زهواً بتقبيل أقدامه ، وقد طويت العالم فى هذا المطلب ، فلم تظفر يدي منه بقدم ولا أثر .

(١) من المقطوع به أن بعض المتصوفة كانوا يعفون ورعا عن أكل الحيوان راجع مثلاً :
Massignon : Essai... p. 233 -

وما أشبه حال قيس هنا بما روى من أن رابعة العدوية « صعدت جبلاً فأقبل من حولها كل ما كان هناك من غزلان وبقيت حوالها آمنة كل الأمان . ولجأت أقبل الحسن البصرى ففرت الغزلان . فقال لها : يارابعة : لماذا فرت كل الغزلان منى ولم تفر منك أنت ؟ فسألته ماذا أكلت اليوم يا حسن ؟ فقال : أكلت طعاماً طهى بالزيت . فقالت له رابعة ، يا من تأكل دهنها ، كيف لا تريد منها أن تفر منك ؟ .. » (الدكتور عبد الرحمن بدوى : رابعة العدوية ص ٩٤-٩٥)
وكذا العطار : تذكرة الأولياء ج ١ ص ٦٥

واليوم من ذا يعانى مثل حرقى ؟ ومن له مثل حظى فى ظلمة الليل ؟

وبينما هو على هذه الحال إذا طائر فى سعف النخلة يرفع صوته صادحا بألحان نفاذة ، ويرددها هتوفا ، تنال من القلوب الصم كالصلد . وكأنما كان يوقع ألحان صداحه على ريش جناحه المهيبض ، با كيا يشدو كل لحظة بلحن جديد من غير عود على أعواد الشجرة . وكان يطلق فى كل آونة من همومه تغريدة كان لها فى كل ريشة من ريشه صدى ، حتى ليظن أنه أضخى وكلشه نات أشجان موقعة على أوتار جناحيه ، أو أنه صار بما يغمره من أسى الآهات عودا وعروقه فى العود أوتار . وفى كل زفرة من زفرات أساه كانت عظام جناحيه مضارب لأوتار فؤاده .

وأصغى المجنون إلى شكواه ، فغدا مشقلا بأشجانه ، وكلما صارت صدحات الطائر أكثر حدة انفطر لها قلب المجنون وتصدعت أركان روحه ؛ وقهرت به طاقته عن سماع تلك الأناث ، فسعى بحثو على رأسه تراب الأسى ، حتى وصل إلى رب الدار ، ودق عليه الباب قائلا : يارب الدار ، ما هذا الأمر الذى حمّت به روحى هذه الليلة ؟ وأى ألم عرا هذا الطائر ؟ وأى حرقة يعانى ؟ وما ذاك السهم الذى به تمزق صدره ؟ فما أشد ألمه فى أناته ! لقد تمزق صدرى إربا على أشجانه ، وأخاف أن تفارق منها روحى البدن . وهو يكشف بنوحته عن سر جواه ، فيهبج منى قصة آلامى .

فأجاب رب الدار : كان هنا حمامتان مطرقتان قد حسن منظرهما يعيشان فى صفاء . قد اتخذتا لهما هذه النخلة عشا ، ولبيا لهما فى رأسها منزلا ، وكانا فى المنزل أليفين يغردان بألحان الطرب ، يغدوان معا يطلبان الحب ، ويردان معا الماء ، لم يعترهما قط ملال من الصحبة ، ولم يعانیا أذى الهجر . قد طابت غدواتهما وروحاهما ، وقصرت يد الدهر عن أن تنال بالسوء

أردانهما . ولسكن منديوم أو يومين وجد طريقه إلى عشمها بازضار بالصيد ،
ففرق بينهما ، وبسط كلاهما جناحيه للهرب ، وهجر كل منهما الآخر .
وعاد الباز لعشه ولم يعد أليف الحمامة ، ولا يُذكرى ماتم في أمره : أهو حيٌّ
أم وقع في مخالب الباز . ففي قلب هذه الحمامة من نأى أليفها لوعة ، وبه
من فراقها — ولا شك — حرقه .

وسمع المجنون هذا اللحن من رب البيت فأطلق من أحشائه صيحة
زلزلات القرية فاستيقظت من نومها ، وبكى قائلاً : هذا هو كل دائي ، ولم يعان
هذا الحرمان أحد مثلي .

ثم سار شطر النخلة وجلس تحتها ، وأخذ يتكلم بفصيح لسانه إلى عجماء
اللسان قائلاً : أيتها المرحانية الساق الياقوتية المنقار . رأسك بندقية ،
وجناحان خضراون كالفسقة ، فلونك — ماحيت — كرقعة السماء ، وأنت
ياقوتية العين عنبرية الطوق ، ورأسك محاط بطوق الشوق . أنت ناقوس
دير الحب ، والمطربة على موائد المعوزين ، توظفين بوعظ ألحانك سكان
هذا العالم ، فيمتبهون على بليغ أشجانك . فأحياناً تعظيهم في جوف الليل ،
وأحياناً بعد غفلة النوم في الصباح . أسأل الله بسابق عنايته ، وبلاحق
مالا يتناهي من فضله ، أن تجدى أيتها الحمامة من تفتقدن ، فستجيدى ما كان
لك من هناة ، وتدومى موصولة الهناة إلى القيامة ؛ فأنا أيضاً شريك لك
في الرزء ، باق على حالي من فراق الحبيب أبد الدهر . قد قضينا عمراً معاً
صديقين وفين ، يفدى كل منا الآخر بنفسه ، قد سكن خاطرنا في مهد
الوفاء ، وخلا طريقنا من شوك الهجر ، ولم يعمل حيانا غبار الأسى . وكانت
قلوبنا مكلومة من أذى الواشين ، ولم نسكن نلقى بالا إلى من يعرض لنا
بالنصح . كننا معاً روحين في بدن ، نتواري من عيون العدو والصديق ،

فرمتنا الأيام بسهام غدرها ففرقتنا ، وهانحن أولاء نقاسى الأهوال .
هيات ! وماذا قلت ؟ هذا كذب ، وشمس الكذب لا تضيء . ففؤادى
كالشقائق حرقة ، وهى خلية البال كالوردة النضرة . وهى فارغة القلب ،
وأنا جد مشتاق . وهى ذات أليف ، وأنا وحيد لا أليف لى . وهذا البلاء
للصاحب بالعشق أشد هولاً من شجون الفراق . وقد ملأت العالم قصة
أشجائى ، بينما هى لاهية فى أحضان سوانى . ونزيلة القبور خير لدى العاشق
منها فى يد غيره . والثمرة التى وقعت فى أرض الحديقة أفضل من تلك التى
اختطفها عادياً الغراب .

هكذا قال ، وأفاض من عيونه دماء قلبه ميلاً ، وافترق عن رب البيت ،
وسار إلى حيث لا يُدْرِى أين استقر .

(٣٧)

رسالة ليلى إلى قيس تعتذر عن زواجها

أخرج بائع الدر من درج القصة جواهر الكلام قائلا :

ليلى تلك الدرة في صدف شرفها العظيم ، ودونها الدر المتألق في أصدافه ،
عروس حجلة الجمال ، وسيدة القصر الصبيحة المحييا ، تغزو بحسنها قر
السماء ، وجمالها إكليل على هامة التتيرين ، كوكب في برج الشهرة ، ونور
حرم الجلال ، ظبية الدمن وغزال الأطلال ، عقدتها الثريا وخلصها الهلال ،
حين انتظمت في سلك آخر ، وصارت حلية تاج سيد عظيم ، فالتحذت
قرينا ذلك الجليل القدر ، المشهور بنداه في الآفاق ، لم تزل على خجل
من أمرها ، غصبي من أجل حبيبها ، وجيلة أن يقع في ظنه أو يطوف
في خياله أنها أدبرت عنه ، فالتحذت باختيارها زوجاً أنست برفقته ، وأذاقته
رحيق ريقها ، وأسلمته مفتاح كنزها ، واستسلمت له فيما يراد منها . فلم تر
وجهاً للرأى غير أن تشرح له أطوار القصة طي صحيفة مطولة ، سلسلة
التعبير كصفوف ذوائبها ، محررة بدم العين السائل من الأهداب ، ليكون
الالم عنوانها ومضمونها ، وترسلها إلى المحنون ليرى ما تعاني من أسي
في وحدتها ، وما يعتلج بقلبها من شجن ، ويستبين منها حالها وانفطار قلبها .
وكان من دأبها أن تكتب لنفسها عن همومها . وحين ورد لها هذا الخاطر
كتبت هذه الرسالة التي تم عن جوى الصدر : بدأتها باسم الخالق سبحانه ،
مانع السكينة لمكومي القلوب ، الذي جعل من حاجب الحسناء قوساً ،
ونشر من لحاظها سهام الفتنة ، والذي حلى خدود الغيد بالورد ، فهاج بها

شوق بلبل الروح ، دواء آلام ذوى الآلام ، ومرهم جروح الصدور
 السقيمة ، يحرق القلب والدين ببرق الجمال ، ويضئ العين بصباح الوصال .
 وحين فرغت من ديباجة الرسالة أخذت تتحدث عن حال نفسها
 فقالت : هذه الرسالة تحكى ما استجد فى قصتى ، وهى موجهة من عاشق
 ولهان إلى من اغتصب قلبه . هأنذى قابعة فى زاوية اليأس ، بينما تقود
 راحلتك فى عرض السهول والوديان ، فقدى فى أذيال الغرم ، وأنت
 فى مضائق اللرم . وليس لى من ذنب فى أنى لزمت الصمت ، وفى أنى لم أقدم
 إليك بمعذب الحديث ، فأنا رهينة شعباك ، فكيف أدنو منك وأنت الطليق
 من الأشرار . أيها الفار من الخلان إلى شعاب الوديان ، لا رفيق لك فيه
 سوى الغزلان . ولكى تخبر الظبي بلواعج أشجانك تردد حرفين (١) من
 اسمه ذى الحروف الثلاثة . أيها الحاث الخطى بعيداً من الأهل ، تسابق
 الأوابد عدواً ، أسرع إلى مقبلا ، واعد تحوى ، لتشعل النار فى ذوى العيون
 العمى من الحساد . أيها النائر الدموع على أسراب الظباء ، وعلى قلبك
 من عبء الفراق جبل ، أطلق نفسك من ربة هذا العبء ليتضح الأمر
 فيما يكون . أيها النائي بجانبك عن الخز والديباج ، ويطيب لجنبك المقام
 على الأشواك والصخور ، كيف طويت عنا كشحا ؟ وكيف أنت
 على الأشواك والصخور ؟ من ذا يقاسمك الوسادة ؟ ومن رفيقك فى الفراش ؟
 ومن يزورك مساء فى مضجعك ؟ ومن يتذوق العذب من شهد شفاهك ؟
 ومن يمس براحته جسدك حين تستريح ؟ ومن يأسو جراح أذاك ؟
 ومن يرى كيف قدمك ليلا لينزع ما علق بها من أشواك ؟ ومن يبسط لك

(١) من أسماء الظبي فى الفارسية آهو والحرفان اللذان يرددها قيس ما آه .

المائدة ضحى ومساء ؟ ومن يقاسمك الطعام غير الوحش ؟

وعلى الرغم من كل هذا عليك أن تقوم بالشكر ، إذ لا ريب في أنك
أخف مني حملا . فكل ذرة من جبال غمى ثقل مائة جبل ؛ فمن نصيحة
الآب إلى جور الأم ، إلى السكروب التى ينوء بها الرأس ، إلى ما فرض
على من أمر الزوج . فإذا تأوهت ونظرت إليك قال : من أجل من هذه
الآهة ؟ وإذا بكيت من لوعة الحرمان ، قال ليس لبكائك على سلطان ،
وإذا أردت أن أخطو خطوة خارج البيت ، قال : لا تتجاوزى عتبة
الدار ، وإذا أدت وجهى إلى عين ماء قال : أشيحي عنها بوجهك . وإذا
انتحيت ناحية في جانب السهل قال : إلام هذا الدوران ؟ وإن الدهر الذى
تعهد وردتى بالنماء منذ أطلت على الوجود ، وفتحها برعمة صغيرة بين حاد
الاشواك ، لم يجعلنى فى وثام مع الزواج ^(١) ، فهو أمر لم آت به عن اختيار ،
وكنت خاضعة فيه لسلطان والدى . ومهما نفذ إلى قلبى من شوك ، فكيف
يتسنى لمن رأى ورد خدك ، أو تنسم ريحك على مهب الصبا أن يفتح ناظريه
على إنسان سواك ، أو يصحب امرأ غيرك ؟ فزوجى لم يشاركنى قط
مضجعى ، ولم تمس رأسه رأسى ، ولم يجذب بيده كفى ، ولم يطأ بقدمه أرضى .
وهو قانع منى بالنظرة من بعيد . وقد أضى نهاره من الآسى حالكا كالليل ،
ودق جسمه من الألم كالشعرة ، وكادت الشعرة أن تبت فى صراعه مع
الدهر ، ولكنها مع ذلك سبب احتجابى عنك ، فما أطيب أن تسقط
من بيننا ، كي أرى وجهك بلا حجاب ، وأأمل شمسك بدون سحاب . »

(١) يدعو الصوفية إلى العزوبة للتفرد للعبادة انظر مثلا الدكتور عبد الرحمن بدوى :
رابعة العدوية ص ٥٣ — ٥٧ . ويدعو شاعرنا كذلك للعزوبة فى قصة سلامان وأيسال أنظر
Browne : Lit. Hist. of Persia III , p. 523 — 24.

وقد بدأت الرسالة على استحياء ، وبدأت في آخرها سافرة الغاية ، ثم ختمتها بطابع حبها ، واضعة في نهايتها حلقة ميم السلام ، ثم طوتها كعلبة لؤلؤتها روح العاشق ، ضناً بها على عدول يتربص الدوائر ، وكتبت على الرسالة من فيض دم العين : ليرحم الله تعالى امرأ لديه من المروءة والتضحية ما يسأل به عن خبري أنا التي مللت الحياة في منزل الغم ومقام الهجران ، وفي مدينة البلاء ومُلك الحرمان ، فأسأله أن يوصل إلى قيس خطاب الوفاء ، ليقف على حال أسيرته .

(٣٧)

قيس يتسلم رسالة ليلى

فرغت ليلى من رسالتها، وختمتها بالغالية، وخرجت في قوامها المشوق من خيمتها تبحث عن رسول، تخطر بين خادمتهين لها كأنها الحجلة رشاقة. وكانت خيمتها تطل على مروج قريبة من عين ماء فضية يرد حوضها الظامئون في الصحراء، فزيفت بمقدمها تلك العين، وغسلت يديها بما سوى الحبيب، وجالست غافلة عن نفسها، عيناها على الطريق ناظرة كأنها في صفائها عين الماء، علّ امرأً يقدم إليها ويكون على يديه تحقيق سؤلها. وجأة انكشف غبار الطريق عن عربي على راحلته، ليس بريح وهو أسرع من قاطئ الريح، وليس بسيل ولكنه أسرع عدوا من السيل الجارف. فلم يكدر يتردد إليها طرف حتى أصبح منها كالكعبة من زمزم، ونفض عن أذياله غبار الطريق، وأناخ راحلته على حافة العين، وقرب من المورد كالخضر^(١) فروى منه وجلس جلسة الخضر. فقالت له ليلى: من أين أنت؟ فإني أجد منك طيب ريح الصداقة — فأجاب: من أرض نجد الطاهرة، وغبار أرضها لكل الأبصار. فمن تلك الأرض نبتت زهرتي، وفيها تفتح كالوردة قلبي — فقالت له ليلى: هناك بأئس "بئر" الحلق، لقيه المجنون واسمه قيس، يدور في تلك الديار ضالا مكروباً عليه مظهر الحـداد؛ ألك به معرفة؟ وهل لك من سبيل إلى التحدث إليه؟ — فأجابها: نعم، فأنا له صديق، مُستظل بكنف وفائه، مشمر عن ساعد الجد في محبته. وطالما

(١) كالخضر في ورده عين ماء الحياة

تحدثت إليه أسرى عنه اللهم ، وأدعو الله له أينما كنت كي يسكن خاطره .
فقالت ليلي : وكيف حاله ؟ - فأجاب : دائب على إرسال الآفات من العشق
دائم النفور من الناس ، فارّ مع الوحوش مستريح إليها فحينما يتلو من القوافي
ما يلهب الصخور ، ويسيل على الجلاميد من حرقه كبده ما يصبغها بالدم ،
وحينما يهذى في ركن غار ، وعلى وجهه من الأسى غبار — فقالت ليلي :
أو تعرف — أيها العاقل — من هي التي وقع في حبال حبها ؟ فأجاب :
نعم ، من أجل ليلي يرسل كل لحظة من نظريه سيلا . فليلي حديثه حين
ينفض ، وليلي همه حين يبكي . وهذا الاسم غذاه روحه ، اكتفى به عما
تجود به الطبيعة من غذاء على مائد طعامه ، وهو كل ما يجري على لسانه ،
وهو غايته من لسانه .

فأسالت ليلي من جفونها دموع الدم ، وأبرزت من ضميرها كمين السر
قائلة : أنا طلبة روحه ، واسمى أنا هو الذي يجري على لسانه . ومن لوعتي
احترق صدره ، وعلى ذكرى طاب بستان خاطره . وأنا التي أشعلت ناري
بفؤاده ، وأضأت بنوري جوانب عيشه . وأنا كذلك التي صيرت أنحساء
روحه خراباً ، وشويت أضلعه على حر جمرى . ولسكنه يحمل ما أنا عليه
من أسى يشرف بي على الهلاك ، ومن لوعة تلفح كبدي . وروحي فداك
إذا استطعت أن تنهى إليه من أخباري . فعني رسالة مسطرة بدم مهراق من
القلب ، فناشدتك بما له عليك من حق الوداد إلا حملت مني هذه الرسالة ،
لتسلمها إليه يدا بيد . فقم بما أنت له أهل من دين الوفاء ، وعد إلى بجواب
هذه الرسالة . وستحمل إليه أسى وتعود إلى بلوعة ، وستسلم له شمعاً وتأتي
إلى بمصباح .

فنهض ذلك الشاب ذو المروءة قائلاً : يا من غمرت بالأسى قلب المجنون ،

حق لى الفخر أن أبذل جهدى ، وأن أسلم راضياً روحى فى سبيل نعيمك .
فكل حرف من رسالتك هو لدى المجنون الحياة ، بل هو من الحياة أفضل .
ولا أعلم يدا أسديها له أعظم من حمل هذه الرسالة إليه .

فتبدل ما بليلى من أسى النفس سروراً ، ونشرت من جيبها مكنون
تلك الرسالة ، ووضعت فى طياتها رمزا للشوق شعرة من سود ذوائبها
وعود عشب جاف ، تريد بذلك أن تقول : منذ اليوم الذى انفردت عنك
صرت نحيلة كالشعرة ، شاحبة كالعود .

ثم أسلمته رسالتها إلى من شهر بالعشق ، خف بها من مكانه إلى ناقة
أليفة أسفار ، وأخذ يقطع الطريق إلى مقر المجنون . ووصل سليماً معافى
فأخذ يعدو يمينا ويسارا ، لا يعثر للمجنون على أثر ، فكاد فواده ينفطر
غما . وسار إلى ظل شجرة ليستريح برهة من جهد الطلب ، فرآه صريعا
كالثمل (١) ، قد أفلت من يده زمام العقل ، ليس بنائم ، ولكنه مغمض
العين ، يقظان القلب ، متحرر من ذاته . فعينه هناك وروحه فى مكان آخر ،
وهو باد هناك ولكنه مختلف فى مقام آخر ، قد خرج عن دائرة القمر
والشمس ، وتسامى عن نطاق الفلك ، وانقطع عن دعوى العشق ، ولوى
عنايه عن المعشوق ، وغرق فى بحر العشق ، وانصرف عن كل شئ سوى
العشق (٢) . وعلى الرغم مما بذل الرسول من حيلة كي يلتفت إليه ويعى له ،
لم تأت حيله بجدى ، ولم يصل بصياحه إلى مسمعه مهما ارتفع به . فأخذ
يحدو جهر الصوت بأغنية تردد صداها فى أنحاء الجبل ، وكان حدأوه باسم

(١) يصف الشاعر هنا قيساً وقد عمرته نوبة وجد صوفى .

(٢) أى العشق الإلهى الذى كانت ليلى سبيله إليه ، انظر فصل ٤٨ من هذه الترجمة ،
ثم انظر الفصل الثانى من الباب الثالث من كتابى : الحب العذرى وحب المتصوفة .

(م — ١٠ ليلى والمجنون)

ليلي ، فسرعان ما وصل نداؤه إلى قلب المحبوب ، فأفاق من غيبوبته ، وعاد إلى نفسه على سماع ذلك الاسم ، وقال : من أنت ؟ وأى اسم تردد ؟ وما غايتك من ترداده ؟ — فأجاب : أنا رسول ليلي إليك ، خصّستني بحظوه تلك الرسالة ، وليلي أنيس روحك ، ونور عينيّك ، ومثيرة دموعك — فقال المجنون : ولـكنك لم ترع حرمة الأدب ، إذ لم تطيّب شفاهك بالمسك وماء الورد ، ومن أنت والنطق بذلك الاسم كل لحظة ؟ ولم تلك الجراءة ؟ فأجاب في عجب : بل أنا لسانها وترجمانها إليك ، أحمل إليك منها رسالة كالدر المكنون أقدمها برهان إخلاصى لك . وها هي ذى الرسالة ، وكل كلمة فيها هي من رشح شبابة قلبها .

ولما سمع المجنون اسم الرسالة مشى على رأسه كالقلم ، وجلس أمام الرسول جلسة ذى الحاجة ، وتسلم منه رسالة الوفاء . ورأى اسمها على عنوان الرسالة فقبّلها وأمرّها على عينيّه ، ونفدت إلى رأسه نكهة الوصال ، وأطفأ ذلك النسيم مصباحه ، فسقط فاقد العقل والوعى ، وفقدت عيناه النظر ، وأذناه السمع ؛ وحين عاد إلى نفسه أخذ يحدو بنغمة الشوق قائلا : ليست هذه الرسالة من الحبيب زهرة في روض الأمل ، ولـكنها روض ذو مئات من الورد للقلب الكريب . وهي على مائدة الوفاء لقمة منحّتها سائلا على تلك المأدبة ، مختومة بالمسك كسناجحة الظبية ، كأنها ذؤابة من غدائر الحبيب ، وهي رقية ذوى القلوب السليمية ، سيجل بلاء أسرى البلاء ، مرقومة بقلم حسن الخط ، وفيها طراوة الجدة .

وحين فض رأس الرسالة أطلق من رأسه ذلك الشيد : ليست هذه الرسالة باكورة ربيع وكفى ، ولـكنها بستان من البنفسج ، يشرح الصدر نقش قلبها ، ويشقى القلوب ما تحلى به ورقها ، مسطورة على صفحات الشوق

من قلب كليم قوسه الالم . وكان صفوفها نمال من العنبر اتخذت طريقها فوق صفحات من الكافور ، وتحمل كل نملة منها إلى عشها قلباً من قلوب البائسين كأنه في فيها حبة . ولكل حرف من حروفها مذاق الخمر وشكل الكأس ، فإذا حسوت من تلك الخمر جرعة أخذت ترقص ثملاً . وتبدو سطورها واضحة كأنها ملاسل من المسك ، كل سلسلة منها قيد لأقدام ألف عاقل .

ثم شغل بقراءة الرسالة ، وحلى بها جيد روحه . ورأى منه الرسول ذلك فقام إليه يرجوه في كتابة الرد . فقال قيس : كيف أسطر جواباً ؟ وإنى لا أكتب على وجهي بدم دموعي ، وأنا فارغ من الورق والقلم ، ورقى الرمال والقلم إصبعي .

فامتطى الرسول في الحال ناقته ، وسار مرحلة حوالى ذلك المكان ، وأسرع في كل صوب ، حتى وجد في المساء طريقه إلى قبيلة ، وظفر منها بما كان يطلب . وحين نشر الصباح أعلامه نهض ولوى عنانه شطر قيس ، ووضع أمام الكاتب أدوات الكتابة ، وأخذ المجنون يخط رسالته ، وابتدأ قائلاً :

رسالة المجنون إلى ليلي

ديباجة رسالة الأمانى ، وعنوان صحيفة المعانى ، لا يليق أن يكون غير اسم مسبب الأسباب ، الذى به تتفتح أبواب الغنم ، وهو مطلق يد التدبير ؛ الحى واهب الروح وقاضها ، مقصّر يد المحدودين ، ومونس خلوة الغرباء ، مجلّى مورد الوجود ، ومخفى كنز العدم . من أسعفه بنعمة الوصال سما برأسه فوق الفلك ، ومن أحرق صدره بالهجران أحاطت بغلات وجوده النار .

وعندما فرغ من حديث المقدمة أعرب بالحناء عن سر قلبه المسكوم قائلا : هذه الصحيفة آية المحبة ، من مصاب القلب إلى حبيبة القلب ؛ أى مى ضجيع الأشواك إليك أيتها الوردة الناضرة ، ياشبهة الربيع نضرة وابتساما ولكن فى غير عيون البائسين . أنت حديقة واسكنك مجثم غراب ، مرهم لكل الناس واسكنك لى داء . يا ذات الوجه الحىء دونى كالكنز ، بينما هو در على أذيال الآخرين . أنت سحاب حظى منه أحيانا البرق ، ولا ينالنى منه قط غيث ؛ بك تصبح كل أرض جنة فيحاء ، ولكن أرى بك رطبة بدم الدموع ، وكل ماتوليننى من عناية أنك تحرقين ببرقك حصيد أحشائى ، فرقا ببحرق الحشا مكروب ، وأفيضى عليه من معين لطفك يادين ماء الحياة ، وأنا دون فيضها ظمى . أكتوى بمئات الجذوات ذات اللهب . نعم كان الخضر أهلا لورود عين الحياة ، فلا ضير أن يموت - وهى إذنه

مائة إسكندر^(١) . وقد احترق الاسكندر ظمأ إلى تلك العين ، وجف دونها كأنه ناجفة ظبية ؛ ولكن أين ألمه مما أقسى أنا رهين ظلمات بحر البلاء ؟ في اللحظة التي وصلت إلى فيها رسالتك توضع بعطر الوفاء من قطرات قلبك ، وضعتها على عيني الفائضة بدم الدموع ، وأنزلتها من صدرى في مكان الروح ، وجعلت منها رقية لقلبي المعمود ، وغذاء للعين ، وقوتاً للقلب ! . وأسأت بكل حرف قرأته منها قطرة من دم القلب . وأثارت نقوشها في صدرى ألحان الأسى . وكانت كلماتها نواة السحر ، نمت بها أشجاني وطفت بها على المهوم .

وقد قلت : إنك بدوني تعانيين ألم الوحدة ، ولم تفسينى قط . ولكن من الإنصاف ألا تُزهِى بعشق إنسان وأنت في أحضان آخر . وما جدوى الحديث عن الإخلاص إذا تدنست شفاهك بقبالات سواى ؟ وعلى افتراض أنك فوق النقص والدنس ، فأى مجال فى ذاك لظنون السوء لدى العاشق المسكين ! ! فهو فى كل لحظة أسير مئات الشكوك . وكل شبهة لديه دليل ، وكل ذبابة نافقة هى فى خياله فيل حى . فقد يتوهم من الظنون ما يقطع الجبال فتأوى جبال الهم إلى صدره . ويرى فى النملة ثعباناً ، فيحس لذلك الثعبان ألف ناب فى قلبه المنفطر . وإذا سقط طائر يلتقط الحب على سقف بيت الحبيب ، أدرك المحب منه غبار الشك فى أنه رسول يحمل رسالة من آخر إلى الحبيب .

وقلت : إنك فى شغل عن عناقه ، راغبة عن قبلاته . وحسبى أسى أنه يرافقت من الصبح حتى المساء على أمل أو يأس ، وأنه يرى ألف مرة

(١) هى عين ماء الحياة التى شرب منها الخضر نخلد ، ولم يستطيع وردها الاسكندر ، راجع لهذه الأسطورة الشاهنامة تعليق وتحقيق الدكتور عزام ج ٢ ص ٢١ .

في النهار ذلك الوجه الذي لم أره منذ سنين ، وتلك الثمرة التي ان أقطفها
مدى العمر .

وقُلْتُ : إنك صريعة الألم ، على شفا الهلاك من الغصص ، توذنين
لو اختفى من الطريق ، أو تبدد في الهواء دخاناً ، وما أكثر ما يبدو لك
من أصدقاء لو اختفى ! وما أكثر ما يظهر من متنافسين للظفر بما حُييت به
من صفات ! وإذا طار عن شجرة التين غراب ، فهناك سواه في الحديقة
مائة غراب . ولكل امرئ من ولئك أسباب يتوطد بها أمله ما عداى ،
فيوم أملى بعيداً صبحه ، وأنا طيب الخاطر باليأس . فما لي والأمل ؟
وكفاني ما يحز في صدرى من أنك أمل الآخرين . فإذا أردت إرضاء
العدو رضيت أنا بما تريدين ، ورغبت فيما فيه ترغبين . ومن الخيف أن
يُدعى مهيئاً من ترصينه صديقاً ، فهو بصدافتك ذو خطر ، قد صار
من الصفوة ولو كان قبل من الدهماء . ولا يحمل في ألا أتخذ صديقاً من
تختارينه صديقاً ، فهو منى مكان التقدير والوداد . وخير لمن يعانى من أجل
حبيب أن ينزل على رضا حبيبه ، وأن يصرف عنه عن هوى نفسه ليسرع
الخطى في طريق مراده . فالعشق بعيد من هوى النفس ، والعاشق من ينفر
من هوى نفسه ، فهو طروب في أساه راض بهوموه ، وهو تراب في ديار
اليأس ، فلا ظل على حرمانى ويأسى ، طيب الخاطر ببلاء الدهر من أجلك .
ولا زال الدهر طوع مرادك ، ولا زالت مع الخلان في وفاق ، وإذا مت
فلك البقاء .

(٤٠)

وفاة زوج ليلى

هكذا جلا ساحر البيان أسرار هذه القصة ، ومضى في تصويرها قائلا :
 قد شهرت عصا العصيان على زوجها تلك الشبيهة بالكعبة الفريدة
 منظرأ ، الساحرة المحييا كأنها من صور الصين ، أعنى ليلى قمر السماء ، التي
 جازت زوجها سويا على طبيته ، فقصرت يده عن باب حصنها ، وحطمت
 في وجهه مداخل الرجا ، ولم تفتح له صحائف المراد ، ولم تدن له بالانقياد ،
 فوقع المسكين على سرير المرض ، ولم يحظ من وصالها بغير البلاء ، ولم يحن
 من وراء حسن نيته غير الضرر . والوصل الذي لا يتجاوب فيه الحبيب
 مع الحبيب لا ينال المحب من ورائه غير صنوف الأعباء ، ورؤية جنة عدن
 من بعيد دون قطاف ثمارها أشد من عذاب النار على البائسين من أهل النار .
 وازداد به المرض قليلا قليلا إثر ما ساور خاطره من الأشجان . ولفحته
 الحمى بلمبيها فاحترقت عروق نبضه ؛ وكان يحس كل من يضع إصبعه ليحس
 نبضه كأنما وضعه على شمع تحته نار . ووقف على رأسه طبيب عالم ، حاذق
 في علاج الصعاب ، وفحصه ليوقف على مدى مرضه ، وكشف عن عينيه
 فنفض يده من الأمل فيه . واستمر بضعة أيام يتلوى من الألم كالثعبان ،
 وإذا عناية الله تبسط يدها إليه فتضع حداً لآلامه ، فخلصت نفسه من الصراع ،
 وتحررت روحه من سجن هذا القفص ، وطار طائرهما مخلقا في عالم الصفاء .
 قد أسلم الروح ، ومن ذا الذي تخلد آلامه ؟ ومن ذا الذي يسلم الروح بدون
 آلام ؟ فالحي لا يندرج في قالب الموت ما لم يقاس الآلام ؛ قد تمسكت

في الدنيا قليلا في جهد ، ثم ترحل عنها في ألم لا ينقطع . ففي مقامك فيها
آلام ، وفي رحلتك عنها آلام . واهأ لهذا العالم ، آلام على آلام ! وينجو
من آلامه كل من بكر منه بالذهاب . ألا فانصرف عن هذه الدنيا موطن
الآلام ، واهرب من ذلك العدو المبين . فالصبح في لون الرومي والمساء
في سواد الزنجي لصان لا يستحيان ، وهما واصلان منك إلى ما يريدان ؛
فذاك يخذلك بما ينثر من ذهب النور ، وهذا يسحرك بما في كفه من جواهر
الفلك ، حتى يستنفدا منك كنز الأبد ، وينزلاك في عذاب الخلد ؛ فذار
أن تقع في خداعهما ، وأن تغتر برونقهما وجمالهما .

وكان قلب ليلي من حرقتها لفراق المجنون كبرعمة امتلا كأسها بدم
الأشجان ، فاتخذت من موت زوجها تعلقة لتسيل دم قلبها دموعاً . وفككت
في مآتم زوجها عقد الآهات عن صدرها ، تلك الآهات التي كانت قد
أشعلت النار في حميد صبرها ، وأطلقت في الفضاء خبي أشجانها . وكانت
تصيح باكية : حبيبي ! حبيبي ! وتنظم درالقول في فراق الحبيب ، ولم يكن
قصدها به الزوج ، بل كان في رأسها خيال آخر . وقضت زمناً في لباس
الحداد ، قائمة بما تفرضه عليها عدة الوفاء ، فكانت في ليالها رهينة فراش
الأسى ، ساهدة تبكي حتى الصباح ، وفي النهار نهياً لجوى الفرقة ، تشعل
بآهاتها جوانب العالم . وكان مآتم زوجها تعلقة لظهور ما كمن من العشق
في قلبها . فقضت عمراً في طويل البكاء والآهات ، فقصرت بذلك عنها
إسنة الخلق .

(٤١)

بكاء المجنون على غريمه

أراد ذلك الأعزى - الذى كان قد تجاوز حدود الرشيد فمثل يوماً أمام المجنون وأخبره بعقد قران ليلي فأدى فؤاده - أن بأسو ذلك الجرح بمرهم الحب ، فتوجه صوب ذلك الجبل على أثر عليه ب وفاة الزوج ، وأمعن فى البحث عن ذلك الهائم على وجهه حتى عثر أخيراً على أثره : وقال له : لدىّ لك بشاراة أقولها إذا أذنت لى فى القول : ما كان قد اعترض طريقك من شوك أصابت فؤادك به طعنة قاتلة حين سقّيتُ لك خبره قد أزاحه ربح الأجل من الطريق ، ولم يبق له فى الطريق من أثر . فقد خرج زوجها من حدود الدنيا موطن الآلام . ونجا ذلك الفتى الوسيم بما كان يعانى من أسى ، ووهبك بماته البقاء .

وسمع المجنون حديث موته ، وعلم أنه اسلم الروح ، فتلوّى ألماً ، وأخذ يبكي بكاء السحب فى الربيع ، واسترسل فى البكاء حتى تسامل جليسه عن سبب بكائه فى فصيح من القول : يا سيد العاشقين ، ويا خبيراً بدقائق أسرار العشق ، سمعتُ فيما مضى عقد زواجه ، فزقت ثيابك من الغصة . واليوم وقد سبق إليك خبر موته ، وعلمت انقضاء أجله ، ترسل نائماً نفس البكاء والزفرات . فكيف وفقت بين الحالين ؟ إذ عقلى قاصر عن إدراك السر . فأجاب المجنون : بكيتُ فى ذلك اليوم لما أصاب روحى من تلف

بزواجها . ومن لا تنهل دموعه حين تحز به الشدة فهو حجر ، وإن كان آدمى المولد . واليوم أنثر الدمع لما اتهم فؤادى من نار بذلك الخبر . وذلك أن زوجها قامر فخر ، ولم يفقه فى صفقته ذهباً وفضة وكفى ، بل خسر ما كان يملك جملة ، وكان خلى الفؤاد بما سواها ، وكان طائر وردتها النضرة ، وشربكها فى المسكن ، يستمد نور باصر تيمه من بقائها ، وقد قضى نحبه محروماً من وصالها ، وأسلم الروح من تباريح عشقها . وأنا المقروح السكبد الميكروب الفؤاد ، وآلاف الفراسخ بينى وبين أحضانها . أضرب كل يوم فى عرض الديار ، وأقبع الليل فى زاوية غار ، فلقائى لها خيال ، وقربى منها محال ، سوى أننا كلينا من سكان عالم واحد ، ودوننا سماء واحدة ، وتمس أقدامنا وجه أرض واحدة ، ونعيش فى عصر واحد . وأنت تدرى أنى سأقضى نحبى فى الحبيب ، ذليلاً على سرير الهجر ، مثقل الصدر بعبء فادح . وسأخر صريعاً فوق الصخور والأشواك ، مهجوراً من الحبيب نائياً من الناس ، لا رفيق لى غير ظباء الصحراء ، ولا محرم لى سوى قطعان الحيوان . وسأكون فى سكرات الموت كغزال ثمل ، وسأخرج يدي من جيب هوسى لأحتضن غزالاً على صدرى ، وأنزع شعرى بيدي ، ثم أفقد الوعى ، وتشدد روحى فى طريقها الرحال ، ويضحك من موتى الدهر القاسى وتنوح على الأطباء فى مرقدى ، ويشيعننى إلى مئوى القبر ، وسأوى إلى اللحد حتى القيامة من أجل ذلك الظبي الذى لم ييال بما نال من غرم . وحاشا للمثلى - وأمامه من المستقبل ما وصفت ورحه نهب لذلك الأسى - أن يطرب بموت الأعداء ، أو يسر بانقضاء أجلهم . وكيف أضحك مسروراً حين يصاب آخر بألم أشكو منه وأضيق به ؟ ومتى نسى

نصيب امرئ الفلك الدوار والطاغية الجبار ؟ فإذا كان قد جرى بالأمس
بمصائب عدو ، ففي غمد دورى ليحطمني تحطيم الزجاج . وخير لمن يسر بالأم
الناس ألا يعيش ، وأولى له أن يبكي على محنة نفسه . فالحكيم في دار الهموم
هو المذنى لا يفرح بما يصيب سواه .

هكذا قال ونهض محيياً ، واستأذن في طريق سلوك محنته ، فشد ذلك
الرجل رحله إلى قبيلته ، وبقي هو مع عشيرته من الحيوان .

(٤٢)

في طريق المجنون إلى ديار ليلي

الكلب الطريد

نظم راوى هذه القصة فيما نظم جواهر الحكم فقال :

كان قيس غريقاً في أحضان المحيط الزاخر العباب ، نهيب العقل سليب
الرشد ، تكسرت سفينة عاقبة فتعلق منها بلوح ، فحين سمع ببشرى موت
عدوه سرعان ما فكر في نفسه ، فأدرك أن عقبة أزيحت من الطريق فصار
الوصول أقرب منالاً . فالبدر في مهده ولا حراس دونه ، والوردة
بعده نضرة لم يعرفها ذبول الخريف . فحدا به الشوق إلى ديار الحبيب
عادياً كراحلة تسابق الريح ، أو كفرس سموح ، حتى وصل إلى حبيبتيه
الوفية ، فتلفت حيران ذات اليمين وذات الشمال يفتني أثرها ، وإذا به يرى من
بعيد كلباً ^(١) سقط لإعياء وعجز عن السعى ، ووهنت ساقه وكلّ مخله عن
الصيد . يقف شعره إن عوى ثعلب ، ويثوده خوف الوحوش . قد هزل
حتى بدت ضلوعه من جانبيه ، وصار جراباً بداخله عظام ، أو كحبة مليئة
بالقيس . وخلت يداه من الشعر ، واشتبكتا حلقة في شكل الثعبان .
وخلا جوفه من الطعام ، وحمل عليه الجوع ، فقضت أسنانه ، حتى يخيل
أنه جعل من عظامها طعامه . وبدت في جسمه من الأرض الخشنة جراح
سال منها دم غمر جنبه ويديه ، وكأن كل جرح في جلده فم ، وفيه القميح

(١) لهذا الوصف الواقعي المثير نظير في الأدب الفرنسي في وصف بودلير للجيفة :

Une Charogne : (Baudelaire : Les Fleurs du Mal XX 1 X)

كاللسان ، وتطل من بينها بيض العظام كالأسنان ؛ لابل صار جلده منها كشبكة عيونها مليئة بما يشبه الخملونا ، وليست بشبكة للصيد ، بل هي مجلبة للذباب يطلب قوته . وكأن الثعلب يخاطبه كل لحظة في لهجة الساخر المتكبر أن هيا أنشب أظفارك - أيها السبع المفترس النثور - في هذا الثعالب المسكين . حتى متى ترقد عريان على وجه الأرض ؟ ألا فابحث بمخيلك لك عن فراة . ورأى المجنون منظر ذلك الكلب فجرى إليه ، جريان الدموع من عينيه ، ووقع كالظل دونه ، وقبل ألف قبلة تراب ساقيه ، وغسل بدموعه أقدامه ، وفرش له من الرمل الناعم سريراً ، وجعل من ركبتيه وسادته ، وأظله من حر الشمس ، وضمد بدمعه جراحه ، وأزال عن جسمه الأدران براحتيه ، ونفض الغبار عن رأسه ووجهه ، وطرده الذباب عن ظهره وجوانبه . وبعد أن مهد له مرقدأ أطلق صوته بهذا اللحن الجميل :

يا من قلادته طوق الوفاء ، فـداءً لك ليوث الأرض . أنت تفضل الإنسان ولاه ، وتفوق المحارم لإخلاصها . لا تصد عنك طعامك من يده لقمة واو رماك بعدها بمائة حجر . وأنت في الليل حارس ، وفي النهار راع ؛ يمل اللص منك مهنته ، والذئب منك أسير مخلب سبع ، نباحك يوهن قلوب اللصوص ، إذ يهيب بالعمس أن يمسكوا بهصيتهم . ولشعرة منك في ميدان العراك بألف حارس لدى الألباء . إذا غدوت في طريقك أسد القلب ، فالعمس دون الكلب . وكم ضال في حالك الليالي هديته إلى الدار بنباحك . صوتك ليلا نغم عذب يحلو لمسمع ابن السبيل . فإذا وصل نباحك إليه من ديار الحبيب فقد أنفك إسمار روحه . فإذا انصرفت للصيد كان صيدك للملوك ، يطلقونك من سواعدهم قوساً ، ويرمونك من قبضتهم أنشوطة أحبولتهم ، وأنت إذ ذاك مكسو بالخز والديباج ، في عنقك قلائد

الذهب والجوهر . ومن يعجز منهم عن اللحاق بك عدواً يقف على أثرك بحصانه ، فلا يزال يتبعك حتى تجود عليه من طعام مائدتك . وما بك من تقصير حين تعدو لجلب فريسة ، بل تخلف ورامك ظل باز الصيد . وسواء وقع الطير لك فريسة أم أطلقته الريح من كروب إيسارك ، فكم ثعالب ما كرهت اخترقت جلدتها مخالبك ، وهي اليوم معروضة في دكان الفراء . ويرهب النمر قوة مخالبك من قبل أن يُبْسَلَى بسطونك ، فيبقى معتصماً بقلة الجبل على ماله من صولة يدّرع بها سلاحاً واقياً . وسمع الأسد بمكرك فتواري خائفاً في اليراع ، وانصرف عن نزالك على ماله من رماح مسددة من لبدته . وأنت آفة الغزلان . وما قوى الظباء المسكينة إلى قوتك ؟ ! ولا ينجي حمر الوحش حين تبلوها بصولتك ما اشتهرت به من سرعة العدو . وإذيراك الأرنب الجبلي نائماً يهرب خوفاً من عينيه النوم .

هذه هي قصة شبابك ، وتاريخ حياتك الظاهرة . والآن وقد حطم الدهر قواك ، وفقدت مخالبك قواها ، يهجرونك مهيناً محقوراً ، لم يبق إنسان منهم يحقق عليه . وسأظل رفيقك حتى الموت ، ثم حاشا أن أنساك بعد . فقد أقمت زماناً على أعتاب ليلي ، وكنت دهرأ حارسها ليلاً . فهما تخلى عنك هذا الشرف ، وسقطت دونك الرتبة ، فأنا الأسيان على سوء مصيرك ؛ وسأجعل من حلقة ذيلك لى قلادة ؛ فأبسط إلى يد الصداقة ، ومد بها حول عنقي طوق السعادة . وأنا القائم لك بحق الوفاء ، أضع وجهي على تراب أقدامك ، إذ سارت أقدامك في ديارها ، وطالما جرت على أثرها ، ولم تسترح ليلاً في حراستها ، بل كنت تظل تدور حول خيمتها . وأقبل عينيك إذ طالما نظرت بهما إلى حياها ، وقد اكتحلتما — من ريح طريق تلك الظاهرة العرض — بميل الشوك وأعواد العشب . وأعقد على ذيلك

جواهر الدمع ، فكم طرقت بحلقته ذلك الباب ، وأود أن ألصق قلبي على ما وسّمتك ليلى به من علامة حتى تصير ناره برداً وسلاماً . وموجز القول أنك من رأسك حتى القدم كنت غارقاً في نور جمالها ، وأريد أن أخلي لك مكاناً في قلبي العامر بها ، فكن دواء الجراح التي أرسل منها أناني . ولست إلا تراباً في طريق وفائك يامن جبل على الوفاء . فأماناً وعهداً وألف أمان ؛ وأسألك - إذا وصلت يوماً إلى تلك الديار وعدت إلى ورود أنهارها ، ومررت بديار الحبيبة ، وكان لك شرف المشول على أعتابها ، وجال مفرقك غبار طريقها - أن تتقبّل لي آثار أقدامها أينما وجدت الآثار ، وأن تمرغ من أجلى رأسك في تلك الأرض . وإذا وقفت ضيفناً على مائدتها ، وركمت إليك بعظمة من بقايا طعامها وطابت بها نفسك ، فتذكرني ضيفنا مثلك على مائدة نوالها . وحين تتردد ليلاً على أعتابها ، وتراها في لباس نومها ، فذكرها بي ساهداً في أرض الهوان ، نائياً عن تلك الأعتاب . وحين نهى أ مطار الربيع فتغمر أردان خيمتها ، تجذّ على بشرح قصة عيني الهامتين بالدموع من أجلها . وضع طوق منتك في عنق مذكرا لها بأني كأوتاد خيمتها المشدود عنقها بالأطناب ، ففي عنق مثل هذه الحلقات من الجبال ، وأنا بعد أوزح تحت أعباء من الأهوال . وإذا أصابها الارق يوماً فخرجت تنزه في ضوء القمر ، فاتخذت علة أنك تهدّها للنوم ، لتحكي لها هذه القصة على لسان الحب الواله : « يا شبيهة الليث في الصيد ، والغزال في الحسن ، وبهاء جمالك مشهر كالسيف في لون دم الأبطال من ضحاياها ؛ حتام أظل غريباً صريع الوجد ، أضرب هاماً في الجبال والسهول . قضيت عمري بعيداً من بابك ، رفيق الظباء وحر الوحش . واليوم أمثل للقرب منك . ولكن ناظري مظلّم من غبار الحجر . وأخاف أن أتقدم خطوة

إليك ، فتصيب أشجانك بحُـمِّها قلبي . وإذا كانت عقبة قد أزيحت من
الطريق فهناك مائة أخرى مهياة . ومهما يكن البطل ليثاقهارا فهو في خطر
الوقوع في حيلة ثعلب مُـسِنٍّ محتال . وقد يصيب الثعلبُ الأعرج برائنَ
الليث المحطّمة للأحجار . وأنا الجسور المقدام في غابة تلك الديار عرين
الأساد ، وإنما أسمى في طريق الوصال ، وأنصيد لحظات قربك ، كي أظفر
بصيد وصالك ، وأتخذ عرينك مقاما . فإن لم أصل ظِلِّلتُ كما عهدتني
يظلني خيال الموت دون القصد ، وسأقضى نحبي ، فتخلصين من أمرى ،
وأخلص أنا من نفسي .

(٤٣)

المجنون يزور ليلي متخفياً بين القطعان

راوى هذه القصة بقصتها وقضيضها ، قد استخرج هكذا لبها من قشرها ، فقال :

حين وصل قيس إلى ديار الحبيب — وهو الخبير بمآتى الأمور النافذة إلى لبها ، والواصل من قشورها إلى لبابها — دقَّ عليه الأمر دقة الشعرة . فلا لديه إجازة بالمثل أمام الحبيب ، ولا صبر له فى البعد عن تلك الديار . وقد اشتد به الشوق لقرب الدار ، وأمامه ألف عقبة دون الوصال . فهام فى ديار الحبيب والهأ على غير قرار . وكلما رأى شخصاً فى تلك الديار ، أو صادف امرأ فى الطريق ، بحث لديه عن حيلة فى أمره ، وطلب منه دواء لقلبه المصاب . وذات يوم كان يدور حول ذلك السهل إذا قطيع يمر على بُعد ، وحول القطيع نفح عبير ينبىء عن ريح الحبيب ؛ وعلى وجه الراعى شبه لمعة نور من أنوار ليلي تتألق من بعيد ، فأضاء مصباح هواه على رؤية تلك الإشراقة وقال : ياذا العباءة السوداء ، ومنك ينبعث نور كنور موسى الحكيم ^(١) ؛ كل جبل بمقدمك طور ، وفى الطور من نارك نور . يا من بك هذه الأرض كالوادى الآيمن ، ومن ترهبُ السموات عصاك ؛ فأينما تلق بعصاك من كفك تنزل بها ضربة فى عراك الحيوان ؛ ومهما بدت فى يدك فى صورة العصا ، فهى شعبان ^(٢) مبين فى عين الخصم .

(١) من الواضح أن الشاعر يقتبس معانيه من قصة موسى ورعيه الغنم ، انظر مثلاً سورة القصص فى القرآن الكريم آية ٢٨ — ٣٣ .

(٢) فى الأصل انتردها ، وترجمتها شعبان مبين لمناسبة السياق فى الاقتباس من قصة موسى .
(م ١١ — ليلي والمجنون)

وصوتُ مقلّاعك أمان للمروّس من الوحش . وحينما تسدد أحجار
مقلّاعك بقوة عضدك ، يُولّ الذئب عن قطعانك ، هارباً ينهض من خوفه
ويقع . ولو كان صيدك فوق بروج الأفلاك التي تعيا بها آلات الحرب
فصربتَ إليه أحجارك ، لهُوى الصيد مرتعداً خوفاً من فوق البروج . يامن
كئوس ألبانك مائدة مبسوطة يطعم منها الناس ؛ والصباح كأنه كهل
أشيب يقدم من فيض تلك الألبان غذاء لصغار الضأن والمعز . أو تبخلُ
على برّى مائدتك وأنا الظامى الأسير ؟ فلا تكن حرباً كالدهر على ظامى
الشفاه ، وجُدْ على فى المحترق بجرعة من ريّك . وما بى حاجة إلى غذاء
الجسد من الألبان ، بل إلى ذلك الغذاء الروحى . ولا يغيب عن لطفك
وودادك مرادى . فافتح لى باب ديار ليلي ، واحملنى خفية إليها ، حتى أجالس
فى ركن أتأمل جمالها المحتجب دونى . وأطيب نفساً منك بطوق تقودنى به
إليها ككلب فى القطيع ، فلعلنى أستطيع فى جملة كلابها أن أمرغ يدى على
على أعتابها . أو امنحنى كرمأ منك ووفاء فراء نعجة ألبسه فوق جسمى
المهدم الهزيل ، لا جلد به ولا لحم ، وإنما هو عظام فى جراب . فقدنى إليها
عظاماً فى ذلك الجلد وسط قطيع جعلت فداه من قطيع . علّى فى حريم
ديار الحبيب أنتظم فى عداد صغار النعاج . وحين يغشى القطيع ذلك الحريم
ستلقى عليه ليلي نظراتها ، فتشملى كذلك هذه النظرات وأنظر إليها
أنا بدورى ، فأرى وجهاً يحترق قلبى شوقاً من فراقه .

هكذا قال ، وسقط كالظل إعياء فاقد الوعى ، كأنه ميت تبوأ فوق
الثرى مرقده . واستمر دهرأ على هذا المنوال ، وكانت عيناه تسيلان دموعاً
وتنطلق من كبده المحترقة آهاته . وقام الراعى على رأسه باكى العين محطم
القلب . وحين عاد إلى نفسه من إغماءه ، وغمره من جديد فيض أساه ،

تسكلم الراعى فى لهجة المشفق عليه وقال له : أيها المفتود الوهان ، طب نفساً فالوقت وقت إسعاد ، وهذا الليل هو ليل الوصال .

وأحضر له فراء قائلاً : ليكن هذا لك حجاباً حتى بيت الحبيب ، فالبدسه جذلان ضاحكا ، وارقص به طرباً بين النعاج ، فعسى يطوف القطيع بتلك الغانية هذا المساء ، كما يحدث كل مساء ، فتكتشف أمرك بين العجاوات فتسير إليك من دون القطيع .

وكان المجنون قد سمع بتعلق ليلي بذلك القطيع . فلما رأى المسكين الفراء نهض وارتداه ، وصنع له منه قدما أخرى . وكان قلبه دائماً أسير شبحي العشق ، فكيف تقصر فى طريق العشق أقدامه ؟ ولكنه أضاف إلى ساقيه قدمين آخرين من يديه . ثم قوس كالقطيع ظهراً سبق أن حناه عبء الهم . وأضحى رفيق القطيع وشبيهه سيراً وعدوا وظهراً . وحدا به الأمل للسير على قدميه ويديه ليظفر بالأمل . وأخذ يهمس قائلاً : يارب فاجعل حظى بهذه الخلعة الجديدة الليلة ليتن الملمس حمائله ، وإن تكن هى سنجابية خشنة الملمس . لو أن هذا الأمر وصل إلى حبيبي لتهد منه خجلاً ؛ وستكون الخلعة فى وقعها عليه شوكا فى جانبه ، على أنها فوق ظهرى لينة الملمس . وأنا فى هذا الجلد كناخلة الظبية جفافاً ، فَيَا كَلْبَ شبيهه بغزال الصين^(١) ! وليس هذا اللباس أهلاً لسكل قَدَّ ، فهو لباسى حتى تعود لى الروح وكفى . وقد زدت بمقدار ألف فراء لئلا سرورى بلبس هذا الفراء . وبهذا الإهاب أبحث عن سعادة الوصال ، وسأخرج اليوم من نطاق إهابى طرباً .

وبينما يحدث نفسه بهذا القول وصل الراعى إلى البيت . وخرجت ليلي من خدرها تامة الحسن كالبدن النمام . توسوس حليشها عالية الرنين ، وتحلو نغمات خلخالها بساقها ، ويتموج شعرها ذو الغدائر المشناة الملتفة ، يعطر

(١) غزال الصين معروف بكبر ناخفته .

أرجاء العالم بمنبره الخالص . ودارت حول القطيع وألقت عليه أنظارها ،
 ومر القطيع ضائناً ومعزاً أمامها ، حتى جاء دور المسكين ، فنظر إليها من تحت
 فرائه ، فلم يبق له صبر ولا قرار ، وذهب من يديه زمام الاختيار . فأطلق
 صيحة وخر في الطريق صريعاً كالظل . وسمعت ايلى الصوت فعرفت
 من هو الذى وقع في طريقها . وجلست فرأت فراء خشناً مملوئاً بدم كبد
 محترق كنافخة المسك . وقد ذهب عنه العقل فلم يعد يرى ولا يسمع ، فجعلت
 وسادة رأسه صدرها ، وغسلت عن وجهه الغبار بدموع عينيها . وحين عاد
 لوعيه وفتح عينيه وقع ساجداً أمام حيائها ، قائلاً : يا إنسان عين ذوى البصائر ،
 ويا قبلة الدلال لذوى الدلال ، وياستان الورد المزهو بأزهاره ، ويا نور
 المصباح الثمين ، أنت عرش فى الأعلى وأنا الأرض ، فهيات أن تسكونى
 حيث أكون . هذا ولا أعتقد أنى وقعت بعيداً ، فهأنت ذى واقفة على
 رأسى . وأنت مرفوعة الرأس فى أوج العرش فى علمين ، فحاشا أن تتخذى
 من أرضى فرشاً ! لمس أذبالك على كفى محال ، فهذا اللقاء إذاً من قبيل
 الخيال . والسكارى الذين يرون فى أمسياتهم أنواعاً من الخيال ، يتصورون
 فى أحلامهم مائة محال . وحسن طالعى على ما أقول دليل ، فهذه الواقعة
 من ذاك القبيل . وإن حلماً فيه أرى حياك ، وأجلس معك مطمئناً لحلم فيه
 يقظة جددى ، ومنه نور عيني .

ورأت ليلي منه هذا التضرع ، وسمعت منه هذه اللطائف التى طابت بها
 نفسها ، فقالت : يا من أنت ضيفى هذه الليلة ، قد سكنت بك روحى هذا
 المساء . وهذا الإهاب حائل دون الحبيب ، فلا تقنع من الحبيب بالإهاب ،
 واطرحه عن عنقك ، واجلس بلا إهاب مثل اللب ذهب عنه القشر . وحتم
 التكلّم من وراء ستار ؟ وفى النية الإفضاء إليك ببعض الأسرار .

وأضاء الليل ، وطلع القمر ، وأسرعت محنتهما في طريق الزوال ، وبقيتا
معاً حتى الصباح ، لم يكفيا عن الكلام لحظة واحدة . فكم حكياً من قصة
ملوؤها الآهات والزفرات . وكم اشتكياً من الأثجان فيما مضى من السنوات .
وكان قد بقي أمامهما مشات من طرائف القول ، وإذا الطائر يغرد بلحن
الفراق . ونشر الصبح علماً من ذنب السرحان ، ونام الكلب وغردت
الديكة . وعلى صياحها ودع كلاهما الآخر ، فنصبت ليلى قامتها سائرة نحو
خيمتها ، ومشى قيس صوب الصحراء ، وهو من البكاء كإحدى الشقائق .
نعم هذا شأن الدهر . إذا وجدك كليم القلب مفطور السكبد طريقه إلى
حبيبه بعد آلاف من الآلام والجهود ، فلا يكاد يلتقي بنظره على حياء حبيبه
حتى يحول الدهر بينهما مهيماً به أن أسرع بالانصراف .

(٤٤)

المجنون مع السائلين في ضيافة ليلى

حين فرغ ذو القول العذب من حديث السحر في قصة الفراء ، كشف في سياق قصته عن لباب البيان قائلاً :

قد ضل في السهول والجبال زماناً ذلك الهزيل كالدف تلبعث منه
الأنات على ضربات الهجر . وقد ظل قائماً من الحبيبة بذلك الفراء ، يحمله
لذكرها ، ويحمد فيه لحاظه سكتنا . ولما كان حين أبلى الدهر منه الإهاب ،
ولم يبق في كفه حتى تلك البقية من الحبيب ، صار أمره إلى ما يشتهي
العدو . فلا حبيبة في أحضانه ، ولا ذلك الفراء على جسمه . وماذا يبق
من سليلب الروح بدون الحبيب ؟ وما العظام بلا إهاب ؟ وما إن مر عليه
زمن على هذه الحال حتى تصاعد الدخان من حريق قلبه الحزين .

وذات يوم كان يحترق لوعة إذا هو أمام الراعى وقت الظهيرة ، فسقط
دون قدمه كالظل ، وأطلق من صدره صيحة قائلاً : أيها الأسى كلوم الفؤاد ،
حظى بمقدمك عجبٌ ، ألا فانظر بعين العطف إلى ما يعاني الفؤاد ،
لئلا تطبني ياذا المروءة من داء الفراق . فقد كنت قتيل الهجر ، مسلم الروح
للأجل ، ولما كنتك نفشت في من أنفاس لطفك ، وأعدتني كالنسيم إلى الحياة .
فنظرة أخرى منك إلى حالى ، فأنا اليوم متعلق منك بالأمل .

فبكى الراعى وقال : أيها الفتى الغريق فى الهم من رأسه حتى القدم ،
قد قرح أساك كبدى ، وأجرت آلامك دم دموعى . ألا ليسعفك الحظ
كما تشاء ، كي تنبواً عرش مرادك . ولم يبدُ لي من قبيل وجهه فى علاج

أمرك ومأتى دوائك ، وليكن ليلى — تلك التى أبدع القلم الإلهى فى تصوير بدائعها ، العذبة المحضر كالشهد ، بل من الشهد أطيب — تطهروا كل أسبوع من ثمن قطيعها طعاماً خاصاً تقدمه مساء للمساكين الذين حرموا مائدة السماء ، فيتوجه إلى أعتابها من تلك النواحي كل من خلت يده من موائد الرزق ، ليلشد غداه من نوال مائتها . وهى التى تشمر عن ساعدها لتقسم بينهم الطعام بنفسها ، وتعرف منه لتضع فى إنباء كل امرئ نصيبه . ويمر الجميع آنذاك ، سواء منهم المعارف والغرباء . وهذا المساء هو وقت الأمل فى العطاء ، وموعد النوال للمحرورمين . فاهض وفى كيفك الوعاء ، وانتظم فى سلك ذلك الصف ؛ عسى أن تنال فى انتظامك بين السائلين على تلك المائدة بعض النوال .

وسمع المجنون تلك البشارة ، فقام بتمثلاً للإشارة ، وأخذ فى تخيل كفه كأسه ، وانطلق فى ديار الحبيبة حتى وصل والهاً إلى ذلك المكان ، فرأى أمامه هناك ألف محب ، كل منهم يمد يده بوعائه ، يطلب كالحبيب النوال على مائدة إنعامها ، وينال ما قسم له من رزق . ورآها المجنون من بعيد ، فولّى عقله من رأسه ، وطارت روحه من جسمه ، وضعفت ساقاه عن احتماله ، واحتمال بكل قواه ليظل منتصباً على ساقيه . وأتت نوبته ، فقدم كالأخريين كأسه . ورأته ليلى فلم تعامله معاملة الآخرين ، فبدل أن تعطيه نصيبه من الطعام ضربت بالمعرفة كأسه فانكسر . ورأى المجنون كأسه محطمة فوق فى خاطره أن الأمر يسير على وفق ما أراد . وكان صوت تحطيم الكأس فى أذنه حلواً لأنغام فوقع به ثملاً ، ونظم لنفسه أنشودة جعل يرتص على ألحانها قائلاً : من كان عيشه ميسراً فعيشى كذلك جهداً ميسراً : فلم تنلنى كالأخريين حاجة ، وحطمت بحجر الظلم كأسى ، واختصتني وحدى

بأنظارها ، وحطمت كأسى من دون الآخرين . ومن قبلُ حطمتُ دون
سبب قلبي ، ولكن أمرى مستقيم من هذا التحطيم . وباليث الحجر الذى
أصابته به جهرة كأسى ، كان قد حطّم كأس سرى ، حتى يبق ذلك السر
فى صف الواقفين مرفوع الرأس . ولا أطلب لى خلاصاً فى سوى تحطيم
كأسى على يد الحبيب . وليس علىّ بذلك من جور ، بل لى لأرجو به
النصر . ألا فداءً لذلك التحطيم ألف رأس ، ولتكن الأرواح جزاء تلك
اليده . وقلبي مقطّع النياط بخنجر حبها ، وقلبي خال من كل شىء سوى حبها .

(٤٥)

المجننون يفقد عقله كله

موقع عذب هذا النغم ، ومغنى لحن هذه القصة ، هكذا ضرب على أوتار الأعواد من بيانه فقال :

وقع قيس من جديد فى محنة الهجر ، وهوى فريسة آلام الصبر ، وذلك أنه عندما زایل رأسه طرب كأسه ، فارق السرور قلبه . فأخذ يحترق فى نائرة الفراق ، ويكتوى بشعلة الاشتياق . وكأن قدمه - أينما حل - فوق مقلاة ، فلا هو بذائق للنوم طعاما فى عرض المروج ، ولا هو بمستسيغ عذب الينابيع شراباً . لا صبر عنده ولا قرار ؛ ينطلق أنفثه على الأشواك والحشرات . يلشد فى كل شىء عونا ، ويطلب لنفسه الخلاص بما دهمه من خطر . وذات يوم فى الظهيرة كان يهب هواء تموز لاخفا كالنار المتقدة ، واتجه هو إلى خيمة الأذلاء . أى إلى ظل شجرة من شجر الطلح ، يُسرِّح طرفه من هناك فى كل صوب . وجأة عمر السهل عليه يقوم من عاية الناس ، ذوى محفات وهوادج . فسرعان ما نصبوا هناك مائة خيمة ، وأقاموا لهم منازل كالقصور . وعلى ما يرد عادة فى خيال العاشقين وهو سبهم فى التعلق بالمحال ، مر فى خيال المجنون تلك الأمنية المحالة : وهى أن يكون هؤلاء القوم ليلي وقومها ، وأن تكون هذه رحالهم ومظاهر جاههم ومالهم . ثم عاد وقال : هذا هوس وخيال ، وتعلق من الحظ بالمحال . وبينما هو يردد لنفسه هذه الفكرة وذاك الأمل إذ ظهر من الخيم جمع من النجوم يتوسطهن قر ، خرجن متزهات منطلقات شطر الصحراء ، متجهات إليه يجرن أذيالهن

دلالات فنظر إليهن قائلاً في نفسه : من هؤلاء ؟ أمصدر نفع أم مثار أذى ؟
وهن مسرعات نحوه يتساءلان : من هو ذاك الوحيد في القلاة ؟ حتى إذا
وصلن إليه رأى جلياً كلاهما الآخر . فوقع نظر المسكين على ليلي مع جمع
من نساء قومها . ورأى قدماً مستويًا ممشوقاً ، فأخذ ينهض ويقع على غير
وعى . ثم فارقه الوعي ، فجرت ليلي إليه ، ووقفت على رأسه ، واسندت
رأسه إلى ركبته ، ونثرت دمعاً مخضباً بالدم من عين قد قرحها البكاء .
وصبّت عليه من دموعها ماء الورد ، فردته من نومته الطيبة إلى رقدة
المستيقظ . وأخذ كل منهما يتأمل في جمال الآخر ، وانحى بمحضره ملال
الآخر . وتحادثا في قديم مكنون الضمائر ، وأفاضا في القول بكل درمشقوب .
وفي وقت الوداع كانا بحيث لا يتمنى أحد أن يذوق امرؤ محترق القلب
مثل هذا الجحيم . وقال لها المجنون : « يانور القلب وناره ! لقد مررت
بأرضي اليوم وسط حشد من الهموم وحرق الوجد ، فخبّرني كيف
أراك فيما بعد ؟ »

فأجابت : سأمر كذلك في وقت عودتي بهذه الأرض . وإذا ظلمت
في مقامك هذا فأتملّ في رؤيتي . وسيتبدل أساك بطلعتي سروراً ، وسأتحرر
برؤيتك من ربة المحنة .

وانصرفت ليلي من المكان وبقي به قيس كالميت ، كأنما انفصلت عن
جسمه الروح وأخذت تنأى عن أنظاره حاملة معها قلبه ، وهو يتابعها
بعينين ملأوهما الحسرات . لم يكذب يبق له في روحه من رفق ، وظل يردد
القصائد في الفراق . وبموجب الوعد الذي سمعه منها لم يتحرك من مكانه .
وفي حيرة عشقه بأسرة قلبه لم يجلس ، بل ظل منتصباً كالشجرة . فكانت
الطير تحثم على رأسه بعض الوقت ، ويظل هو ثابتاً كأنه شجرة أحكم

في الأرض أصلها . واسترسلت شعوره متهدلة متشابكة كأنها الأغصان . وظل على هذه الحال عهداً ، فاتخذ طائر من رأسه عشاً ، وبدأ شعره متهدلاً كأنه فوق تمثال جسده نقاب أسود كالمنسك ، مرصع بجواهر البيض . وفسق البيض عن صغار تطير ، تغرد بألحان العشق . ومر به حين على هذه الحال ، فعادت ليلي في طريقها إلى ديارها ، ونزلت في ذلك المنزل المبارك وحطت فيه رحلها . وقال كل امرئ من قومها ناشداً في النوم راحته من مشقة الرحلة . ونهضت هي في الظهيرة كأنها الشمس مضية الحيا . وانتعلت في قدمها الرقيقتين أديماً محلي بالذهب . وبدت في ثياب من الخز الأزرق المحلى بأوسمة يمنية . وخرجت في زيلتها بوجه كالجنة ، يتجلى فيه أمل كل أمل ، وقدر أهيف ممشوق كالسروة يجذب القلوب ، وتهادت كالخجلة حتى وقفت على رأس المجنون ، فوجدته ولهان قد خرج من نطاق العقل ، ولم تبق منه فيه ذرة ؛ واستغرق في العشق من رأسه حتى القدم ؛ عيناه إلى الأرض ، يلتصقان كالأنجم المبهوتة التي أخذت تتوارى في ضوء الشمس . وطالما دأبته الهيئمة بصوتها فلم يعد إلى وعيه . فرددت ندامها له بصوت مرتفع قائلة : يا من ديدنه الوفاء ، انظر إلى من جبل على وفائك .

فأجابها قائلاً : من أنت ؟ ومن أين ؟ عبثاً ما قد دأبت إلى .

فقالت له : أنا مرادك ، وأمل فؤادك ، وبهاء روحك ، أنا ليلي ، من أنت بها ثمل ، وأنت هنا أسير قيد غرامها .

فأجابها : إليك عني ! فقد أشعل عشقك اليوم في جوانحي ناراً تلتهم أرجاء الأرض ، فاهـجـت من نظري مادة الصورة . ولن أتصيد بعد رؤبة الصورة . فعشقت سفينة سبحت في موج الدماء ، ثم انفكت عنها العاشق والمعشوق . وفي أول العهد بالعشق ، حين تأخذ سورة جذبة

العشق بنفس العاشق ، رغبةً في أن يتجه بطبعه إلى القضاء على ميوله ، يولّى وجهه شطر الحبيب ، ناشداً في رضاه عوضاً عن العالم ، فإذا اشتدت به جذبة العشق ، برأ صدره من كل وصواس ، ليستقط في موج تحيط العشق ، ويفقد وعيه على تلاطم أمواج العشق . ثم يشدُّ الرحال كلا العاشقين عن الآخر ، فبعد أن كانت أنظار كل منهما خالصة إلى صاحبه بعض الوقت ، إذا أنظاره تنصرف عنه ، متحررة من معنى الذات والغير ، سالمة من صراع الثنائية ، لتبقى والعشق إلى القيامة ^(١) .

وعلى سماع هذه الكلمات فرغ فؤاد ليلي من الصبر والقرار ، وعلمت عن يقين حاله ، وجلست تشجع بكاء قائلة : « والمن أسلم عن يد دينه ولبه لوقوعه في شرك حبيباً !! وأشاح بوجهه عن مبنى الأمل ، وجدّ في إثر دائم البلاء فوقع فيه صريعاً ، إذ لم يحظ من مائدتي بنوال . وهيات أن أجالسه مرة أخرى ، أو أن أحظى في لقاء برؤية جماله بعد الفراق » .

وفرغت من قولها فعادت أدراجها في الطريق ، وأقامت ما تم الفراق . وانصرفت وملء صدرها الآلام والآهات ، تقول وعيناها تهميان بالدموع : واحسرتا من دهر طاغية ، مورد عيشه رنق لا يطيب ، وقدح شرابه مُتَرَع بالسم ، يقبدي في مظهر القهر لطفه . كنا حبيبين طابت بالصدقة نفوسنا ، بعيدين من هموم الزمان ؛ يدور الفلك بما نشتهى ، ويناولنا الساقى كأس الطرب : فسقطنا صريعين على يد اللثام ، وافترق كل منا عن صاحبه . فهو

(١) يتحدث المجنون هنا عن العشق الإنساني حين يبدأ طاهراً فيتجه الحب إلى التضحية والفداء في سبيل حبيبه ، ثم لا يلبث أن يتذكر الله مبدع هذا الجمال وهو مصدر كل جمال ، فيشيع بوجهه عن المخلوق إلى الخالق ، وينصرف بكنيته عن طريق العشق الإنساني إلى العشق الأزل . انظر فصل ٤٨ من هذه القصة ، ثم انظر الفصل الثاني من الباب الثالث من كتابي : الحب العذري وحب المتصوفة .

على شفا الموت في النأى منى ، وأنا في البعاد منه كالشجرة هزالا . فهو مولٍ
وجهه شطر وادى العدم ، وأنا سائرة إلى مضيق الأسى . وهو بدون مشرف
على الهلاك ، صريع في وحل الدم من دموعه . وأنا بدونه في سبيل الزول ،
لا أبحث بدونه عن خيال للجمال . واليوم قطعتُ منه الأمل ، ووطنت قلبي
على هجره إلى الأبد . قد ذهب من كان له وصالى ، وآن للقلب أن تبلغ
به مُزَقَّ الجوى مداها . فلا رأى إنسان ما قاسينا من حرقة ، ولا عانى
ما تصاعد من مصباح قلبينا المحترقين من دخان .

هكذا قالت ، وشدت رحلها محطمة القلب ، ورحل المجنون كذلك
من موطن آلامه إلى موطن آخر . فحين انتهى من وعد حبيبته رحل بعبء
همومه من تلك الأرض ، ودأب على حياته التى ألفها من قبل فى صحبة
الوعول والظباء .

(٤٦)

بدوى في زيارة المجنون

من نصب المحفة لعروس هذا السر هكذا حداها بأنغامه قائلا :

كان في ديار العرب بدوى على حظ من العقل ، رقيق الحاشية ، طاهر الذيل في ساحة العشق ، ساحر اليان في طرائف نظمه ، بهيج عذب صوته الأشواق ، ويبلغ إلى أعماق القلوب من ذوى الآذواق . سمع هذا البدوى بقصة المجنون ، وبصيته في نظم الغزل كالدر المكنون ، فاجتذب الشوق إليه عنان روحه ، فركب ناقه عداة كالريح ، وقطع الطريق ، وجاب السهل حتى وصل كالريح إلى قوم بنى عامر ، وتحادث معهم مستخبراً عن آثار المجنون ؛ فقالوا له : إنه معتزل للخلق ، قد أنس بوحوش الصحراء فصار مثلها وحشى الطبع ، وغنى بالأُنس بها عن الأُنس ، وقد استراح إلى صحبة الوعول والظباء ، فهيات أن يأنس إلى أهل القبيلة .

وسمع البدوى ذلك الكلام ، فلوى عن العامرين عنانه ، وشم عن ساعد الجد في خوض الأعاصير وقطع الجبال والسهول ، واجتياز النجاد والوهاد ، وكم قاسى من خوف مخاتلة الوحوش ؛ وإذا به يرى سرباً من الظباء ، وبينها قيس كالراعى ، منتصب القامة دون انحناء ، كالآلف المجردة ؛ وهو أسود كالآلف من أثر سموم الضحى . وهو يسير وسط الظباء لا يستره إلا بضعة أعواد من العشب من الامام ومن الخلف . ومن رأسه يتهدل شعره الفاحم على صدره كأنه شعاره الأسود ، وهو من ضعفه وسواد لونه نحيل كأنه شعرة بين شعرة الفاحم .

ورآه البدوى على تلك الحال فأقبل عليه محيياً بالسلام . وحنأ ظهره للسلام ، فذعرت أسراب الظباء وفرت على تحيته . فقلاه المجنون ورفع ليرميه حجراً ، وشن عليه حرباً لا صلاح فيها . وقال له : لم تكلمت أيها الغر ؟ ولم تجاوزت في طريقك حدك ؟ قد أذعرت منى أصدقائي ، وجعلتهم يفتنون من شبكة وفائي . فإياك وهذا الهوس ، وامض لشأنك ودعنى وشأنى . فأنت أسير نفسك ، وقد تحررت أنا منها ، وأنت مستريح إلى طبعك ، وقد تخلصت أنا منه . وأنت في طرب العرس ، وأنا في ماتم ، فكيف تتفق ؟

فلم يجد سبيلاً إلى صحبته بحدِيثه ، فبدأ يردد عليه من آلامه ، منشداً له أنواع الألحان من عال ومنخفض ، فوفر له حظاً من غذاء الروح . وطاب خاطر قيس على سماعه إياه . ولم يلو عنائه من صحبته . وتعلق كل منهما بالآخر ، وتوافقاً كاللبن والشهد ، وأخذا يتساجلان الأشعار والغزل ، وكم قرأ عليه المجنون من رسائل أشجانه ، ونثرمئات من عقد حواهره . وصار البدوى صدفاً لجوهره ، وأصبح كله أذنأ ، ولا شئ مع الأذن غير عين الفطنة . وكل ما وصل إلى أذنه من دُرِّ نَظْمه هو في سلك الحفظ . وهكذا كان عمله من الصباح حتى الليل ، وكان يجهد ليلاً في ترتيب هذه الآيات . فكان في النهار يتصيد منه ما يتاح له ، ويمضى الليل ساهداً يكرر ما حصله لينظمه في سلك الحفظ . ولكن ما لبثت أن خلت راحلته بعد بضعة أيام من الماء والزاد ، فاضطر لوداع تلك البقعة ، قاطعاً أواصر الصحبة ، وفي خاطره كثير من القصائد ، كل بيت منها يستدر بتلاوته الدمع من قلب سامعه .

(٤٧)

موت المجنون

مُسَطَّر عنوان رسالة الفراق ، هكذا جاد بفيض قلبه قائلاً :

إن ذلك البدوى الذى ألف النجاد والوهاد ، وكان قدوة فى بكاء الأطلال والدمن ، بعد أن مر عليه حين فى دياره مشغولاً بأمره وأعباء عيشه ، راجع قلبه هوى لرؤية المجنون ، تخرج من منزله على راحلته السريعة العدو ؛ ومر أولاً بالعامريين ، مستخبراً من كل امرئ عما نى إليه من أخبار المجنون فقالوا له : منذ قرابة أسبوعين وقلب هذه القبيلة مصاب من أجله ، فلم ير أحداً له أثراً ، ولم يسمع عنه خبراً . وعسى أن يسفر انقطاع الأخبار عن خير إن شاء الله .

فنهض الأعرابي مسرعاً ، وتوجه من مساكنهم شطر الصحراء ، ولم يَدْعُ جبلاً أو سهلاً إلا مر عليه مر الريح . وقطع الأرض شبراً شبراً ينقب عن ذلك الصديق الكريم . وبعد بحث استغرق يومين أو ثلاثة كان البدوى يسير فى طريقه يائساً ، وإذا هو بقطعان من الوحوش دون الجبل . فأسرع بالذهاب صوبها ، فرأى فى وسطها المجنون ، مع ظبي ناصع البياض ، شبيه ليلي عيناً وجيداً ، وقد تعانقا فى حفيرة ، ورقدارقدة أعوزتها الرعاية هى رقدة الموت ، على وسادة من الأرض وسرير من الشوك . وكان قيس قد أسلم الروح من حرقة الفراق ، ورأى ضجيعه فى الحفرة ما حل به فمات وفاء له . وحوله حلقة من الحيوان قد كسرت غصن الطرب . فمن صدر الظبي تترسل الآهات ، ومن عيون الوعلة ينصب الدمع ، ومزق

الشعلب فروته . ونثر بمخلبه على رأسه تراب الاسى . وأخذت الذئاب تمزق من هول المصيبة وجه الأرض بأظفارها . ووقفت حمر الوحش فى دماء دموعها مما دهاها بعد أن كانت آمنة فى كنفه .

ولما رأى البدوى تلك الواقعة ، وأنها خراب فى ركن حياته ، استرجع ، وأسأل من أهذاب جفونه الدموع . وأخذ يئن وفاء ، ومرغ وجهه على أقدام المجنون وهو فى صراع مع أشجانه . ثم ألقى نظرة حوله ، فرأى خلف ظهره هذه العبارات مخطوطة بإصبعه على الرمال :

واحسرتا أن مت بجوى العشق ، فلم تَسَلْمْ على سرير الموت روحى ، وغدت شمس الزمان برداً على أعضائى . ولم أنل من أحد فى هذا العالم مرحة . وقد قصمت مصابرة الليالى ظهري ، وقضت على الأيام بسيف الهجر . ولا أحد مثلى مقتولاً بلا دية ، ومحروماً من كل تعزية . فلا على رأسى بكى صديق ، ولا غَسِلَ من الغبار وجهى . ولم يحمل لى امرؤ من حبيبي السلام ، ولم يُنْهَ إلى منه رسالة . وقد أسلمت نفسى عن يد لى طبيب الفلك ، فلم يداونى فى رفق . بل أفرغ قدح شرابى من الماء ، وأبدلنيها برشح دم القلب . وقد قرح كبدى تفكيري فى غدى ، ففى كل غَدِ لى مزة فى الكبد . ولم يعان أحد من هم غده ما عانيت ، ولم يمت أحد فى مثل حظى . ويضيق قلبى بقبة الفلك كأنها حوله زجاجة ، فتحطمت بها زجاجة حياتى على صخرة القدر . وسيقى من تلك الزجاجة حتى الحشر ما يكون وقعه على الافتدة السكيمة شديداً كلدغة الحمة .

وقرأ الأعرابي هذه القصيدة ، فَرُوعَ قلبه واتقد بنار الاسى . وكان معنى كل بيت كالزيت يقع على نار صدره ، وأطلق من جوى قلبه صيحات .

وامتطى راحته العالية السوق ، وسار بها حتى أتى ظل رحله في بنى عامر ؛
ولكنه لم يُلْتَقِ في ديارهم ظلاً ، بل شعلاً من نار انقادت بها أرواحهم
وقلوبهم ، فإنه بذلك الخبر أرى نارا ذات السنة أحرقت عالمهم . ومزق
أهل الحى جميعاً على سماع الخبر ثيابهم ، ورموا بعمائمهم إلى الأرض ،
وقطعوا الشعور وخذشوا الوجوه . وماذا أقول عن الأب والأم ؟
كل ما أقول قاصر عن وصف حالهم . لقد خرج أبوه المسكين عن وعيه ،
وارفض جسمه بفيض دم كبده . وعرت روح الأم من ذاك المصاب
حرقة . وكأنما أُلْقِيَتْ نار على كل أخ من إخوته . وبدا أهل الحى وقد
أعيت بهم الحيلة على ما هم عليه من صدق الدخيلة . وساروا إلى ما دون
قمة الجبل متجهين شطر المجنون ، وفي صدورهم من الهم آلاف الجبال .
فالقلوب مليئة بالأسى والشجن ، والعيون مليئة بدموع من الدم . ورأوه
ووقعوا على مرآه فريسة الأحزان ، وأطلقوا صيحات الأشجان .
وسلك كل منهم طريقاً في حداده ، وسطر على قلبه معنى لأسى فقده ، فمنهم
من عانى حسرة على شبابه ، ومنهم من صاح أسيان على عجزه وحرمانه ؛
وقام منهم من ذكر القوم بضلال الحيلة في طبه ، ووفى آخر القول
في سوء حظه ، وتحدث بعضهم عن طبعه الفياض بالطرائف ، وتحدث
آخرون عن نظمه الذى يسمو بالروح . ومنهم من تلا حديثه الطاهر ،
ومنهم من قص ما ساته الالمية . وظلت أمه تلتجب من وقع المصاب ،
وتلصق وجهها بمحياء الشاحب . وكان أبوه يصب من دمع عينيه دما يختلط
بشرى قدمه . ولما سكن جليلهم وصياحهم أنزلوا المجنون في مغيب نعشه
كالقمر ، ووضعوا بجانبه الطبقى الذى قضى معه وفاء له . وحمل العامريون

تبعشه إجلالا له على الأعناق والأكتاف متوجهين إلى محلتهم . وكانوا
يتحركون في كل خطوة خَطَوْهَا مائة عين ماء من فيض عيونهم ، وكلما
نقلوا به خطوهم كانوا يرسلون مئات الصيحات ، وخلفو وراءهم في كل ميل
قطعوه نهراً آخر كبدِ جِلَّةٍ ، ونيلاً بعد نيل . والوحوش على أثرهم تحشو
الثرى على الرموس ، وتمشى الهويناء مطلقاً أنواع صيحاتها بأنغام الآسى ،
وظلوا كذلك طوال الطريق حتى وصلوا . فغسله الباكون بفيض عيونهم ،
وخضبوا بدم دموعهم وجهه ، لأنه طُلِّدَ دمهُ فقتل بسيف العشق . ثم
حفروا له في باطن الثرى حفرة ، وغيّبوا ذلك القلب الطاهر ، فخلص
بذلك من الهم صدره ، وملئوا باطن الأرض بكنزهِ . ورقد معه دون
قدميه ذلك الظبي الذي قضى في هواه . وأوى المجنون إلى منزل لا عيد فيه ،
في صحبة لا ثقة به من الظبي والقبر . ومنذ نفص المحبون أذيا لهم من تراه
اضحى مقامه مزاراً لكل بائس مجروح من جور الدهر ، يصب فوق قبره
دور الدمع ، وتقصده الوحوش تطلب لها قراراً وسكناً ، وتُبْكِحُ الحُجُلُ
الظباء سواد عيونها النجل بغبار ضريحه ، وتسترسل في تقبيل حافة
الضريح ، حتى يتقوس ظهرها مثل القبر . وقد نبت العشب الأخضر
في ثرى القبر المرتوى من دموع الظباء ، ورفَّت في حواشيه الشقائق .
وفي ضوء ذلك المزار المليء بالنور تنأى الوحوش عن طباعها السوء . فقد
أزال الثعلب بذيلة غبار الحيلة من طريقه ، وبدا الأسد وكأنه يخاف
الذئب ، إذ نفي عنه كل أثر للكبرياء .

نعم إن العاشق العف الطاهر الدخيلة ليس عشقه من عالم المجاز ، فترابه
ترياق مجرب ، وعشقه الطاهر إكسير الوجود ، ينتزع الزيف من زائفي

القلوب ، ويُصَيِّر نحاس قلوبهم ذهباً خالصاً . فقد صار المجنون بعد أن
توارى في الثرى كنز كرم لجميع الناس . فكل من وقع فريسة الأسي
والآلم مدَّ يده إلى أعتاب ذلك الكنز ، فأصاب من معدن الكرم
مراده ، بل وجد مائة مراد فوق مراده . فحظيرته روضة الروح ، وذخيرته
رضوانها . ولذا فوجوه الخلق جميعاً إلى حظيرته ، وعيونهم على ذخيرته .
ألا طوبى للقصاص إذ يؤمّن تلك الحظيرة ، وطوبى للنفوس بتلك
الذخيرة .

(٤٨)

المجنون وجد طريق الحقيقة (١)

حذار أن تظن أن المجنون قد فُتِنَ بحسن المجاز (٢) . فعلى الرغم من أنه صبا أولا لنيل جرعة من جام ليلى حين وقع ثملا بحبها ، فقد رمى آخرأ بالجام من يده فتحطم . فَتَمَّامًا إِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ مِنَ الْخَمْرِ (٣) لا من الجام . إذ أنه

(١) قد أحب المجنون ليلى حباً صوفياً في قصة الجامى ، لأنه هام بها أولا وصبا إليها ، ولكنه ارتقى من الحب الجسدى إلى الحب الروحى ، فنقذ من وراء جمال الجسد إلى مايدل عليه ذلك الجمال من معان روحية ، وأسمى هذه المعاني دلالة على جمال مصدره واهب كل جمال ، وهو وحده أهل لأن يحب لأنه ذو الجمال الذى يجعل عن الكيف ، وما جمال المخلوقات إلا دليل على جماله ، يهتدى به من سمت أرواحهم فى سلوك طريق الحقيقة . وحين انتقل المجنون من مرحلة فتنته بجمال ليلى إلى تلك المرحلة الروحية السامية كان قد برىء من الحب الإنسانى ، ولم تعد ليلى فى عينيه شيئاً ذا بال . (انظر فصل ٤٥ من هذه القصة) ولكنها ظلت رمزاً مدلوله الجمال الخالد ، وبقيت لذلك طريقه إلى الوجد ، فكان ينطق باسمها وقصده الذات الإلهية (كشعراء الصوفية انظر ديوان بن الفارض مثلاً) وقد مر المجنون فى عشقه بالمراحل التى يجتازها كل محب صوفى حين ينتقل من حب الجمال الفانى إلى الهيام بالجمال الخالد . وقد تأثر الصوفية من المسلمين فى هذه النظرة إلى الحب بأراء أفلاطون وأفلوطين فى الجمال ، انظر الفصل الثانى من الباب الثالث من كتابى : (الحب العذرى وحب المتصوفة) .

(٢) حسن المجاز : الحسن الحسى فى هذا العالم لأنه وسيلة يجوز بها العاقل الحكيم إلى حسن الحقيقة ، أى يهتدى بهذا الحسن إلى معناه الأسمى كما سبق أن شرحنا . لأن جمال المخلوقات دليل على جمال ذى الجلال : يقول أحد شعراء الصوفية :

جمالك فى كل الحقائق سافر وليس له إلا جمالك سائر
تجليت للأكوان خلف ستورها فنمت بما تخفى عليه السمائر

(أحمد الكشخاى نقشبندى : جامع الأصول طبعة القاهرة ١٣٣١ هـ ص ٥٧) .

(٣) الخمر رمز للوجد ، وكانت ليلى سبباً لهذا الوجد الصوفى الذى يسكر فيه المحب نظفزه بلذة الحقيقة ، والسكر لا يكون سببه إلا المسكاشفة بنعت الجمال لأنه طرب الروح وهيام القلب : (المرجع السابق ص ١٦٣) .

هرب في عتبي أمره من الجمام ، فتفتحت في بستان سرّ من أزهار المجاز أزهار الحقيقة . فالعين التي انبجست تهرّ من شق حجر قد صارت بحرًا وعطّ الحجر . فكانت ليل طلبة بته في هذا الجيشان ، ولكن توارى وجهها عن قصد العاشق . وكان يحلو في فمه تردد ذلك الاسم ، ولكنه كان يرمي من نطقه إلى مقصود آخر . فالعاشق الذي يضنّ من هيامه بحبيبه يقول : « القمر » وقصده وجه الحبيب .

يحكى أن صوفيا نقي السريرة رفع عنه الحجاب في نومه ، فظهر له المجنون بوجهه ، على حقيقته ظهورا لا لبس فيه ، فقال له الصوفي : يا من ظلمت على حال يأس وهلاك ، أغنى بالأمك في مجاز الفتنة ثلاثين عاما ، حينما نازلك الجمام ، ماذا فعل بك معشوق الأزل ؟ .

فأجاب المجنون : « قد دعاني إلى حظيرته ، وأجلسني في صدر سرير قربه ، وقال لي : أيها الجسور في ميدان العشق ، ألم تستح من أنك في تلك الدار كنت تحمسي الراح من كأس ليلي ، وكنت تناديننا باسم ليلي ؟ » ولم يجز على سوى هذا العتاب ، عند ما فتح لي باب الخطاب .

أي جامي ! تأمل في الخليفة ، فكل ذرة منها في عيون أهل الحقيقة جامٌ مباركة مترعة من نبع الأزل^(١) ، سطر عليها من كل جوانبها اسم . وذلك

(١) أي أن الجمال في كل الخلوقات دليل على جمال مصدره ، فهي مظاهر مقتضية لمراتب وصفات غير متناهية ، كما قال أحد شعراء الصوفية :

لا تقل دارها بشرق نجد كل نجد للعامرة دار
وله منزل على كل ماء وعلى كل دمنمة آثار

(أحمد الكشخانو : جامع الأصول ص ٥٨) .

الجام ماهو؟ هو جام الباقي . وذلك الاسم ماهو؟ هو اسم الساقى . فن الجام
أنشد الراحة بخمره ، ومن الاسم تطلع إلى صاحب الاسم ، منزلها إياه
عن السمات ؛ وبالسكرك غب بنفسك عن هذا العالم ، حتى تتحرر من وجودك
الخاص ، ومن ظلمة الزهو بنفسك ، فتصل إلى مكانة لا سبيل إلى تجاوزها ،
ولا خبر عنها إلا بانقطاع أخبارها — وقد حدثتُكَ عن عالم
لا معالم له ، وأخبرتُكَ بما يدل عليه ، وعليك أنت أن تدرك .

نَعَى المجنون إلى ليلي

(٤٩)

مَسَّطَر عَنوانات هذه الجريدة هكذا خَطَّ في خاتمتها قائلاً :

حين فرغ ذلك الأعرابي الرزين من دفن صديقه المجنون امتطى ناقة
بجَزَى كالغزال عدواً ، وتوجه برحله نحو ديار حبيبتيه ، فوصل إليها
وقلبه وروحه نهب الأسي ، وأخذ يسأل منزلاً منزلاً ، ويدور في الحى منقباً
عن ليلي فريدة دهرها ، حتى وجد طريقه لخيمتها ، فرآها دون الخيمة كالبدر ،
وليسَتْ بدرأ بل هي شمس تضيء العالم . وليست بشمس بل هي نار تحرق
هياماً بها قلوب العالم . وليكنها مع ذلك كالبدر جمالاً ، والمشتري زينة ،
والحور شهباً ، والملائكة شمائل . وعَرَفَها الأعرابي من بعيد ، وليكنه
تظاهر بأنه لم يعرفها . وسألها قائلاً : أيتها الغانية الكريمة ، وَمَنْ أَنْتِ
هنا مقيمة ؛ ليلي ذات الطلعة كبدر التمام ، أين مأواها والمقام ؟

فأجابته : « أنا هي » وما كادت تم إجابتها حتى أشاحت بوجهها
وعيناها تهيمان بالدموع . ثم قالت : إن قلبي — وهو مأوى حبه — لم يلبثني
قط بسوى الحق ، وهو يحذني في كل لحظة قائلاً : إن ذلك القعيد بالاعراء
الممزق الأردان ، الهائم من أجلك في السهول ، والجوَّاب في سبيلك
للجبال والوديان ، قد قضى من محنة فرقتك ، وأسلم الروح وحيداً غريباً .
فوا أسفاً لما قاسى من حرمان وعزلة وغربة !!

فصاح الأعرابي باكياً : « يامن تراب أقدامها للسماه قمر ، والله لقد

«دعك قلبك حقاً ، وأصاب فيما تُسَقِّبُ به لك جوهر هذا السر . قد قضى المجنون مسكيناً مما حملته من شجن ، ولم يقوَ على الحياة في هجره . واحتسى شربة الأجل على ذكراك محتضناً غزالا . ولم يقف على رأسه سوى قطعان الحيوان ، وليس من أسى أشد من تلك الوحدة . وقد وصلت أنا إليه ووقفتُ على رأسه ميتاً ، ورأيتُه وحيداً غريباً . فذهبت في نفس اليوم محترق الفؤاد إلى قبيلته . وسلكنا خاشعين في طريق وفائه ، وأنزلناه مكانه من القبر . وتوجهت إليك من تلك الأرض وعلى جبينى من غبار اللحد .

وعلى سماع هذا الخبر وضعت ليلي رأسها في موطئ القدم . وسقطت صريعة في هاطل من الدموع ، فكأنها هوت برأسها في عين ماء ، قدملت الحياة وسئمت البقاء . ثم فقدت الوعي طويلاً . وحين عادت إلى نفسها أخذ تردد طرفة هذا اللحن : واأسفاه أن ولى أمل الروح ، وذهبت المسكينة عن قلبي المهيب ۱۱ وقد كنتُ جساماً روحه قيس ، فكيف لي بالعيش بلا روح ۱۲ وما قد دق لروحي طبل الرحيل ، وهأنذى مقفية على أثر روحي . وحين أقضى نحيي غارقة في البكاء بعيدة عنه ، وأناى بجاني عن شئون هذا العالم ، ليكن مرقدى قريباً منه حتى أضع رأسى على كف قدميه ، هُطالة من قلبي الحسرات على فوت حظه ، وسأطبع مئات القبلات على تراب هذه القدم . وحين يبلى جسمى المهيب جلدُهُ وغُ عظامه ، ويصبح جسمى كاليراعة في ذلك المسكن ، به من سهام البلاء آلاف الثقوب ، حينذاك سيكون كل تُسَقِّب منها فماً يصيح أسى وشجنا محدثاً قيساً عن عميق الأسرار ، شارحاً له ماضى الكروب . وكلما ارتفع من

عظامي صوت أجاب هو عليه بنفس اللحن . ونبقى معاً نتناجى في غير
مغمرم حتى القيامة . ويوم يُصَبّ ماء الحياة على أجسام الموتى فينهضون
من قبورهم سيفتقد كل منا الآخر، وسأقوم من القبر يدي في يده، وسنكون
معاً في المواقف حيث يقف كل امرئ على ما كتب له . وسننقسم معاً المصير،
أيماً في جنة وأيماً في نار، وننعم معاً فأرغى البال .

هكذا قالت وانصرفت إلى خيمتها جاعلة منها مأوى الحزن ،
وظلت حزينة ما بقيت في هذا العالم ، فكانت رفيق المحنة والاشجان . وأى
امرئ لم يعرّهُ مثل ما عراها من الأسى بفقد الأحباب ؟ فيارب لا كان
في مصائب الدهر ما له من سنة في فجيعتنا بفراق الأبد !!

(٥٠)

ليلى تَضَنَّى وَتَسْتَعَصَى عَلَى نُصْحِ صَدِيقَاتِهَا

أضحت ليلى كشقائق النعمان ، غريقة في دم الخرقه والاشجان ، قد ضاقت
على قلبها الأرض بما رُحِبَتْ ، ورَمَتْ بِكَأْسِ عَيْشِهَا عَلَى حَجَرِ الْأَسَى .
وفقدت في صراعها مع الآلام لذة المطعم وراحة المنام . وذهب عن بدرها
المشرق الضوء ، وانفَضَّ عن وَرْدَتِهَا الغضة ماءُ الرقيق ؛ وصار قلبها كبرعمة
مضرّجه بدم الأحزان ، وكانت دموعها في لون شقائق النعمان . ثم غَزَتْ
جسمها أخيراً الحى ، فَتَهَبَّتْ وردّها وياسمينها . واستهدفت الحى روحها ،
فلم تترك في خدودها لون عافية ؛ بل رَمَتْهَا بِسَهْمٍ مِنْ قَوْسِهَا ، فَأَحَالَتْ
حرمة وجنتها اصفراراً ، فغدا دينار جمالها درهما نقشُ آهاتِ الألم :
وصنعتْ بُشُورُ الحى على شفيتها خالاً ، واتسع عن ساقها الخاخال . وعلى
وسادتها بلغتْ بها الآلات المدى ، وغدا سريرها كمبرقع جراح ، وهى فوقه
نخيلة الجسم واهنة كالشجرة الحُمة ومُمدى . ونمتْ في حديقة جسمها زهرة
الأسى الزرقاء . وذهب عن قدّها رونق السَّرو ، وعن صبغتها بهاء
الأرجوان ، وآد قلبها عبءُ الأسى ، فقوَّس صنوبر قدّها . وعلتْ
صديقاتها — وهن موضع سرها ونجواها — بأنّها وقعتْ مريضة على
سرير الأشجان عقب موت ذلك الغريب الشريد فحاولن ما وسعهنَّ أن
يجدنَّ لها دواء في نصائحهن ، فقلن لها جميعاً فى حَـدَب : يا شجرة الورد
فى حديقة الأمانى ، ويا سروة روض الحياة ، ويا ديباجة سجلِّ الجمال ،
وعنوان صحيفة الحسن ، ومن مُجِبَّتِ فى أمرِك طريق الوفاء ، وكنتِ

راسخة القدم في حائق الحب والولام . في ذلك العهد الذي كان يعيش فيه المجنون ، كان مقامك في بيت الهموم لا تبرحينه ، وكان هو سالكاً بروحه لك طريق الوفاء ؛ لم يرض بك بديلاً . وما أطيب ما كان منه لك من وفاء ، ومن ثبوت قدمه على حبك . ولهذا يلد الحب الحب ، ومن ديدن الوفاء أن يزيد جزاؤه وفاء . ولكن اليوم ، وقد شدّ رحله من هذه الدار وولى وجهه شطر العالم الآخر ، أى جدوى من هذا الحب والوفاء ؟ وماذا تردّ عليك هذه المحنة التي تعانين ؟ فلا تعيشى بالحداد مع الميت ، فليس المرمى على الحداد والنحيب . وأخلى بالك من الوسواس ، وأفرغى قلبك من هذا الشجن . ولا تُدْرى على الريح شبابك ، ولا تزهدى في صفاء العيش .

فلما سمعتُ حديثهن نظوت إليهن وقالت : أيتها الغافلات عما بي من نار وعن حرقة قلبي ومأني بلائى ، لا تحرقن على الدوام قلبي بهذا الشمع المشوم الذي تشعلنه ، وأنا المتقدمة الجوانح من فراق الحبيب ، فاذا انتفأى بحرقة أخرى ؟ فقد كنتُ أحياء على ربح قيس حتى سمعت قصة موته فضيّتُ بالحياة ذرعاً ، وصرتُ غريبة عن سعادة الشباب . وكان بستان عمرى به مورقاً ، واليوم يطالغنى بريمحه الموت . فلا خلاص لى من الكرب الذى أشعل الجوانح بسوى الموت . فعسى الوصال الذى قبض يده عنا في مضيق هذا العالم ييسط يده لنا في العالم الآخر ، وما أطيب النجاة من الهموم لأحظى بالحبيب خالصةً له ، وأنعم وإياه بالسعادة في عيش السرور الخالد .

(٥١)

وفاة ليلى

أقبل الخريف برَوْحه ، فخلعت الأشجار على مهبّ ريحه ثيابها ؛
وتعرّت من خيلعها الخضر ، وفارقها رونق الربيع وبهاء أوراقه . وصارت
حديقة الورد زهرها وعشبهافي لون العنب حين يخرج من المعصرة ، وتجلّت
آلاف الألوان عرضها صباغ الفلك من مصدر واحد . ورى طاووس الشجر
بشاره ، وطرح سلطان المروج درع أوراقه . وأصبحت الأشجار بما نالها
من القبة الزرقاء قليلة الحوّة ^(١) كثيرة الاصفرار . وذوى البستان على
برد الريح ، وزهبت رعشة الحمى التي انتابته بماله من رونق ؛ ودليل
ما يعانيه من سقم دوامة أوراقه على عصف الريح . وكان كل غصن من
الأغصان العارية من الورق والثمار ، نعبان الضحاك ^(٢) فوق كتف الأشجار ؛
وبدا الرمان ضاحكا على ما تجرع من دم الآسى ، تترامى أسنانه مضرجة
بما يشبه الدم ، وظهر كالعاشقين ذا حدود صفر عليها ما يشبه الغبار من
الآلم ، وتبدى التّارنج أمام الراى كأنه كرات ذهب صولجائها من البلور

(١) الحوّة : بالضم سواد إلى الخضرة ، والأحوى : الأسود ، والنبات الضارب إلى
السواد لشدة خضرته . وهذا هو المراد من كلمة سبيهي أو سباهي في النص الفارسي .

(٢) الضحاك من ملوك الدولة البيشداية في تاريخ إيران الأسطوري وقديم إيران ألف
سنة ، ويصوره مؤرخو العرب وكذلك الفردوسى في شكل إنسان قد نبت على كل كتف من
كتفيه نعبان ، وهذان النعبانان لا يتغذيان إلا بأخاخ الناس ، انظر مثلا : تاريخ الطبرى الجزء
الأول ص ٢٢٦ من طبعه de Goje ، وانظر :

Christensen : L'Iran Sous Les Sassanides, p. 502—503.

الأخضر . والعُنَّاب مطبل من بين الأوراق الصفرة كالدموع على وجه العاشقين .

وصارت غصون الكرم ذهبية اللون تبدو حيناً منها العناقيد دراً خالصاً على سواعد حور ، وأحياناً تتدلى تلك العناقيد من عرائش الكرم زنجية نقية اللون . وقد تدنوقها للتقيل كأنها أصابع العروس أول عهدا بالعرس . وجلست الكثرى على غصنها ، منتحية جانباً بين الأعواد . والفستق مُسْتَوٍ على سوقه ينظر في كل صوب نظرة الغيران . وخلت الحديقة من الورد والزهر ، وتبدلت بغدادها إلى كوفة ^(١) ، فاتسمت بسمي الكوفة من رضاها بالنور والبوم ، فهي في زاوية الزوال ، كما أن العالم من الخريف مقوض الأركان . وكانت ليل — تلك الغانية التي يغار منها ورديات الخدود من غايات بغداد ، وتلك الوردة ربيعة المروج — طريحة على الأشواك أشواك الموت ، مهيمة لتُسَلِّم الروح . وأخذت تبسكي وتقول لأمها : أيتها الأم الحميدة ، الطاهرة الفراش العفة النقاب ، يا مريم المهدي ، وصافية الحب ، وشديدة بلقيس في صباحة الوجه ، اعطفي على لحظة بحبك وطوقى جيدي بفضلك ، وضعى على وجهي وجهك الشفوق ، وانظري إلى بعين كرمك . فقد كنت من قبل — لقليل الناس وقالهم — غير عطوف على . ولم تسعنى في عقد آصرتى بالحبيب حتى رمتنى فرقة بالموت . لقد

(١) يتلاعب الشاعر هنا بالألفاظ على حسب اشتقاق معانيها ، فبغداد في الأصل مكونة من كلمتين باغ = حديقة ، داد = اسم رجل على أحد الأقوال وقيل غير ذلك ؛ بينما الكوفة كلمة عربية مرادفة لـكوفان وكلاهما اسم المدينة المعروفة ، ومن معانيهما : الرملة الحمراء المستديرة ، أو كل رملة تخالطها حصياء ، أو الدغل من القصب والخشب ، أو سميت المدينة كذلك باسم جبل لأنهم سهلوه وبنوا عليه ، فهي في أصل اشتقاقها تدل على أرض تصلح لسكنى البوم ، هذا والكوف بالفارسية : البوم (راجع القاموس المحيط مادة الكوفة ، والقاموس الفارسي تأليف Desmaison ، ودائرة المعارف الإسلامية ثم معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣١) .

قضى هو من غم الفراق ، وهأنذى على الأثر أسلم الروح والبدن لداعى
الآجل . فيومى بدونه مشرفٌ على ليل العدم ، والروح متهيئة للخروج من
الشفاه . وحين تشدُّ الروح رحلتها ستمُئدين من أجل بساط المأتم . فانظري
مقامى غريقة فى دم الأشجان ، واغسلى جسمى من مسيل الأجفان ، واجعلى
كفى من خلعة طهرى وعفتى ، وليكن فى لون ياقوت دموى . ولفى به
وجهى الأبيض ، فى ذلك دليلٌ أنى شهيدة الحب . واتخذى من نار صدرى
بجرا ، وخذى عطر طيبى من دخان كبدى المحترقة . ولست بحاجة إلى عصاة
على الرأس ، فاتركينى مرفوعة الرأس بالعشق ، وانحى عن وجهى كل أماراة
لحرقة الفراق ، لتسطرى لى بذلك منال السعادة ، وتذكرى ما أستقبل من
حبيب ، فجملى موكبى ، وتوجهى لى فى سفرى شطر قبره ، وأنزلىنى جانباً
من ضريحه الطاهر . وليكن مكانى فى حفرة دون قدميه فى ثرى لحدّه البهيج .
واجعلى رأسى تحت كف قدمه لتكون لرأسى تاجاً ، وسأقيم على الوفاء
له حتى الحشر ، وبومذاك أنهض طيبة الخاطر من تراب قدميه .

وحين سمعت الأم رغبها ، وصنعت من الأسى وجهها على وجه ابتها
وبكت قائلة : أى بلىتى المباركة الشمايل ، القاطعة عنى جبل ودادها . إذا
كنتُ لم أنزل على وفق مرادك فيما مضى ، فلا يكثن فى قلبك موجدةٌ
على ، فى ذلك العهد لم يكن لى فى أمرى اختيار ، أما اليوم ولّى الخيار
فسأقوم بما فيه ترغيبين .

ورأت ليل أنها أجيبته إلى طلبتها ، فطابت بذاك نفساً ، وصححت
كالوردة الغضة ، وتوجهت بوجهها إلى ديار حبيبها القديم ، وأسلمت فى
بسمتها روحها الغالية . ورأت أمها روحها تفيض ، فاحترقت حسرة على
شبابها . وأخذت تقتلع يديها من رأسها شعورها ، وتلطم بكفيها على خدها

وكانت تخدش وجهها بأظفارها ، وتقلم أظفارها واحداً بعد الآخر ، وتمزق
 بآهاتها صدرها ، وتقرع باب الهلاك لنفسها ، وكانت تضع يدها على قلبها ،
 ثم تضرب بقبضتها على فؤادها الحكيم . وإنما كانت تضع راحتها على قلبها
 بغية تسكين جراحه ؛ وحين كان يضيق قلبها بضربها عليه كانت تدق بالحجر
 على صدرها ، وتعلوها حتى الجهد من الضرب بالحجر فيذوب الحجر ليناً
 في يديها . وفرغت من مظاهر حرقتها وبكائها في يوم لا رأى لإنسان مثله ،
 فاشتغلت بتشجيع ابنها ، وشرعت في الاستعداد لتجهيزها ، وزيت نعشها
 على وفق ما أبدت من رغبة . وربطوا على النعش من سعف النخيل ، بعد
 أن نزعوا عنه أوراق الخريف ، يرمزون بذلك إلى أن تلك الوردة اللطيفة
 أصبحت بأفة الخريف . فلم تتجاوز بعد ربيع حياتها حتى نفذت إلى روحها
 سهام الخريف . وكانت في نعشها كالعروس في هودجها ، وعلى أثرها
 أمها تقبل الثرى . وهى سائرة على أكتاف الحبين ، والأم تتبعهم تنثر الدمع ؛
 وركبها في طريقه لوصال الحبيب ، بينما أمها مثقلة القلب بحجر الفراق .
 وخرجوا بها من قبيلاتها ، غير معرجين ، في طريقهم إلى حظيرة المخنون ،
 وغفروا لقبرها بجوار الحبيب ، وغيبوها في الثرى جوهره . ونامت هاتان
 الجوهرتان النقيتان جنباً لجنب فوق سرير الثرى . وصارت روضة هذين
 القتيلين من الأشجان مزاراً للعاشقين من كل أنحاء العالم ، ألا فلتصدق عليهما
 الرحمة ، وليكن مزارهما موئلاً للسعادة . فقد شهدا الرحال من عالم الأحياء ،
 وحن كذلك على الأثر . فلا يليق بامرئ في هذه الدنيا حرص الطمع ،
 ولن يخلد في هذه الدار إنسان . والدهر مسددٌ قوسه ، مصوبٌ نحونا
 سهامه ، يقبض الأرواح خبط عشواء . نخير لنا — قبل أن نعاني سهم هذا
 القوس النافذ إلى القلب — أن نهزل جانباً ، لننجى السنابل من مزرعة

هذه الحياة ، ونصنع منها زاداً لنا فيما سدد سلك من طريق النجاة ، لنظفر بحياة الأبد بعد أن نفقد هذا الوجود . والعمر في هذا العيش الفاني برق في سحاب الحياة . ولا يستطيع نشر الصحف على لمح البرق ، ولا يمكن الاعتماد على ضوئه . فانشد نور الأزل والأبد ، وقسّ عيناً إذا ظفرت به . وهذا النور خبيء في طيقتك ، متألق في مشرق قلبك . فلا تُرَتّق صفو القلب بخيال المادة ، ولا تسدّ ذلك المنفذ بأدران طيقتك . فإنك إن سددتَه ظلمتَ في ظلمة مادة جسمك من ماء وطين ، فيحال بينك وبين نورك بهذا الحجاب . فخبّرني إذن : أي جدوى تنالها من النور ؟ يامن تتطلع إلى النور الأزلي ، أشحّ بوجهك عن الظلمات ؛ وخير لك أن تبقى الظلمة بعيدة عن ناظريك ، لأنها حجاب دون النور . وما أطيب أن تكون من رأسك حتى القدم كالذرة غارقاً في الأضواء من شمس نفسك ، ومهما بحثت عن علامة على ذاتك فقلها تعثر على تلك العلامة ولو بالغت في البحث . فإن غسّلتَ قلبك اليقظ بضوء الشمس وجدت نفسك كلها شمساً . وصار عودك مورقاً كل الإبراق بعد أن كان عارياً من الورق ، وأصبحتَ في مأمن من آفة الموت . وسيمبلغ قلبك مقاماً لا يموت فيه أحد سوى الموت . وتلك حياة الخلود ، وقد دلتك على رمز لها لو تعلم .

(٥٢)

هوان شأن هذا العالم

راحة القلب من المحال ، في عالم هو مقام الزوال وموطن الحداد ، مظلم ضيق الجوانب ، وزهرة زوفاه^(١) لا لون لها ولا رائحة . ويتمزق قلب كل وردة نمت في طيلته من أشواك الآسى . وكل شقيقة من شقائق النعمان في بستانه تحمل في صدرها منه حرقه الفناء . وشجر سروره الذي يناطح برأسه قبة الفلك يهوى صريعاً من قدميه على ريح الأجل .

والفلك مدار السنين مرّ تدحداً على نفسه ثوبه الأزرق . وبالشمس المعتمصة بحصن الفلك رعشة الخوف من الزوال . والنجوم في تلك القبة العالية في يأس وحيرة بحرقه الاحتراق .

. وقد صدّع الأركان المعقودة البناء في هذا العالم كره الليل والنهار . وحيناً يُخمدُ الريحُ نارَ المصباح ، وحيناً يهبُ بسموم لا تطيب . وأنا يلتصر الزاب على الماء فيرد جوهره مظلاً مثله . وأنا يصير الماء سيولا عاتية فيمزق صدر الأرض مُزقاً كثيرة . فإذا سالتك الأيام برهة دون أن تنال منك غرضاً فسامتُها تلك غير خالدة ، فهي شبكة تتعقب طائر الحياة ، ثم تمزق في لحظة الشبكة فينفصل عنها الطائر ويهرب من محبسه . فالطائر الحكيم لا يستسلم بجناحيه للشبكة ، بل يظل مشغولاً في حلقاتها بأمر نفسه . فيفتح لنفسه طريقاً مستسراً يصل به إلى متزه الخلود . فإذا انتزعت عليه الشبكة من مدخلها ، وأُخِذَتْ عليه أركان طرقها ، ذهب هو كذلك من مكانه الخاص به وخلص من ضيق القفص إلى المروج ،

(١) الزوفى : زهرة زرقاء ذات رائحة .

وغير رد بأحسان العيش الخالد في منأى من مضيق الأمل والخوف^(١). أما الطائر
الاحق الذي لم يدرك ما الشبكة فإنه لا يلقي بنظره إلى رياض الروح ، فيسد
الطريق دون ماله من خلاق ، ويعشق محبسه من الشراك ويجعل من حبة
خال الحبيبة وشراك ذوائها قيداً يرتبط منه برباط عشق خالد ، فإذا حبيبت
المعشوقة وجهها دونه ، جهد في قطع طريق الفراق وحرم وصالها ، فتجاوزت
صيحات آلامه العيوق^(٢) . ولكن ما جدوى الصيحات والانات حين
يُحسَمُ الفراق ؟ فلا هو ظفر بالعشيق في أحضانه ، ولا كان له منها غير
الحسرات والآلام . وحين يصل من حظه إلى ذلك الوبال فالطمانينة
عليه محال .

أى جامى ! لا تعقد صلة بإنسان ، إذ في عاقبة الأمر لا محيد من أن
تنتزع منه قلبك . وكن جليس نفسك دون الخلق ، وأنيس نفسك
في حالات الوحدة ، وعش غريباً عن هذا العالم ، وتعرف فيه على جوهر
نفسك . ضارباً صفحاً عن الأغيار ، معانقاً لجوهر نفسك . ومن جوهر
ذاتك انشد مرآة معشوق الأزل في قلبك . وكل ما تشن من حرب على
غير نفسك يتحول على مرآتك صدأ . وكلما راء الصدأ على مرآتك ضاق
بك الطريق لمتعة الوصال . فاجل الصدأ عن مرآة نفسك يتفتح لك الطريق
لحرم الوصال . ولا يفسح لك ذلك الطريق إلا حين تصير مرآتك مجلوة .
وكلما نأيت بمرآتك عن الأغيار أشرقت في قلبك لوامع النور ، فيتحرر
بذلك لبابك من غلاف الجسد ، وتتجرد من غشاء مادتك لتبقى والحبيب .
كلا ، بل لن تظل أنت كذلك على حالة البقاء ، لأنك ستكون مع الحبيب
محجوباً عن نفسك .

(١) كناية عن هذا العالم .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضى في طرف الحجره الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها (القاموس

المحيط) وهي نفس الكلمة في الأصل الفارسي .

(٥٣)

نصيحة إلى الابن العزيز^(١)

أى حديث العهد بالنظر فى لوح الكونين ، ومن أنت قرّة العين وإنسانها ؛ على الرغم من أن عمرك سبعة أعوام أو ثمانية فقلبك عزوف عن الهوى . وهذا اللطف الذى جُبات عليه يجعلنى أرجو من الله أن يتيح لك عهداً تصير فيه مرفوع الرأس بحكمتك وذكاء فؤادك ، وأن يهبك من الفضل والأدب القبول ، ويُجسّبك طريق الفضول . فأنأبجوهرك الطاهر عن كل ما لا يحمد وما لا يليق . وإنّذلّ فى كسب السكال الجهد ، واقض عمرك فى طلب الأفضل ؛ ودائرة دوامة الطلب وسيعة ، وبحر العلوم بعيد الأغوار ، فلا تقنع بكل ماتجد ، وأسرع من الحسن إلى الأحسن . ولا تمنح بتبعرك فى الدرس صفحات التقوى من الله ، ولا تدّخل الفلسفة فى أمر الدين ، فتكون مثل الفلاسفة نابذى الدين . أمامك الرموز السماوية^(٢) ، فلماذا تقرأ أكاذيب أهل الأرض ؟ ودونك يثرب ، فلا تكن مثل السفلة تطلب الإكسير من قبور اليونان .

ولماذا كان العالم بالدين غير أحقّ فلن يتجاوز سور مدينة الدين ، فكما أن ناجحة المسك فى سرّة الظلمة ، فكذلك فى قلب المدينة مسك الدين

(١) فى هذا الفصل ينصح الشاعر ابنه له ، ومن الطريف أن يكون من بين نصائح الجاهل لابنه ألا يقرأ الفلسفة ، وأن يكتب بالدين وكتبه ، والجاهل نفسه خير من لم يقرأ الفلسفة ومزجها بالدين فى كثير من آرائه كما أتيسح لنا أن نشير إلى ذلك فى تعليقاتنا على هذا الكتاب ، وقد شرحنا ذلك فى الباب الثانى من كتاب : ليلي والمجنون فى الأدبين العربى والفارسى أو الحب العذرى والحب الصوفى .

(٢) لعله يقصد القرآن .

حيثُ شُجِّتْ تلكُ الناجحة ، فَتَضَوَّعَ أريجها وعم الشرق والغرب ؛ ولكن
أرباب الهوى منه في زكام مستحکم ، فشائمهم من نكته خالية . فاتخذ لك
من ساكن هذا الحرم قدوة ، واجعل رأسك في طريق الاقتداء به قدماً .
واتجه به بأنظارك إلى راحلة الشرع ، فأينما تضع هي القدم فضع أنت الرأس .
وإذا سلكت هذا المنحى في الاقتداء ، فستصل بك تلك الراحلة في النهاية
إلى الغاية .

وكن يقظاً ، إذ سيصادفك في الطريق آلاف الحفر من الحشمة والجاه ؛
فلا تَصِلْ الطريق عن عمى قلب ، فتقع في بئر من تلك الآبار كعمى
القلوب . وكن يقظاً ، إذ سيعرض لك قُطَاع طريق الخير ليجعلوا من الذهب
والفضة لك قيوداً ؛ فلا تتقيد بقيود الذهب والفضة ، ولا تفر عن السير
في الطريق . وكن يقظاً ، فكل من وقف عن السير اعترضه غول وسط
الطريق . ولا تستسلم بفكرك إلى خيال الباطل فتقصي عن الطريق .
ولا طريق سوى ما سلكه الرسول بقدم الحق حتى مقعد الصدق ؛ فتفقد
طريقه واسلكه ، وانظر إلى آثار أقدامه في الطريق وسر على أثره . ومثل
بنفسك عن كل طريق ليست به آثاره ، إذ ليس بها غير هلاك النفس .
وإذا كان من طبعك قبول النصيح ، وقع ما شققتُه لك من نصيح موقع القبول .
وقد قلتُ ما كان ينبغي أن يقال ، ونظمت في سلك الشعر ما كان على أن
أنظمه من جوهر القول . وقد فرغ من الأمر لساني ويدي ، فَهَمَّتْ
وحطمتُ القلم .

(٥٤)

ختم الكتاب وخاتمة الخطاب

أى جامى ! مهما عانيتَ من مرارة الجهد فى اجتياز محيط الأمانى
فَسَبُّكَ هذا منالا ، إذ وصلتْ إلى الساحل السفينة ، بعد أن اجتازتْ
أمواج المعانى التى جاش بها صدرك . وهذه السفينة أكثرُ يَمْنًا من سفينة
نوح ، راحةٌ للقلب وسكينةٌ للروح . ومن كرم طبع كل جواد أن يقف
على جودى جودها . كلا ، فمن وقف دون بحر الجود فهو كمن قاد
سفينة على اليابسة ، تظل شفاهه جـدبة لا تروى ولو جاب كالفلك
البحار السبعة .

وهذه القصة شمس مشرقة من مطلع الهمة ، ومنتقاة من كتاب الدهر ؛
باكورة الثمار من حديقة الأمانى ، ورأس مال العيش الخالد ، وهى السحر
لسجرة الكون بيانًا . وهى قصة العاشقين الوالدين ، وحكاية عذبة عن حال
البائسين ، وحديث طريف لمن عيَّ لسانهم عن البيان ، ومرهم شاف لحرقه
مفطورى القلوب ، وتسكين لآلام من حرمو القرار . وهى ماشطه الجمال
للغيد الحسان ، ودالة طبائع المحبين . وهى طائر فى فضاء حديقة الأسرار ،
يترنم بلحن حديقة الشوق ، والنفوس مصغية إلى ألحانه ، والأرواح منها
فى أريجية ونشوة . وسوق الغيد الملائكية الحدود بها رائجة ؛ وهى مثار
آهات القلوب من العاشقين القائمين بالأسحار . فأنت تشمُّ من لطائف
أمرها خاصة الربيع ، إذ تُصَيِّرُ الورد ضاحكًا طربًا ، وتستمطر الدموع
من عيون السحاب . وهى السحر وايد القيام بالأسحار ، وهى البحر

مستودع الدرر ؛ وهى سكر عذب المذاق طازج من عصير قصبه القلم ؛ ونصف قطرة من هذا العصير المقطر من القلم بمائة قطرة من السكر الخالص .

فأين من نظامى^(١) طائر فصاحته الحلوا الحديث ، الذى آخذ عنه عذب القول وثمينه ، ليشرب من رشح هذه الكأس ماء الورد ، وايصير ريقه حلوا على مذاق هذا الشهد ؟ فعلى ماله من مئات البحار ذخيرة فالما يعاف متى كان فى حوزة صاحبه . وقد يعاف الظامى الكوز القديم ولو كان من ذهب خالص ، ويشرب من الجرة لأنها جديدة .

وأين خسرو^(٢) فى دار الملك الدهلوى ، وفى لطف خاقه الجبلى ، ليحمل إلى تحفة تاجه وعرشه ، ويأتى إلى بالخراج من إقليمه ، وينثر على مقالى جواهر من كنز خاطره الفياض بالطرف ؟

سبحان الله ! وما جدوى هذا القول ؟ ومن ذا يتكلم بمثل هذا الكلام ؟ وعادة الخلق أن يرتفعوا بمتاعهم إلى أعلى من درجته ، فيصيح بأع الخرز منادياً : ماتنا فيروزة^(٣) بذاق ، فيسمى الخرز فيروزا ليستميل إليه طبع العوام . وهكذا جمعت عدداً من صغار الخرز ، وافتننت فى نظمها بعضها ببعض ، ثم صرت بائعاً لخرزى ، سالكاً مسلك بادة الجواهر . وكل من يشتريها بكلمة استحسان فله جزاء الخَيْر . ومهما يكن كلامى غير سامى القدر فإن اختياري يتجه إليه دون كل كلام . ومينل الغربان إلى صغارها أكثر من ميلها إلى صغار الببغاوات . والشعر الذى يتولد من خاطر العاقل مثل الابن . ومهما يكن الابن قبيح الصورة فهو فى عين والده جميل الخلقة .

(١) انظر ص ٣٤٠ ، ١١ من هذا الكتاب

(٢) الفيروز : حجر ثمين أزرق

وهذه القصة من صنع شبابة القلم الماضية ، وقد قامت بما يقوم به المغزل
لعروس الطبع . فاكْتُتِبْ بالشبابة خطأ جميلاً ، وانسج بذلك المغزل خطوط
المسك ، وسَطَّر الحروف على لوح من الانصاف ، وانسج دُرَاعَة
المقَسَّـتَرَّ على العيب . وإذا كان الشعر جميلاً وكتب بخط حسن فإنه
يكتسب جمالا على جمال ، لكنه إن اكتسى من الخط بلباس غير جميل صار
معيباً في نظر متتبع العيوب . فإذا لم تكن بحيث تزيد في جماله ، فاقتصد في
جعلك عرضاً لعيب من ضل رأيهم ، فلا تفسد القلم الجميل عبثاً ، ولا تلتطخ
به الصحائف الجميلة . وما تخطه من حرف رديء فإنما تدون به كل عيوبك .
فإذا كنت تعد عيوبى فمَسَّـتَرَّ على عيوب نفسك . وإذا لم تبذل الجهد في
جودة الخط ، فبالله إلا أَعْمَلْتَ حَادَّ ذَكَائِكَ في وضع ما تكتب من
حرف في مكانه الصواب ، فالصواب خير الفضائل ، وحين تم الكتابة
قَابِلْ ما كَتَبْتَ على نسخة صحيحة ، وإذا كنت قد فعلت في البدء خطأ
فلا تكل أمر إصلاحه إلى الآخرين . وكانت نهاية هذا البناء الأشم عام تسع
وثمانين وثمانمائة . وإذا وُقِّعَتْ في عد هذه الآيات كانت ستين وثمانمائة
وثلاثة آلاف . وقد استغرق عرضها من طبع خصب بأفكاره طوال
أربعة أشهر تنقص قليلاً أو تزيد ، وفي بضع ساعات في كل يوم منها كان
طبعي عظيم الجد سعيد الطالع . فإذا جمعت هذه الساعات لبعضها فلن تزيد
على أسبوعين أو ثلاثة . ومهما ضؤل قدر هذا الضعيف فقد انتهى من هذا
النظم بحيدته ورديته . ألا فلتكن علبه القللك درجا لجوهره ، وليبق صيته
ملء الزمن ، وليطلب الصالحون لى من الله العفو في صلاة الفجر .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١
١ - فى معنى عشق الصادقين وصدق العاشقين	٩
٢ - سبب نظم الكتاب وباعث ترتيب هذا الخطاب	١١
٣ - ذكر بعض من خرجوا من دائرة الزمان ، ودعاء بعض من حلوا فى مركز نقطة الحال	١٣
٤ - الحلقة الاولى فى قصة عشق ليلي والمجنون	١٨
٥ - غرام قيس قبل تعرفه بليلى	٢١
٦ - وقوع قيس عن اختيار فى حب ليلي	٢٤
٧ - ليل الحب	٢٧
٨ - عتبة	٢٩
٩ - الناقة ورضيعها	٣٣
١٠ - برهان المحبة	٣٦
١١ - عهد الوفاء	٣٩
١٢ - قبيلة قيس تكشف المكنون من حبه	٤٢
١٣ - نصيحة والد قيس له	٤٥
١٤ - نصيحة العامريين لوالد قيس بتزويجه بأخرى	٤٩
١٥ - الوشاية	٥٣
١٦ - نذر الحج	٥٧

الموضوع	الصفحة
١٧ - الذهاب إلى الحج بعد إجازة ليلى	٦٠
١٨ - منع ليلى من ملاقة المجنون	٦٣
١٩ - عقاب والد ليلى لما حين علم ببلقائها المجنون	٦٧
٢٠ - الجارة الأرملة	٦٩
٢١ - شكوى والد ليلى إلى الخليفة	٧٢
٢٢ - والد المجنون يخطب ليلى له	٧٥
٢٣ - رضى والد ليلى خطبة قيس	٧٩
٢٤ - نوفل يعد قيساً بتزويجه من ليلى	٨٣
٢٥ - إعصار فى الصحراء	٩١
٢٦ - الظبية	٩٥
٢٧ - لقاء مع راعى ليلى	٩٩
٢٨ - المجنون وكثير أمام الخليفة	١٠٣
٢٩ - الروضة	١٠٧
٣٠ - دعوة الخليفة لقيس	١١٠
٣١ - فى قافلة ليلى	١١٥
٣٢ - لقاء فى مناسك الحج	١١٨
٣٣ - زفاف ليلى إلى شاب من بنى ثقيف	١٢١
٣٤ - المجنون يعلم بزواج ليلى	١٢٦
٣٥ - أسى المجنون بعد زواج ليلى	١٣٠
٣٦ - الحمامة المطوقة	١٣٤
٣٧ - رسالة ليلى إلى قيس تعتذر عن زواجها	١٣٩

الموضوع	الصفحة
٣٨ — قيس يتسلم رسالة ليلي	١٤٣
٣٩ — رسالة المجنون إلى ليلي	١٤٨
٤٠ — وفاة زوج ليلي	١٥١
٤١ — بكاء المجنون على غريمه	١٥٣
٤٢ — في طريق المجنون إلى ديار ليلي « السكب الطريد »	١٥٦
٤٣ — المجنون يزور ليلي متخفياً بين القطعان	١٦١
٤٤ — المجنون مع السائلين في ضيافة ليلي	١٦٦
٤٥ — المجنون يفقد عقله كله	١٦٩
٤٦ — بدوي في زيارة المجنون	١٧٤
٤٧ — موت المجنون	١٧٦
٤٨ — المجنون وجد طريق الحقيقة	١٨١
٤٩ — نعى المجنون إلى ليلي	١٨٤
٥٠ — ليلي تضنى وتستعصى على نصيح صديقاتها	١٨٧
٥١ — وفاة ليلي	١٨٩
٥٢ — هوان شأن هذا العالم	١٩٤
٥٣ — نصيحة إلى الابن العزيز	١٩٦
٥٤ — ختم الكتاب وخاتمة الخطاب	١٩٨
تصويب	٢٠٤

تصويب

وقعت في الطبع أخطاء لا تخفى على إدراك القارىء، ونلجأ هنا إلى ما يجب استدراكه منها :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٥	اسعد الدين	لسعدى
١	١٢	عام ١٩٤٦	عام ١٤٤٦ م
٢	١	تم	أتم
١٠	٩	هذه	هذه
١٥	٢٤ هامش	المفولية	المغولية
٢٦	٦	ادع	دع
١٨	٤	أفوج	أوج
١٩	٢١	الحجلان	الحجل
٢١	٢	طبلمته	طبلمته
٢١	٣	لوجه	لوجه

٢٤ سقط رقم الفصل وهو — ٧ — في صدر الصفحة

٢٨	٢	برقياه	برقاه
٣٦	٣	تسبر	تسبر
٤٦	١٩	إذ	إذا
٤٧	١٠	افرع	أفرغ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٣	رقم الفصل	١٤	١٥
٥٨	٦	فأعظم	فأعظم
٦١	١٣	بلسم	دواء
٦٤	١٥	الخنذر	الخنذر
٦٦	١	تعرّض	تعرّض
٨٣	٦	حجل	حجل
٨٤	٧	بنذان	بنذان
٨٤	١٢	بكنز	بكنز
١١٨	٥	سبيلي	سبيلي
١١٨	١٦	قفسى أثرها	قفسى على أثرها
١٢٢	١٦	سعيد	سعيدا
١٣٢	١٤	الغنيد	الغنيد
١٣٤	١٦	بده	يده
١٣٦	٧	نات	أناث
١٤٣	رقم الفصل	٣٧	٣٨
١٤٤	٩	مائد	مائدة
١٤٨	٤	قاصها	وقابضها
١٤٨	١٨	رونها	دونها
١٥٠	٧	ولئك لأسباب	أولئك لأسباب
١٥٢	١٩	م لسنة	السنة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦١	٢٠ هامش	أتردها	أزدها
١٧٣	٣	الزول	الزوال
١٧٤	٤	يـيـج	يـيـج
١٧٥	١٣	جواهر	جواهره
١٧٦	١٤	وسطحها	وسطها
١٧٩	١٨	بذيلة	بذيله
١٨٦	٧	بقت	بقيت
١٨٧	١٠	المحي	المحي
١٨٨	١١	نظوت	نظرت
١٩١	٢	فيومي	فيومي

للمؤلف

- (1) L' Influence de la Prose Arabe Sur la Prose Persane
Aux Ve et VIe Siecles del' hégire (XIe et XIIe siècles
après J. C.) Paris 1952.
- (2) le Thème d' Hypatie dans la littérature Française et
Anglaise du XVIIIe Siècle au XXe Siècle, Paris 1952

وهما رسالتان لذكثوره الدولة فى الأدب المقارن من السوربون

سنة ١٩٥٢

(٣) الأدب المقارن القاهرة ١٩٥٣ .

(٤) ليلي وانجنون فى الأدبين العربى والفارسى : دراسات نقد ومقارنة

فى نشأة الحب العذرى، ثم الحب الصوفى وتأثره بالفلسفة ، القاهرة ١٩٥٤ .

Laïla et Madjnoun
ou
De L' Amour Mystique
Par
Le Poète Persan A. Al - Djami

Traduction arabe intégrale
Préfacée et annotée

Par

M. GH. HILAL

docteur ès - Lettres

Maître de Conférences à l'Université du Caire

Publié Par la librairie Anglo — Egyptienne
165, Rue Mohamed Farid
Le Caire 1954

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 077095774